محمد الخطيب

حضارة إيران وآسيا الصغرى في العصور القديمة





دار علاء الدين



حضارة
إيران وآسيا الصغرى
في العصور القديمة

بعد تزايد الاهتمام بالعالم الإيراني وبتاريخه وبآثاره القديمة وبلغاته، نشرُت دراسات علمية حول هذه الموضوعات التي تلبي حاجة الطالب والمثقف والباحث. وأصبح من الواجب إيضاح المصطلحات المتعلقة بتاريخ هذه البلاد، وعرض تاريخها بطريقة موضوعية، تستهدف ضرورة التعارف بين الشعوب وحوار الثقافات وتواصل الحضارات، وتهدف إلى التعرف على أوضاع الشرق القديم قبل الإسلام وبعده.

كانت هذه الحضارات متعاصرة أحياناً ومتعاقبة أحياناً أخرى، ولكن بعضها يكمل بعضها الآخر في سلسلة متعددة الحلقات وتكون المدماك فوق الآخر في بناء صرح أقدم الحضارات الإنسانية وأخصبها إنتاجاً.

وأصبحت دراسة التاريخ القديم لإيران وآسيا الصغرى أمراً هاماً لفهم الأوضاع السياسية والحضارية والاقتصادية لهذه المنطقة، وخاصة منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

في كل مكان تواجد فيه الإنسان حقق إنجازات حضارية وكان له دور في تقدم البشرية قد يكبر أو يصغر حسب الزمان والمكان والإمكانات المتوفرة. فالحضارة في مجملها عمل ساهمت في تحقيقه الشعوب كافة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

ISBN 978-9933-18-726-2



يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين-سورية-دمشق.ص.ب ٣٠٥٩٨ هـ ٥٦١٧٠٧١ ف ٥٦١٣٢٤١

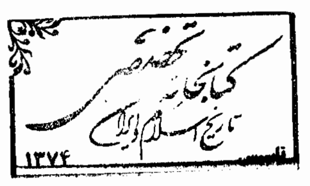
www.zoyaala-addin.com الموقع الالكتروني ala-addin@mail.sy البريد الالكتروني

حضارة
إيران وآسيا الصغرى
في العصور القديمة



محمد الخطيب

حضارة إيران وآسيا الصغرى في العصور القديمة





منشورات دار علاء الدين

- حضارة إيران وآسيا الصغرى في العصور القديمة.
- تأليف: محمد الخطيب.
- الطبعة الأولى 2013.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية - دمشق

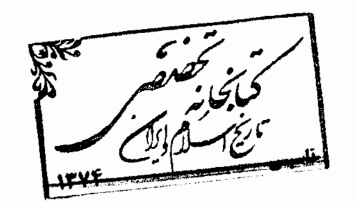
ص. ب: 30598 هاتف: 5617071 فاكس: 5613241

Web: www.zoyaala-addin.com E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-726-2

القسم الأول

الحضارة الفارسية القديمة



مقدمة

بات من الضروري، وذلك بعد تزايد الاهتمام بالعالم الإيراني وبتاريخه وبآثاره القديمة وبلغاته، نشرُ الدراسات العلمية حول هذه الموضوعات التي تلبي حاجة الطالب والمثقف والباحث. وأصبح من الواجب إيضاح المصطلحات المتعلقة بتاريخ هذه البلاد، وعرض تاريخها بطريقة موضوعية، تستهدف ضرورة التعارف بين الشعوب وحوار الثقافات وتواصل الحضارات، وتهدف إلى التعرف على أوضاع الشرق القديم قبل الإسلام وبعده.

اتصلت الثقافتان العربية والفارسية بعد الفتح العربي لإيران، وازداد أثر التاريخ الفارسي القديم والحضارة الفارسية على تاريخ العرب والإسلام. فكثير من الفرس تعربوا، ومعنى تعربهم أنهم أفسحوا رؤوسهم وألسنتهم لثقافة عربية، تتزاوج مع ما نشأوا فيه وشبوا عليه، وفتحوا صدورهم للإسلام ليحل محل دين ولدوا عليه، وعاشوا حيناً في شعائره وتقاليده. كل هذا كان سبباً في التزاوج والإنتاج. ويسبب ذلك التواصل لا تكاد ترى في هذا العصر ثقافة مدنية أو دينية عاشت وحدها في عزلة عما حولها، بل كان كل منها مؤثراً ومتأثراً، وفاعلاً ومنفعلاً في الوقت نفسه، وإن اختلفت فيما بينها في مقدار فاعليتها وانفعالها، ونواحي تأثيرها وتأثرها.

ومن هنا نشأت حاجة الدارس العربي لتاريخ الثقافة العربية والإسلامية، إلى الإلمام بتاريخ الفرس وحضارتهم.

ظهر الحثيون في أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد في آسيا الصغرى، وأسسوا دولة قوية، سرعان ما دخلت في صراع شرس مع القوى المجاورة من أجل السيطرة على الشرق الأدنى القديم، فأسقطوا دولة بابل الأولى في حوالي 1600ق.م، وأسهموا في القضاء على الدولة الميتانية التي قامت في شمال العراق، ثم دخلوا في حروب متتالية مع الجيوش المصرية في سورية، انتهت بعقد صلح ومعاهدة صداقة في عصر رعمسيس الثاني. لذلك كان من الضروري رسم صورة متكاملة للمجتمع الحثي ولمؤسساته الاقتصادية والحكومية وللقوانين والنظام القضائي وغيرها من جوانب هذا الشعب الذي لم ينل، على خطورة دوره في التاريخ القديم، حظه الكافي من الاهتمام والدراسة.

ويعدُ الحوريون أحد أبرز شعوب الشرق القديم، ويشكل تاريخهم صفحات أساسية في تاريخ سورية القديم خلال الألف الثاني ق.م. لقد ارتحلوا إليها كغيرهم في أواخر الألف الثالث ق.م، واتخذوها موطناً، وأسهموا في تاريخها السياسي والحضاري، وتمكنوا في مطلع القرن الخامس عشر ق.م، أثناء تحالفهم مع الميتانيين، من تشكيل مملكة تمركزت في مناطق الجزيرة السورية العليا، وامتدت غرباً في الشمال السوري وشرقاً في الشمال العراقي. شكلت مملكة «حوري - ميتاني»، إلى جانب الممالك والإمارات الناشئة كبقية الإمارات السورية، مثل أوغاريت، أمورو، تونيب، نوخشي.. قوة أساسية في مواجهة الأطماع الحثية والمصرية والآشورية والبابلية وصراعها حول سورية، وصمدت بضعة قرون أمام حملات تلك القوى السياسية الكبرى.

كان البناء الاجتماعي والاقتصادي في مناطق الحوريين ذا طابع خاص، ومع ذلك تميزت الحضارة الحورية بعدم انغلاقها، وبانفتاحها على الحضارات المجاورة، وقدرتها على التثاقف والتمازج معها في المجالات الدينية والأدبية والفنية.

كانت هذه الحضارات متعاصرة أحياناً ومتعاقبة أحياناً أخرى، ولكن بعضها يكمل بعضها الآخر في سلسلة متعددة الحلقات وتكون المدماك فوق الآخر في بناء صرح أقدم الحضارات الإنسانية وأخصبها إنتاجاً.

أصبحت دراسة التاريخ القديم لإيران وآسية الصغرى أمراً هاماً لفهم الأوضاع السياسية والحضارية والاقتصادية لهذه المنطقة، وخاصة منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

في كل مكان تواجد فيه الإنسان حقق إنجازات حضارية وكان له دور في تقدم البشرية قد يكبر أو يصغر حسب الزمان والمكان والإمكانات المتوفرة. فالحضارة في مجملها عمل ساهمت في تحقيقه الشعوب كافة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

مدخل إلى تاريخ الحضارة الفارسية القديمة

جغرافية إيران:

لعب التكوين الطوبوغرافي في لمناطق عالم الشرق القديم دوراً حاسماً في تحديد لون الحضارات التي نشأت فيها، وبالتالي في قدرة هذه الحضارات على الصمود ثم الاستمرار، خلال الصراع الدائم الحاد الذي نشب بين شعوبها بغية تسلم زمام القيادة السياسية في هذا العالم القديم المتحضر.

وقد كونت الحدود الطبيعية التي تفصل مستوطنات الإنسان القديم في القسم الغربي من الشرق القديم عن بقية المناطق الأخرى منه. إن توفر المياه الغزيرة والتربة الخصبة في كثير من بقاع الشرق القديم والموقع الاستراتيجي الهام بين قارات ثلاث، كل ذلك خلق عوامل أدت إلى نشوء الحضارات ونموها وخاصة خلال حقبها الأولى[1].

يمتد العالم الإيراني من نهر الهندوس ومرتفعات السند وجبال هند كوش شرقاً، إلى جبال زاغروس غرباً، على مساحات واسعة تقدر بما يقرب من 1.600.000كم^2. لكن ثلثي هذه الأراضي كانت صحراء قاحلة. وترتفع الجبال في الشمال إلى ما يتراوح ما بين 2000–4000م. أما قلب البلاد فيتألف من هضبة صحراوية جرداء هي - على ما يذهب إليه الجيولوجيون - عبارة عن قعر بحر قديم جفّ ماؤه.

الهضبة الإيرانية تشبه مثلثاً يقع بين منخفضين: أحدهما الخليج العربي في الجنوب، وثانيهما بحر قزوين (الذي يعرف عند العرب ببحر الخزر) في الشمال. وتحيط بهذه الهضبة، سلاسل من الجبال ترتفع حولها : من الشمال جبال البورز، ومن الشرق جبال خراسان، ومن الجنوب جبال مكران، ومن الغرب جبال زغروس، وهذه

1– د. توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، دار دمشق، ط 1، 1985 ص 17-18.

الجبال جميعها تتألف من سلاسل متتابعة تخترقها الوديان التي تتجمع فيها بعض المستنقعات والبحيرات. وقد كانت هذه الجبال في العصور القديمة مكسوة بغابات السنديان والبلوط وغيرها، وكانت أمطارها غزيرة وتنبت في وديانها أنواع مختلفة من الأشجار المثمرة والنباتات الصالحة للأكل التي كان يجمعها الإنسان الأول ويتغذى منها. كما كانت تكثر فيها مختلف أنواع الحيوانات من الغنم والبقر والماعز التي كان يصطادها الناس، ووجدت فيها الوحوش كالذئاب والأسود والفهود وغير ذلك[1].

أما القسم الأوسط من الهضبة فهو منخفض واسع يتميز بجدبه. وتمر فيه سلستان داخليتان من الجبال. وينقسم هذا المنخفض إلى قسمين: صحراء كفير في الشمال وصحراء لوط في الجنوب.

تصعب الحياة في الهضبة الإيرانية، ولا تتيسر إلا في الوديان التي تخترق سلاسل الجبال أو في الواحات. لقد ازدهرت الحياة في السهول التي تقع خارج سلاسل الجبال أو على حافتها الداخلية. وأهم هذه السهول سهل خوزستان الذي يقع في الجنوب الغربي (وكان يطلق عليه قديماً سوزيانا)، وهذا السهل من الناحية الجغرافية امتداد لسهل العراق. وقد كان هذا السهل خلال العصور مأهولاً بسكان متمدنين أثروا في البدو الذين كانوا يسكنون التلال المجاورة. وعندما امتدت حدود الإمبراطورية الإيرانية غرب جبال زاغروس، ازدهرت الحضارة في هذا السهل من جديد. وكانت مدينة سوسا عاصمة سوزيانا القديمة، وأصبحت عاصمة للإمبراطورية. وقد ساعدها على بلوغ هذه المكانة موقعها الجغرافي الذي يسهل الاتصال منه بمدن العراق وآسيا الصغرى.

وهناك سهل خارجي آخر يقع بين بحر قزوين وجبال البروز. وتجتذب الجبال العالية هناك سحباً تؤدي إلى هطول كميات كبيرة من الأمطار على ذلك السهل الساحلي الضيق الذي يمتاز بفرط خصوبته. ويمثل هذا السهل المنطقة الحارة من إيران، وتغطيه الغابات والمستنقعات والأحراش. وينمو هناك الأرز والقطن والشاي والتبغ وقصب السكر والبرتقال والليمون والتوت والتين والرمان، وفيه يتم إنتاج الغذاء لثلث سكان إيران.

وتوجد وسط الهضبة منطقة صحراوية، إضافة إلى مناطق طينية التربة، فمثل هذه المناطق وافرة الخصوبة ويمكن زراعتها بالري الصناعي. وعلى الرغم من مناخها

1- د. نعيم فرح: تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ، مطبعة الحلبوني، دمشق 1975، ص 223.

القاسي الذي يمتاز بشدة الحرارة في الصيف وشدة البرودة في الشتاء، فإن هذه الأرض يمكن أن تغل محاصيل وافرة إذا استطاع الإنسان نقل الماء إليها. وقد شاع في إيران الري الصناعي منذ وقت بعيد. ففي أيام الأخمينيين كانت هناك سلسلة من القنوات تنقل الماء تحت الأرض. وقد ينقل الماء المتجمع في أسفل جبل مسافة تبلغ ثلاثين ميلاً لري بقعة من الأرض. ومن هذا الماء وكذلك من الأمطار الغزيرة التي تتساقط في جبال البروز وزاغروس، أصبحت الحافة الداخلية لتلك الجبال مرصعة بواحات كثيرة.

وكانت عواصم إيران منذ ظهرت فيها مملكة ميديا الأولى تقع في مواجهة الصحراء على الطرق الرئيسية التي تمتد إزاء الحافة الداخلية لسلسلتي جبال زاغروس والبروز، فمن الغرب إلى الشرق تقع على طريق التجارة الممتدة بإزاء جبال البروز مدن: إكباتنا (همدان) وقزوين وطهران والري ودافعان وهراة. أما الطريق الجنوبي فتقع عليه أصفهان والري واصطخر وبيرسيبوليس وشيراز.

وقد أثبتت الحفريات الجيولوجية أن هذا التجمع السكاني له أصل في عصور ما قبل التاريخ، حيث تم اكتشاف أن رجل إيران في العصر الحجري سكن هذه الأماكن عندما نزل من الجبال. وقد كشفت مناطق كانت مسكونة في العصر الحجري عند كاشان وقمم والري ودامغان[1].

هذه الدولة التي تحيط بها الجبال الشاهقة من كل جانب، لم تكن منعزلة عن العالم الخارجي في عصر من العصور، فمن وسط جبال زاغروس نزل الغوتيون الذين غزوا أرض الرافدين في أواخر العصر الأكادي. ثم من هنا كان اختراق الكاشيين الذين كانوا يسكنون المنطقة التي تدعى حالياً لورستان، لأرض بابل، وهو الغزو الذي أدى إلى إنهاء حكم الأسرة البابلية وإلى استيلاء أسرة كاشية على عرش بابل مدة تزيد على أربعة قرون.

كذلك يمكن اختراق الهضبة الإيرانية من الشمال، حيث تتصل سلسلة جبال البروز عند حافتها الغربية بمنطقة أذربيجان الإيرانية من الجهة الشمالية المنيعة. وقد جلبت هذه المنطقة، التي تعدّ أحد منفذين طبيعيين اثنين إلى قلب إيران، شعوباً عديدة جاءت واستقرت على التوالي حول بحيرة أورمية. وهذه الشعوب هي: الميديون

1- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، دار النهضة العربية، بيروت، 1970 ص 127-129.

والفرس والكرد والمغول والترك والتتار. وفي هذه البقعة ولدت ونشأت الأسر المالكة في ميديا وفارس[1].

تتمتع إيران، عدا عن كونها بلداً زراعياً ورعوياً، بثروات طبيعية دفينة متنوعة وغنية في باطن أرضها. ففي الألف الثالث قبل الميلاد كان الحكام السومريون يستجلبون كتل الرخام والألباتر من مقالعها الحجرية، كما كانوا يقطعون الأخشاب من الغابات التي كانت تغطي بكثافتها الجبال وهي اليوم جرداء قرعاء.

استخرجت من صخورها الحجارة الكريمة، ومنها (الينع) وهو العقيق الأحمر، والفيروز الأزرق الغامق واللازورد السماوي الرائع الزرقة، واستخرجت المعادن كالنحاس والقصدير والتوتياء والحديد. وهي موارد أثارت مطامع ملوك آشور الفاتحين الذين نظموا الحملات المتتابعة لفرض الغرامات والأتاوات. وكان معروفاً منذ زمن هيرودوت على الأقل أن الحوضين الكلسيين في جبال زاغروس يحتويان على حوض من النفط الذي لم يجر استثماره إلا في القرن العشرين. وهكذا تتضح الإمكانات الضخمة المعدنية والزراعية التي تتمتع بها البلاد التي استطاعت منذ الألف الأول ق.م أن تلعب دوراً هاماً في مجرى تطور الأحداث ومسيرة الحضارة في الشرق الأدنى القديم.

ورغم قسوة الطبيعة في الجزء الأكبر من سطحها ومن إحاطة الجبال بأرضها من معظم أطرافها، إلا أن البلاد مفتوحة من جهات متعددة على الحضارات المجاورة والعالم الخارجي: بلاد الرافدين من الغرب، والهند من الشرق، والسهول الروسية من الشمال، والبحر العربي والمحيط الهندي من الجنوب. هذا الموقع الجغرافي المتاز جعل إيران طريقاً عالمياً للمواصلات. فعبر أراضيها كانت تمر ولقرون عديدة طريق الحرير والتوابل والحجارة الكريمة. وعلى الطريق نفسها زحفت الجيوش الغازية والمدمرة التي غيرت وجه الشرق: جيوش الإسكندر القادم من الغرب، وجيوش قادة المغول والتتار القادمة من الشرق. هكذا كانت هذه البلاد بسبب اتساعها وتنوع جغرافيتها، وهذا ما شكل صعوبة في الدفاع عنها بصورة فعالة، فأضحت بالتالي بوتقة انصهرت فيها عبر تاريخ طويل أعراق وأقوام أنشأت حضارات متتابعة في مراكز متعددة؛ حيث تتوافر الشروط الملائمة على أطراف الواحات والسهول الزراعية، وهو

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة قبل الإسلام، جامعة دمشق، ط 1، 1989، ص 11.

ما تكشفت عنه التنقيبات الأثرية، ونجح الإنسان الذي أقام على هذه الأرض في إبداع ثقافة مميزة بصنائعها وأفكارها ومثلها وبقيمها الدينية والفنية والأدبية، لم تنحصر في العالم الإيراني المحدود بل انطلقت خلال العصور القديمة كلما أتيحت لها الظروف إلى الأطراف المجاورة لتتبادل التأثر والتأثير معها ولتطبعها أحياناً بطابعها الذي لا يمكن إلا أن يكون لوناً جميلاً من الألوان الباهرة في لوحة الحضارة الإنسانية عبر مسيرتها الخالدة[1].

الشعوب الإيرانية القديمة:

ينتمي الإيرانيون إلى مجموعة الشعوب الهندو أوروبية التي بدأت بالقدوم إلى إيران منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد. وكانت الشعوب الهندو أوروبية قد بدأت بالهجرة من موطنها الأصلي في آسيا الوسطى وجنوب روسيا منذ الألف الثاني قبل الميلاد. اتجه الإيرانيون نحو الجنوب واستقروا في منطقة الهضاب ما بين بحر قزوين والخليج العربي، وكان الفرس والميديون أهم مجموعاتهم[2].

إن كلمة «إيران» تعني أرض الآريين. وترجع الكلمة إلى أصول قديمة. فقد دعا الملك داريوس (دارا) الأول نفسه آرياً من نسل آري. ومن آريا – وهي منطقة تقع على طول نهر آريوس (هاريرود) في وسط إيران، جاءت كلمة «إيران» التي تطور مدلولها من الجزء إلى الكل. فليس للكلمة مدلول عرقي، بل لها مدلول جغرافي، فهي اصطلاح يعني أرض الآريين. والآريون فرع من فروع مجموعة الشعوب الهندية – الأوروبية التي ينتمي إليها أيضاً الهنود واليونانيون.

ورد ذكر إيران لأول مرة عام 243 ق.م في كتابات ملكية على الشكل التالي: ERAN وتعني «بلاد الآريين».

وقد جاء اسم الفرس من اسم بلادهم فارس. وهذه الكلمة «فارس» هي في الأصل اصطلاح جغرافي أطلق على القسم الجنوبي الغربي من إيران، والممتد حتى شواطئ الخليج العربي. وكانت الكلمة تلفظ في اللهجات الإيرانية القديمة بارس، بارسا، ثم فارس، التي جاءت منها كلمة فارس بالعربية وبرسيا PERSIA باللغات الأجنبية الأوروبية، وذلك عن طريق المصادر الكلاسيكية اليونانية التي تحدثت عن

1- المرجع السابق، ص 15-16.

2- د. فيصل عبد الله ود. عيد مرعي: المدخل إلى تاريخ الحضارة، ط 3، جامعة دمشق 2001، ص 152.

الفرس والإمبراطورية الفارسية وحروبها مع اليونانيين منذ القرن الخامس ق.م. ومن المصادر الكلاسيكية انتقل هذا الاسم إلى اللغات الأوروبية وغيرها.

فكلمة فارس إذاً، بمعناها الضيق، تعني المنطقة التي كان يسكنها شعب يعرف باسم الفرس، وكان يدعوها اليونانيون برسيس PERSIS، ثم اتسع مفهوم الاسم ليشمل كل بلاد الإمبراطورية الفارسية الأخمينية التي أسسها قورش في القرن السادس قبل الميلاد، والتي شملت بعد ذلك معظم بلاد الشرق القديم من أطراف الهند إلى مصر.

ولم يكن سكان هذه البلاد جميعهم من الفرس؛ فقد اختلطت الأعراق والشعوب والأقوام واللغات في هذه الإمبراطورية الكبرى. ولكن كان للفرس فيها المكان الأول في السياسة والإدارة والجيش، في حين احتفظ البابليون بدورهم الريادي في العلوم، وانصرف الآراميون إلى التجارة في أصقاع الأرض، يحملون حروفهم الأبجدية ولغتهم وثقافتهم.

لم يكن الفرس أول الإيرانيين القدماء، الذين سكنوا أرض الآريين، واستقروا عليها. ففي نحو 1500ق.م احتلت قبائل آرية منطقة جبال زاغروس، وهي تشكل الفرع الهندي - الإيراني من مجموعة الشعوب الناطقة باللغات الهندو - أوروبية. وكان لهذه الشعوب احتكاك واسع النطاق بشعوب بلاد الرافدين، والدول التي قامت فيها. ويعتقد عدد من أهم الباحثين المختصين في الدراسات الإيرانية ومنهم هرتز فلد E. HERZFELD وكرشمان R. GHIRSHMAN أن القبائل الميدية والفارسية مع مجموعات أخرى من الشعوب الهندية - الإيرانية دخلت إيران من جنوب روسيا في بدايات الألف الأول قبل الميلاد. ولا نعرف شيئاً عن أصول هذه الشعوب الهندو إيرانية قبل أن تستقر في موطنها، سوى أنها قدمت من مناطق تقع شرقي بحر قزوين في وسط آسيا أو من مناطق أبعد، ربما تكون في الأصل من حوض نهر الفولغا، ثم تسربت إلى شمال إيران وسفوح جبال زاغروس. ونستنتج هذه المعلومات من دراسات لغوية مقارنة.

لا نعرف متى انفصل الهنود عن الإيرانيين بعد أن انحدروا جميعهم من أصل واحد. لكن من المرجح أن هذا الأمر وقع قبل 1000ق.م. ورغم هذا الانفصال، فإن كلا الفرعين ينتميان إلى الآريين، وهي كلمة تعني «السادة». و«الماديون» (الميديون). وقد استقر هؤلاء في الشمال في البلاد التي عرفت باسم ميديا، بينما استقر الفرس في الجنوب بصورة نهائية في المدة الواقعة بين 900-700 ق.م، فعرفت المنطقة باسم بارسا، برسيس أي فارس.

وعند قدوم هذه الشعوب الهندية - الإيرانية لم تكن الأرض خاوية خالية، فقد سبقهم إليها المانيون، وهم من الشعوب الهندو أوروبية التي أنشأت حضارة على هامش الحضارة الرافدية تأثرت بها وتعاملت بموجب معاهدات ولاء للملك الآشوري نحو القرن السابع قبل الميلاد.

أما في جنوب غربي إيران فقد قامت حضارة قديمة في المنطقة، دعاها الرافديون عيلام، وهي التي عرفت في المصادر الفارسية باسم خوزستان، وفي المصادر العربية باسم الأهواز، وفي المصادر العربية الحديثة باسم عربستان، بسبب انتشار العرب في هذه المنطقة منذ القرنين التاسع والعاشر للميلاد في ظل الدولة العربية الإسلامية.

وهكذا يتغير مدلول المصطلحات الجغرافية - التاريخية حسب الظروف والتطورات التاريخية... وقد طلبت حكومة إيران عام 1935 من حكومات الدول الأخرى أن تعتمد اسم إيران الذي أصبح الاسم الرسمي للبلاد الإيرانية. ولكن نظراً لأن اسم «فارس» كان مستخدماً على نطاق واسع، وبخاصة في المصادر والمراجع التاريخية والأدبية، فقد صدر في تشرين الأول 1949 قرار حكومي إيراني ينص على جواز استخدام اسم «فارس» إلى جانب «إيران». وبعد ثلاثة عقود من السنين (عام 1979) حدث التغيير الثوري الكبير في إيران بإسقاط الحكم الإمبراطوري وإعلان «جمهورية إيران الإسلامية»[1].

مراحل تاريخ إيران القديم:

لا يعرف أصل العيلاميين أقدم الشعوب المعروفة في إيران القديمة، لكن المؤكد هو أنهم لم يكونوا من السومريين ولا من الأكاديين، وكانوا غالباً في نزاع مع دول بلاد الرافدين حتى نهاية العصر الأشوري.

ولم يكن للإيرانيين دولة موحدة حتى الألف الأول ق.م عندما أسست مملكة الماديين (الميديين) في الشمال ومملكة الفرس في الجنوب.

وقد احتوت هاتان المملكتان معظم الشعوب ذات الأصول الهندو - أوروبية. ولكن كان من الصعب انصهار الشعوب الأخرى غير الإيرانية واندماجها فيها. وقد استمرت المملكة الميدية حتى أواسط القرن السادس (550 ق.م)، عندما نهضت مملكة

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل على تاريخ فارس، مرجع سابق، ص 5-7.

فارس الأخمينية، التي ترجع بأصولها إلى أخمينيس، بزعامة قورش الذي كون مملكة عظيمة الأرجاء امتدت من أطراف الهند إلى بحر ايجة ومصر بعد أن قضى على الممالك والدول القائمة. ومنذ زمن هذه الأسرة عرف الفرس في التاريخ. كان الفرس هم حكام هذه الإمبراطورية. ولكن الحضارة كانت من صنع شعوب الشرق الأدنى كله. وقد استخدمت العيلامية والفارسية القديمة لغتين رسميتين في المناطق الفارسية، واستخدمت البابلية في بابل وفي النصوص التذكارية. أما اللغة الآرامية التي كانت لغة بلاد الشام والرافدين، فكانت منتشرة على نطاق واسع في ميديا، وأضحت اللغة الرسمية الإدارية ولغة المعاملات والتجارة في بلاد الإمبراطورية من أفغانستان إلى أسوان في مصر. وأسهم سكان الساحل السوري من الفينيقيين بدور كبير في الملاحة والتجارة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط.

انهارت إمبراطورية الفرس الأخمينيين على أيدي الإسكندر المكدوني نحو 331ق.م، فقامت خلال فترة عقدين (331-321 ق.م) إمبراطورية كبرى، ما لبثت بعد موت مؤسسها الإسكندر قائد الهلينيين أن انقسمت إلى دول وممالك متعددة بين قادة جيوشه. وكان أهم هذه الدول الدولة السلوقية التي احتفظت بمعظم أراضي الإمبراطورية الفارسية الأخمينية السابقة وإمبراطورية الإسكندر. وقد اتخذ سلوقس عاصمة له هي مدينة سلوقية على نهر دجلة (تل عمر) وتقابلها طيسفون (المدائن) عاصمة الفرثيين ثم الساسانيين بعدهم. وبقيت سلوقية عاصمة للدولة السلوقية حتى اتخاذ أنطاكية على العاصي عاصمة وحتى دخول الرومان في 64ق.م.

نهضت إيران مرة أخرى بقيادة الأسرة الارشاقية (الفرثية)، في العصر الفرثي الذي امتد من 164ق.م إلى 224م، بعد تخلصها من الحكم السلوقي. ووقفت المملكة الفرثية قرنين وجهاً لوجه أمام التوسع الروماني في الشرق على طول خط يمتد من الأناضول إلى الخليج العربي. وفي هذا العصر قامت مملكة عربية هامة في شمال العراق هي مملكة الحضر، كانت معاصرة لمملكة تدمر في قلب البادية العربية السورية. أما آخر عصور تاريخ إيران القديم فهو العصر الساساني (226-651م). الذي تميز بالصراع المرير بين الفرس الساسانيين من جهة والروم البيزنطيين من جهة أخرى، والذي انتهى بهزيمة آخر الملوك الساسانيين في معركة نهاوند وبانتصار الإسلام في إيران. ويختلط تاريخ الفرس القديم، وتاريخ إيران بعامة في كثير من مراحله ومظاهره السياسية والثقافية بتاريخ المشرق العربي. وقد ورث العرب

المسلمون دولة فارس وسياستها في الشرق بعد دخول المدائن. وتراجعت الثقافة الفارسية القديمة أمام الإسلام واللغة العربية[1].

مصادر تاريخ الحضارة الفارسية:

من أهم المصادر الفارسية نقوش الملك دارا الأول على صخور بهيستون BEHISTOUN. وفي هذا الموقع الأثري أمر داريوس الأول ثالث ملوك الأسرة الأخمينية 516ق.م بنقش أخبار انتصاراته بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والبابلية والعيلامية، ويظهر رمز الإله أهورا مزدا متمثلاً بقرص الشمس المجنح. وفي عام 1847 استطاع العالم الإنكليزي رولنسون أن يحل بضع مئات من الرموز المقطعية المسمارية، بعد مقارنتها بالكتابات الفارسية والعيلامية الموجودة على تلك الصخور. وقد تابع عمله بعض العلماء من الإنكليز والفرنسيين والألمان والروس، حتى توصلوا إلى حل معظم الرموز المسمارية، ومن ثم معرفة كل فروع لغاتها من سومرية وأكادية وبابلية.

تبتدئ هذه النقوش بتمجيد للإله أهورامزدا الذي منح السلطة إلى دارا، ثم يلي ذلك تعداد المقاطعات الداخلة في إطار الإمبراطورية الفارسية في عهد دارا (23 مقاطعة). بعد ذلك يتحدث دارا عن قضائه على المدعي جاوماتا الذي اغتصب العرش بعد وفاة قمبيز، وادعى بأنه أخوه بارديا، وعن قضائه على بقية المتمردين الثمانية. ثم يذكر الحروب التسع عشرة التي خاضها في كل من فارس وعيلام وبابل وميديا وسارغارتيا ومارغيانا وأرمينيا والبلقان. وأخيراً يحذر من يحطم أو يشوه نقشه هذا ويهدده بعقاب الإله أهورامزدا، كما يثني على من يحافظ على النقش ويعده بمكافأة أهورامزدا. وقد اكتشف في منطقة قناة السويس نقش باللغة الفارسية القديمة مع ترجمة لها باللغة المصرية، ويتحدث ذلك النقش عن شق قناة من نهر النيل إلى البحر الأحمر في عهد دارا. كما اكتشف في سورا نقش يتحدث عن بناء دارا قصره الملكي في تلك المدينة. أما ما يسمى بالنقش الرسمي الموجود على قبر دارا الأول، فقد اكتشف في مقبرة الأسرة الأخمينية التي تقع على بعد 15كم شمال مدينة برسيبوليس، وهذا النقش مكتوب باللغة الفارسية القديمة بحروف آرامية، ما يدل على سعة انتشار اللغة الآرامية في فارس. وقد جاء في النقش تعداد للمقاطعات

1- المرجع السابق، ص 18-20.

(ستراببا) التي كانت خاضعة للسلطة الفارسية في عهد دارا. ومن المصادر الهامة لدراسة الديانة الفارسية (نقش اكزركسيس) (سرخس من دارا) الذي يتحدث فيه عن منع عبادة الآلهة القديمة، ويدعو إلى عبادة الإله الأعلى للفرس أهورامزدا، واعتبارها الدين الرسمي للدولة. كما أن أقوال زرادشت التي جمعت في كتاب (الافيستا) وشروحه التي جمعت في كتاب (زانداي) تعتبر من المصادر الهامة للتعرف على الديانة الفارسية. وفي كتاب الشاهنامة للفردوسي (القرن 10-11م) ترد بعض الذكريات عن الفرس القدماء. وبالإضافة إلى الكتابات الفارسية القديمة توجد بعض الكتابات البابلية والآرامية والمصرية التي تتطرق إلى تاريخ الدولة الفارسية، تذكر منها: حوليات الملك الكلداني نابونيد، التي تتحدث عن احتلال الملك الفارسي كورش لمدينة بابل وعن السياسة الداخلية والخارجية لمؤسس الدولة الفارسية هذا. كما تفيدنا الوثائق العيلامية، المكتوبة باللغة الأكادية، في التعرف على أوضاع بعض المناطق الإيرانية قبل تشكيل الدولة الفارسية. أما المصادر المادية غير المكتوبة فتساعدنا على دراسة تطور الفنون والأدوات الزراعية والصناعات، وغير ذلك من الأمور.

وقد وردت في كتابات المؤرخين الكلاسيكيين بعض المعلومات القيِّمة عن الفرس القدماء. فالمؤرخ اليوناني كزينوفون، الذي خدم في الجيش الفارسي لدى كورش الصغير (أخو أزدشير الثاني وكان والياً على ليديا وقائداً للجيوش الفارسية في آسيا الصغرى في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد)، يحدثنا عن التنظيمات العسكرية والإدارية التي كان قد أجراها دارا الأول، ويقول ما معناه إن دارا قسم البلاذ إلى مقاطعات، وعين عليها حكاماً إداريين مهمتهم جمع الضرائب وتمويل الفرقة العسكرية في المقاطعة، ثم إرسال حصة من الضرائب إلى خزينة الملك. كما عين دارا قائداً عسكرياً في كل منطقة على رأس فرقة من الجيش. وكان كل من الحاكم الإداري والقائد العسكري يراقب عمل الآخر، كما يقوم الملك بالتفتيش على المناطق أو يرسل مفتشين مندوبين عنه، ويكافئ الحكام الذين يديرون مناطقهم على أتم وجه، بينما يعاقب الحكام المهملين.

أما المؤرخ هيرودوت، فيتحدث في تاريخه عن إخماد الملك دارا للتمردات التي نشبت ضده سنة 521 ق.م، وتتشابه بعض أخباره مع ما كتب على صخور بهيستون ويختلف عنه بعضها الآخر (هيرودوت، تاريخ، ج 3، البنود من 60 إلى 79). ويحدثنا هيرودوت أيضاً عن التنظيمات الإدارية التي أجراها دارا الأول؛ حيث أنه زار فارس

بعد ذلك بقليل (ج 3، البندان 89، 97)، كما يحدثنا عن تنظيم البريد (ج 8، البند 89)، وعن الطرق الملكية التي كانت تمتد من مدينة سارديس على الضفة الشرقية لبحر إيجه، إلى مدينة سوزا في فارس، ويصف المحطات الموزعة على تلك الطريق. ويذكر هيرودودت أن دارا أمر بضرب عملة ذهبية، وحصر ذلك الأمر بيده فقط، إذ نراه يأمر بقتل الوالي الفارسي في مصر (ارياند)، لأنه ضرب عملة فضية دون إذنه، كما يقول إن الملك الفارسي يحتكر مشاريع الري ولا يسمح للمزارعين بالاستفادة منها إلا مقابل ضريبة خاصة عدا الضرائب العادية الأخرى. ويصف هيرودوت حملة دارا إلى تركيا في البلقان ومقاومة السكيتيين له، ويروي حادثة طريفة هي أن ملك السكيتيين أرسل إلى دارا، الذي يعسكر بجيوشه في البلقان، رسولاً يحمل هدية تتألف من طيور وفئران وبط وخمسة سهام، وفسر تلك الهدية المنجم المرافق للملك الفارسي (ويدعى غوبري) بأن السكيتيين يقولون للفرس: إذا لم تطيروا كهذه الطيور في السماء، أو لم تختبئوا كهذه الفئران في الأرض، أو لم تبحروا عائدين إلى بلادكم كما يسبح البط في البحيرة، فإنكم ستقتلون بمثل هذه السهام. ثم يتحدث هيرودوت أيضاً من الحملات التي أرسلها دارا إلى جزر بحر إيجة ومكدونيا بقيادة مهباز ثم أوتانيس[1].

بدأ التنقيب عن الآثار في إيران في القرن التاسع عشر، فاكتشف العالمان فلاندين وكوستا القصر الملكي في مدينة برسيبوليس. وفي نهاية القرن التاسع عشر نقب العالم الفرنسي دوموغان في مدينة سوزا. أما في القرن العشرين فقد أجريت تنقيبات أخرى في برسيبوليس، واكتشفت فيها بعض المخلفات الأثرية. كذلك أجريت بعض التنقيبات في مناطق متعددة من إيران.

ونشرت منذ مطلع القرن العشرين تقارير أثرية ودراسات تاريخية ولغوية حول حضارة الشعوب الإيرانية القديمة. فقد كتب فيسباخ عن المسمارية المستخدمة في النصوص الأخمينية (بالألمانية 1911). وبعد غراي الذي كتب عن الفرس في المجلد الرابع من موسوعة كمبردج للتاريخ القديم (1926)، كان كاميرون من أوائل من ألف تاريخاً لإيران القديمة (شيكاغو 1936). وصدر في عام واحد (1941) كتابان هامان أحدهما من تأليف أ. ت. أولمستد عن تاريخ الإمبراطورية الفارسية (شيكاغو)، والآخر من تأليف هرتزفلد، عن إيران والشرق القديم (لندن).

1- د. نعيم فرح: تاريخ حضارات العالم القديم، ص 227-229.

وبعد عقدين من السنين صدر مؤلف هام لاثنين من كبار الباحثين الفرنسيين في الدراسات الشرقية، كليمان هوار ولويس دولابورت عن إيران القديمة وعيلام وفارس والحضارة الإيرانية القديمة (باريس 1952). ثم نشر غيرشمان، الذي قاد عمليات تنقيب وحفريات واسعة في أماكن متعددة، محصلة دراساته في عدد من المؤلفات صدرت بالإنكليزية والفرنسية ما بين 1951-1976، كان آخرها : إيران منذ فجر تاريخها إلى الإسلام (باريس 1976). ونشر دياكونوف حول تاريخ الميديين باللغة الروسية (موسكو - لينينغراد 1956). ففي حين اهتم كنت KENT بقواعد اللغة الفارسية القديمة وبدراسة النصوص والوثائق (نيوهافن 1950)، عني اللغوي الفرنسي بنفنيست BENVENISTE باللغة الفارسية القديمة أيضاً منذ (1930) وأولى لابات اهتماماً خاصاً للغة العيلامية ونصوصها، ويتابع دراساته تلميذه فرانسوا فالات (1980). وهكذا تطورت الدراسات الحديثة التي تهتم بآثار الحضارة الفارسية القديمة وبكل ما خلفته من تراث ثقافي وفني عبر العصور[1].

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها، ص 17-18.

الإمبراطورية الفارسية الأخمينية

الدولة الأخمينية هي أول دولة توحد إيران تحت حكمها. وقد امتد حكمها من 550-330 ق.م. وقبل ظهور هذه الدولة، كانت في الإقليم الغربي دولة قوية هي دولة الميديين، وهي دولة آرية خضع لحكمها الفرس، وهم أيضاً من الجنس الآري.

والميديون، الذين ذكرهم شلمانصر الثالث لأول مرة بين أعداء آشور في نقش يرجع إلى سنة 837 ق.م، تمكنوا بعد قرنين من قلب الإمبراطورية الآشورية وتدمير عاصمتها نينوى (612 ق.م). قدم الميديون من شواطئ بحر قزوين إلى غرب آسيا قبل الميلاد بنحو ألف عام. ويشيد (الزند - أبستاق)، وهو كتاب الفرس المقدس، بذكر هذا الموطن القديم بوصفه جنة من الجنان. ووقعت بابل في يد قورش (الفارسي) عام 538 ق.م والربط بين الشعبين له دلالته، فهما اللذان ظهرا ليخلقا قوة جديدة في تاريخ العالم القديم وهي الإمبراطورية الفارسية. فقد تجمع الشعبان الميدي والفارسي في منطقة المراعي الشمالية عند بزوغ عصر ما قبل التاريخ، كجزء من غزوات (الرجل الآري) التي غمرت الهضبة الإيرانية وسهول الهند الشمالية، ومضت بضعة قرون كانوا فيها مغمورين في آشور وبابل، وشربوا خلالها جرعات من فيض الحضارات السامية العظيمة.

أقام الميديون في جزء من الهضبة، يقع جنوب غرب بحر قزوين، أي أذربيجان الحديثة وعاصمتها اكبتانا (همدان)، ومن بين الأساطير التي تملأ تاريخهم، تبزغ حقيقة جوهرية تؤكد أنهم كانوا أقرباء الفرس. وفي عام 550ق.م خلع قورش ملكهم من عرشه واستولى على إمبراطوريتهم. وظل الميديون يحتلون مكانة هامة في إمبراطورية قورش التي عرفت بإمبراطورية الميديين والفرس. ويعتبر قورش من أشهر شخصيات الشرق القديم، وتعزى شهرته إلى عظمته كفاتح ومصلح في آن معاً.

لم تعمر دولة الميديين طويلاً قبل قورش، ولم تستطع بالتالي أن تساهم في الحضارة بقسط كبير، إذا استثنينا ما قامت به من تمهيد للسبيل إلى ثقافة بلاد

فارس. فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية، وحروفهم الهجائية التي تبلغ 36 حرفاً، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين، ويستخدمون في العمارة الأعمدة على نطاق واسع. وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقي، الذي يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير في وقت السلم، وبالشجاعة في زمن الحرب. ودين زرادشت وإلهيه: أهورا - مزدا وأهريمان، ونظام الأسرة الأبوي وتعدد الزوجات. وقد نسي الميديون ما كانوا عليه من شظف العيش في موطنهم الجبلي الفقير، وأساليب حياتهم الصارمة نظراً لتدفق الثروة عليهم؛ بحيث لم يستطيعوا استخدامها. وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور في استخدام المركبات البدائية، أصبحوا يركبون عربات فاخرة باهظة ينتقلون فيها من وليمة إلى وليمة، حتى إذا حل الظلم محل العدالة، خرج قورش الشاب، وكان من البيت الميدي المالك، على طاغية اكباتانا، وابتهج الميديون بانتصاره وارتضوه ملكاً عليهم، فأسس الأسرة الأخمينية، أسرة (الملوك العظام)، التي حكمت بلاد فارس في أزهى أيامها وأعظمها شهرة. ونظم قورش قوات ميديا وفارس الحربية، فجعل منها جيشاً قوياً، وضم إلى فارس كل البلاد التي تحت سلطان آشور وبابل وليديا وآسيا الصغرى، حتى أصبحت إمبراطورية الفرس أوسع المنظمات السياسية في العالم القديم قبل الدولة الرومانية، ومن أحسنها حكماً في جميع عصور التاريخ[1].

الأخمينيون: نظرة عامة

إذا كان الميديون قد أسسوا الملكية في إيران، فإن الفرس، قبائل الجنوب، هم الذين أقاموا صرح الإمبراطورية. وقد تزعم الأخمينيون الفرس، وبقوا يعترفون بتبعيتهم للميديين، إلى أن صعد قورش الثاني على العرش (559ق. م) في فارس ثم انتزع الحكم في إيران كلها. وهو لم يكتف بتوحيد العالم الإيراني، بل نهض للسيطرة على الشرق القديم كله، وهو العالم المتمدن المعروف آنذاك. وخلال ثلاثين عاماً من حكمه، وصلت قواته شرقاً إلى آسيا الوسطى، وغرباً إلى سواحل بحر إيجه؛ حيث أخضع مملكة ليديا وأسر ملكها لروزوس واستولى على بابل وأنزل نابونيد عن عرشه، وأطلق اليهود في بابل وأذن لهم بالعودة إلى فلسطين بعد السبي الذي استمر قرابة

1- د. نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، ج 1، مطبعة الكمال، دمشق 1965، ص 284-285.

خمسين عاماً. واستطاع بتحركاته الواسعة هذه أن يغير وجه التاريخ، إلى أن قتل وهو في طريقه إلى شمال الهند وحوض البنجاب.

كان قورش وخلفاؤه الذين تعاقبوا على عرش الإمبراطورية الأخمينية ملوكاً محاربين ومعماريين بنائين. استطاعوا دون خبرات تاريخية كبيرة أن ينشؤوا إمبراطورية عظمى، وضع لها أول نظام سياسي شامل، جمع تحت إدارته المركزية شعوباً عديدة مختلفة الأعراق واللغات والعقائد. وقد ورثت هذه الدولة الشاملة ما انتهى إليها من موروث الشعوب والدول المغلوبة وحضاراتها العريقة. أخذت عن آشور فكرة الدولة العالمية وحكم العالم، وعن بابل خبرتها الإدارية. وأضحت المنطقة الممتدة من أطراف الهند إلى البحر المتوسط لأول مرة في التاريخ سوقاً تجارية مشتركة، ففتحت الطرق البرية والبحرية ونظمت المواصلات ووجدت النقود، وضرب الدينار الذهبي وعليه صورة الملك، والدرهم الفضي لدفع الضرائب للجنود، ولشراء ضمائر الموالين والمؤيدين من رجال الإمبراطورية وزعمائها. واجتمعت للدولة ثروات ضخمة من الضرائب والغرامات والأموال كانت تصب في خزائن الملك حتى بلغت مئات الأطنان من الفضة والذهب. واعتمدت وحدات رسمية للمقاييس والأوزان اقتبست من الوحدات البابلية، وشجعت البيوتان التجارية والصرافة. وضبط الأمن بصورة لم تعهدها دول الشرق القديم من قبل. وعرفت معظم بلاد الإمبراطورية شكلاً من الوحدة الثقافية عندما ارتفعت اللغة الآرامية، وهي اللغة الأكثر انتشاراً في بلاد الرافدين وسورية، فوق لغات الأقوام وألسنتهم، لتصبح اللغة الرسمية للإدارة في الولايات الغربية من الإمبراطورية، ولغة عامة للتجارة بين السند ووادي النيل، بالإضافة إلى دورها الرفيع في الأدب.

وقد استطاع الملوك الأخمينيون أن ينشؤوا، من جهود شعوب عريقة في الحضارة كالفينيقيين والمصريين والبابليين واليونانيين، حضارة جديدة وفناً إمبراطورياً يتبدى في آثار القصور التي شيدت في عواصم الإمبراطورية برسبوليس (اصطخر) وبازر كادس وسوسة وفي موقع نقش رستم (المقبرة الملكية)[1].

وقد ترك الحكم الفارسي للشعوب المغلوبة في الدول القديمة استقلالاً واسعاً في إدارة شؤونها وفي ممارسة العبادات. وقسمت الدولة إلى ثلاث وعشرين ولاية، يمثل الملك فيها ثلاثة موظفين كبار: نائب الملك، ويدعى بساتراب، وهو مسؤول عن

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 79-78.

النظام وجمع الضرائب وحفظ الأمن، وحاكم الولاية، وضابط يقود الثكنة العسكرية. وكان المفتشون، عيون الملك وآذانه، يأتون للمراقبة والتفتيش مزودين بصلاحيات خاصة ومطلقة بمرافقة قوة عسكرية خاصة. وبوسع هؤلاء المفتشين عزل الساتراب ومعاقبته بالموت.

وقد مارس داريوس الأول الكبير دور ملك العالم، وأحاط نفسه بمجلس ضم رجالاً من فارس وبابل ومصر واليونان، وطور نظام البريد المعروف منذ أيام الفراعنة وملوك آشور وبابل. وربط ما تقرب مساحته من خمسة ملايين كم^2 بإدارة إمبراطورية واحدة على رأسها الملك والطبقة الأرستقراطية المحيطة به.

ورغم أن أساليب الملوك في قمع الحركات المناوئة لحكمهم لم تكن لتختلف في فارس عما كانت عليه في الدول القديمة كلها، فإن أسساً جديدة وضعت لإقامة (سلم فارسي) ساد المنطقة قرنين، لم تشهد من قبل مثيلاً له، فعمَّ الهدوء، وتنامت الثروات وازدهرت التجارة البرية والبحرية، إلى أن تطور الصراع في حوض البحر المتوسط وتدهورت الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية، وذلك مع مجيء الإسكندر المقدوني فاتحاً مدمراً أركان نظام الشرق لسياسي والاقتصادي، فهدم العمران القائم واستعبد الناس الأحرار حين كانت مجالس المدن اليونانية تتحدث عن الديمقراطية والحرية، وسقطت المدن العريقة مثل صور وغزة بعد مقاومة ضارية استمرت إلى النهاية[1].

قوروش تأسيس الإمبراطورية:

يعد قورش مؤسس الإمبراطورية الفارسية أعظم وأشهر فاتح عسكري معروف في تاريخ الشرق القديم كله. فخلال عقد من الزمن (550–539) استطاع أن يصل بقواته إلى الهند شرقاً، وأن يكتسح بقواته دول غربي آسية، وأن يقوض أركان أعظم عواصم الشرق الأدنى القديم: بابل ومنفيس وطيبة، باسطاً سيطرته على آسيا الصغرى حتى أطراف العالم الهيليني، واضعاً بذلك أسس أوسع إمبراطورية عرفها الشرق حتى ذلك الحين.

هكذا حلت القوى الجديدة الناهضة محل القوى القديمة المتداعية التي تسرب إلى أجسادها النخر بفعل السنين والأزمات الخطيرة خلال التطورات والتقلبات المتلاحقة. فالحثيون تركوا فراغاً في آسيا الصغرى، لم تستطع أية قوة محلية أخرى

1– المرجع السابق، ص 79-80.

أن تملأه، وحلت مئات الإمارات والممالك فيما بين طوروس وسواحل بحر إيجه، كان أبرزها ليدية. أما آشور فقد انهارت بعد صراع دام متواصل خلال قرون على كل الجهات، وانكمشت مصر ضمن حدودها، وتخلت عن دورها في الشام لدول حوض الرافدين: آشور أولاً، ثم بابل فيما بعد.

عرف قورش كيف يتفهم التقاليد المحلية لكل منطقة من مناطق الإمبراطورية، وكيف يعمل على التوفيق بين أوضاعها وبين متطلبات الدور الجديد. واستطاع ببراعة أن يقدم نفسه بوصفه الوارث الشرعي للعروش المحلية التي فقدها العواهل المخفقون والمغلوبون على أمرهم[1].

قدم قورش نفسه للبابليين على أنه محرر لا فاتح وأنه الوارث الشرعي لعرش بابل، ولتأكيد هذا الأمر سمى نفسه: ملك بابل، وعظم إله البابليين. وكان انتصاره على بابل، بالطبع، انتصاراً على ممتلكاتها الأخرى وبخاصة سوريا، فجاءه ملوك فينيقيا يعلنون ولاءهم ويضعون سفنهم تحت تصرفه، وكان لهم أسطول يقابل أسطول المدن اليونانية مجتمعة. وفي أول عام لحكمه في بابل، أصدر أمراً بالسماح لليهود بالعودة إلى بيت المقدس وإعادة بناء معبدهم فيها، كما أعاد إليهم الأواني الذهبية والفضية التي كان البابليون قد غنموها منهم، فخرج أربعون ألفاً من اليهود من بابل إلى بيت المقدس.

ولهذا يطلق اليهود في التاريخ على قورش لقب «الراعي الصالح». وكانت سياسته هذه، إلى جانب ما قد يكون فيها من اتجاه إنساني، سياسة بعيدة النظر، تهدف إلى تمهيد الطريق لغزو مصر. فليس من شك في أنه كان ينظر إلى فلسطين على أنها مرحلة من أهم المراحل في الطريق للوصول إلى مصر.

وقامت حوادث في شرق الإمبراطورية، اضطرت قورش إلى أن يعود إلى محاربة البدو، فاتجه إلى الشرق بعد أن وضع ابنه قمبيز على رأس حملة لمهاجمة مصر. وقد قتل قورش في الحرب، وكانت وفاته في عام 530 أو 529ق.م. وبهذا نرى أن هذا الفاتح العظيم لم يمت إلا وقد أصبح غرب آسيا بأسرة في قبضته. وفي عام 525 ق.م .أي بعد أربع سنوات من وفاة قورش، غزا قمبيز أرض مصر، فانتصر بذلك على آخر دولة قوية، وأصبحت حدود الإمبراطورية الفارسية تضم الشرق المتحضر كله من دلتا النيل جنوباً إلى بحر إيجه شمالاً، متضمنة بلاد شرق البحر المتوسط، ممتدة صوب

1- نفس المرجع، ص 82.

الشرق إلى الهند. وكل هذا لم يستغرق سوى خمسة وعشرين عاماً بعد هزيمة الملك الميدي[1].

قمبيز (529- 521):

هو ابن قورش، وقد اندفع بفتوحاته إلى مدى أبعد مما وصل إليه أبوه، فاحتل مصر وتوغل في النوبة والحبشة (أثيوبيا). وقد كان لهذه الأحداث مضمون تاريخي كبير. فبعد انهيار الركن المكين، الذي مثل الاستقلال الإقليمي في المشرق القديم أفضل تمثيل في ظل حكم الفراعنة المتعاقبين خلال ألفين وخمسمائة عام، أضحى بإمكان الشرق القديم تحقيق وحدة سياسية شاملة[2].

مات قمبيز متأثراً بجراح أحدثها بنفسه، وليس من المعروف إن كان أقدم على الانتحار أو أنه جرح نفسه بعد أن فقد وعيه أثناء حالة من حالات الصرع التي كانت تنتابه.

دارا (521- 485):

مات قمبيز وهو في طريق عودته من مصر، بعد أن تلقى خبراً عن ثورة اندلعت ضده في فارس. فقد أعلن الكاهن جوماتا أنه أخ للملك، ونادى بنفسه ملكاً ووريثاً للعرش بعد قورش. عندها نهض دارا، الذي ينحدر من فرع آخر من الأسرة الأخمينية، وتمكن من القبض على غاصب العرش جوماتا وقتله، وأعلن نفسه بدوره ملكاً على البلاد.

على أن دارا، بوصفه رجل دولة من الطراز الأول، كان قادراً بلا لبس ولا تردد بين المثل الأعلى المنشود ومقتضيات مصلحة الدولة. فبعد أن استولى على العرش كان عليه أن يقمع الثورات العديدة التي نشبت في أنحاء الإمبراطورية، فتمكن من استرداد إمبراطورية سلفه قمبيز، ونجح في العمل على توسيعها باتجاه الهند شرقاً وأوربا غرباً. ولكنه رغم النجاح المؤقت الذي أحرزه على ضفاف الدانوب، اضطر إلى الانسحاب وإلى تقليص تحركه، وتلقى جيشه ضربة مؤثرة من أثينا في معركة ماراثون الشهيرة عام (490ق.م)، وهي إحدى المواقع الفاصلة في التاريخ كله.

1- د. محمد عبد السلام كفافي. في أدب الفرس وحضارتهم، حل 132-133.

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 84.

وتعدُ معركة ماراثون أهم فشل صادفه دارا، ولكنه على كل حال لا يعني أن الإمبراطورية الفارسية قد ضعفت، ولكنها كانت في ذلك الوقت في أوج قوتها، والجيش الذي هزم في ماراثون جيش صغير لا يقاس بما كانت تستطيع الإمبراطورية أن تجنده في ذلك الوقت[1].

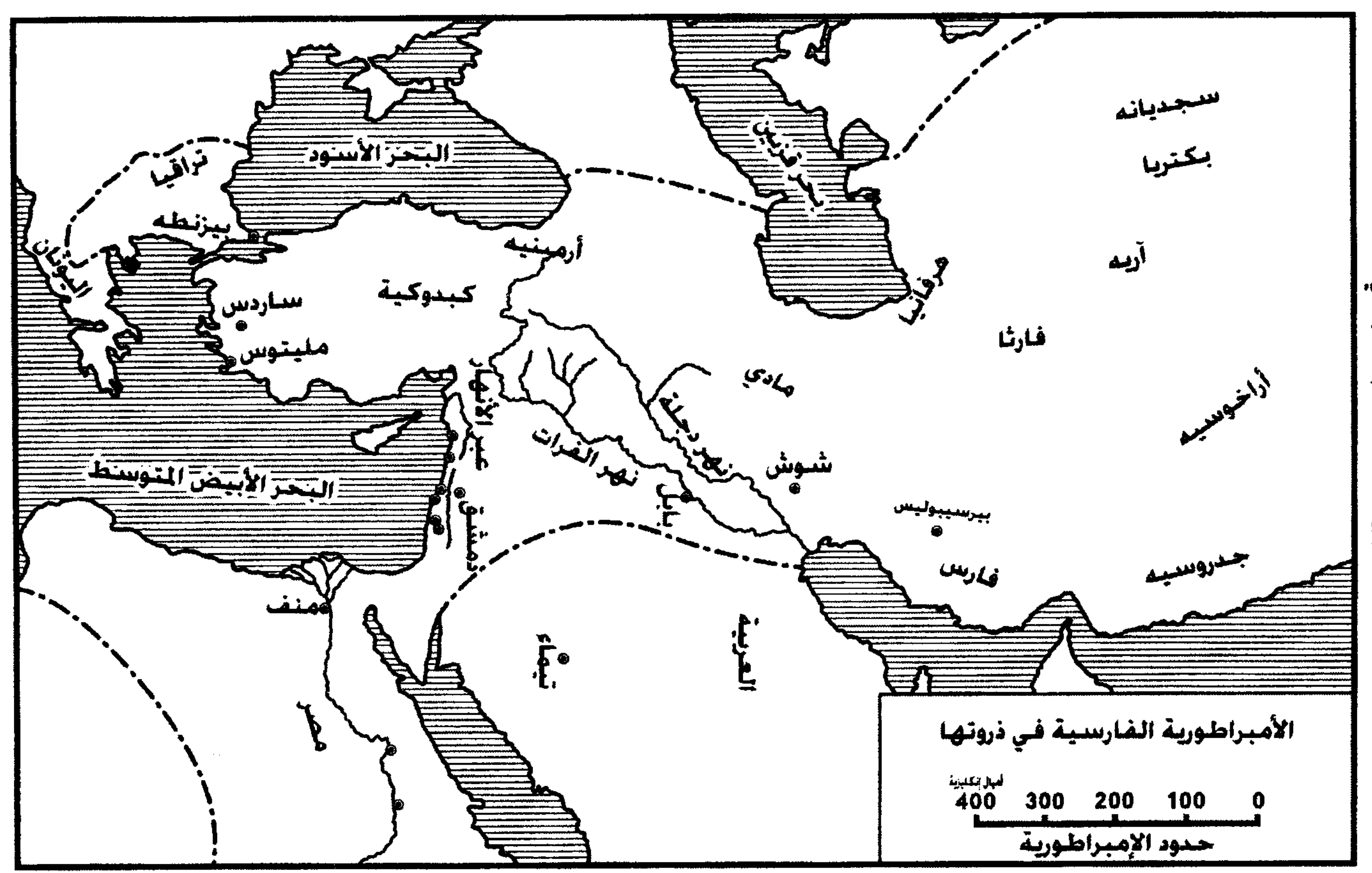
وقد وصل التنظيم السياسي للدولة إلى ذروته في زمن دارا. فالملك يقف على رأس الدولة مزوداً بسلطة مطلقة ووراثية، ويساعده مجلس النبلاء، لكن الملك لم يكن مؤلهاً كما هو الشأن في حضارات أخرى كمصر الفرعونية، لكنه يزعم بأنه يتلقى مساعدة الآلهة. وهو يدير المملكة بمساعدة ولاة، وهم حكام كبار يلقب الواحد منهم «بساتراب» يعينهم الملك، وهم ينوبون عنه ويمثلونه في إدارة الولاية. ولكل من هذه الولايات خصوصيتها وعاداتها وتقاليدها المرعية. ويساعد الولاة حكام محليون للمناطق وقادة للثكنات والحاميات وكتاب ملكيون. وهناك المفتشون الذين يطلعون الملك على أحوال المملكة ويزودون الملك بتقارير عنه. وقد يتمتعون أحياناً بصلاحيات استثنائية ومطلقة.

أما موازنة الدولة فكانت تنظم بشكل دقيق، وهي أساس الحياة الاقتصادية التي تطورت بصورة لم تشهدها من قبل، وذلك بسبب اتساع السوق التجارية في ليدية، وعممها في كل أنحاء الإمبراطورية. ونظمت شبكة الطرق والبريد وأهمها الطرق الملكية من سوسة إلى ساردیس بطول 2400 كم، وكانت طرقاً للتجارة ولتحركات الجيوش بين جنوبي إيران وساحل بحر إيجه[2].

وسأترك الآن سرد حوادث التاريخ للتحدث عن مظاهر الحضارة الإيرانية أيام ازدهار الدولة الأخمينية.

1- محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 134.

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 88.



الأمبراطورية الفارسية في ذروتها
أميال إنكليزية
400 300 200 100 0
حدود الإمبراطورية
سجديانه
بكتريا
آريه
فارثا
هرقانيا
أراخوسيه
جدروسيه
فارس
بيرسيبوليس
مادي
شوش
نهر دجلة
بابل
نهر الفرات
العربية
تيماء
أرمينيه
كبدوكية
البحر الأسود
تراقيا
بيزنطه
ساردس
مليتوس
البحر الأبيض المتوسط
منف
مصر

مظاهر الحضارة في العصر الأخميني

الحياة السياسية والإدارية:

كانت الإمبراطورية الفارسية أوسع الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ في ذلك العصر، وكان عمادها القوة والتوسع والفتح. ولم يكتف الفرس بالحرب والقتل، بل إنهم، بعد أن وطدوا حكمهم في البلاد التي احتلوها، اهتموا بوضع أساس إداري ثابت للمحافظة على إمبراطوريتهم ودعم كيانها واستمرارها. ورغم أن حياة فارس كانت مزعزعة الكيان كجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها على غير أساس طبيعي، فإن النظام الإداري فيها كان من أقوى الأنظمة. ويأتي على رأسه الملك المحارب، وهو لقب يدل على صبغة الملكية الفارسية العسكرية. وكان للملك، من الوجهة النظرية، سلطة مطلقة، وقلما يجرؤ أحد على انتقاده أو لومه ما دام الرأي العام ضعيفاً عاجزاً عجزاً مصدره الحيطة والحذر.

ولم يكن ملوك الفرس المتأخرون يملكون ويحكمون، كما كان قورش ودارا الأول، إذ كانوا يعهدون بدفة الحكم إلى الأشراف أو إلى خصيان القصور، وينهمكون هم في الحب أو لعب النرد أو الصيد. وكان من حق الملك أن يختار خلفه من أبنائه، ولكن وراثة العرش كانت تقرر في العادة بالاغتيال أو الثورة. غير أن سلطة الملك كانت مقيدة من الوجهة العملية بعادات وتقاليد كثيرة وبقوة الأشراف الأعيان. وكان هؤلاء الواسطة بين الشعب والعرش، وكان كثير منهم يحضرون إلى القصر ويؤلفون مجلساً يولي الملك مشورته غالباً أعظم رعايته. وكان تنظيم مناطق الإمبراطورية الشاسعة يعتمد على مجلس الملك لا على طاغية غير مسؤول.

واتصف الملوك غالباً بالتسامح مع عادات وأديان الشعوب الخاضعة لهم، ووجد لدى الإمبراطورية الفارسية أول نظام إداري معروف. وكان الوالي (ستراب أو المرزبان) يعتبر حلقة اتصال هامة في نظامها الحكومي، والولاة عادة من النبلاء أو الأمراء، يعينون غالباً لمدة الحياة[1].

1- نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، ص 286-287.

الولايات:

تمكن دارا من توطيد النظام والأمن بفضل الطرق المعبدة، التي عني بإنشائها، وبفضل مراكز البريد التي أوجدها بين عواصم الأقاليم، وبفضل النظام الدقيق الخاص بالمفتشين. انقسمت الإمبراطورية إلى ولايات، كان عددها يتفاوت في فترات مختلفة من حكم دارا بين العشرين والثماني والعشرين. أما ولاية فارس بالذات فقد كانت هي الوحيدة الخارجة على هذا التقسيم، لأنها كانت موضع رعاية خاصة بوصفها موطن السلالة الحاكمة.

وكانت السلطتان المدنية والعسكرية في هذه الولايات منفصلتين. وقد أقام في كل ولاية ثلاثة عمال مستقلين وكانت تتبع كل منهم إدارة حكومية قائمة بذاتها. وفي الولايات غير ذات الشأن كان الحكام ينتخبون من بين أفراد الطبقة الموسرة أو الفقيرة من الشعوب المحكومة ومن الفرس على السواء. وكانت سلطات الوالي في الظروف العادية مدنية بحتة، لا سيما السلطتان المالية والقضائية، ويدخل في سلطة الوالي القضائية أن يحكم بالإعدام أو يهب الحياة. ولم يكن الوالي يتولى قيادة القوات الحربية في أقاليمه إلا في حالات استثنائية، وكثيراً ما كانت سياسة الحكومة المركزية تؤلب القائد الحربي على الوالي. وكان الأمين في داخل الولاية هو ثالث أصحاب المناصب، الذين كانوا على اتصال مباشر بالملك. وكانت مهمته أن يراقب أعمال الوالي والقائد، وأن يقدم تقارير عنها إلى الحكومة المركزية. وزيادة في الاحتياط كان للملك إدارة للمفتشين وللمخابرات السرية تعرف باسم (عيون الملك وآذانه) يفاجئ موظفوها الولايات ليفحصوا سجلاتها وشؤونها الإدارية والمالية. وكان الوالي أحياناً يعزل بلا محاكمة، وأحياناً يتخلص منه بهدوء بالسم مثلاً.

ولم يكن موظفو الولايات يتناولون رواتبهم من الملك، بل يتناولونها من أهل الولاية التي يحكمونها، بحيث تكفي لمعيشتهم في القصور وفي الصيد والقنص وبين الحريم. وكان على كل وال أن يبعث إلى الملك في كل عام قدراً معلوماً من المال والبضائع ضريبة مقررة على ولايته.

والوالي هو الذي يقوم بجمع الضرائب، نقداً أو عيناً. وكانت هذه الضرائب تفرض على جميع الولايات ولا يعفى منها إلا ولاية فارس مسقط رأس أسرة الأخمينيين، وتجمع الضرائب بدقة في الإمبراطورية كلها تحت إشراف الملك. وفي المقابل كانت الحكومة تؤدي خدمات جليلة لسكانها، كنشر السلم، باستثناء الحرب

اليونانية، والقضاء على النهب والقرصنة، واستخدام نظام صك العملة الذي يسر رواج التجارة، والقيام بمشروعات عامة كإتمام القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر، وإرسال بعثات الاستكشاف وما إليها تدعيماً للقوة البحرية[1].

القانون والقضاء:

كان القانون في دولة فارس هو إرادة الملك وقوة الجيش. ولا تجدي التقاليد والأعراف، إلا إذا كانت مستمدة من أمر ملكي سابق، ذلك أن الفرس كانوا يفخرون بأن قوانينهم لا مبدل لها، وأن المرسوم الملكي لا ينقض أبداً، لأن قرارات الملك وأحكامه، وإنما يوحيها إليه الإله أهورامزدا نفسه. أي أن القانون مستمد من الإرادة الإلهية، والخروج على القانون يعد خروجاً على إرادة الإله، فالقضاء الأعلى يتركز في يد الملك، ولكنه يعهد عادة بهذا العمل إلى أحد العلماء الشيوخ. ثم تأتي من بعده المحكمة العليا المؤلفة من سبعة قضاة، ومن تحتها محاكم محلية منتشرة في أنحاء المملكة، والكهنة هم واضعو القوانين، وظلوا زمناً طويلاً ينظرون في المظالم، ثم كان ينظر فيها في العهود المتأخرة رجال بل ونساء من غير رجال الدين ونسائه. وكانت الكفالة تقبل من المتهم في جميع القضايا إذا لم تكن خطيرة، وإجراءات المحاكم منتظمة، تأمر بمنح المكافآت أحياناً كما تأمر بتوقيع العقوبات، وتأخذ في عين الاعتبار ما للمتهم من حسنات وما أداه من خدمات. وكان يحدد زمن معين كأجل نهائي تنتهي فيه كل قضية للحيلولة دون إطالة الإجراءات القضائية، ويعرضون على الخصوم أن يختاروا لهم حكماً يحاول فض خلافاتهم بالطرق السلمية. وبمرور الزمن وتعدد السوابق القانونية وتعقد القوانين، نشأت طائفة (المتحدثين في القانون) يفسرون القانون ويتابعون معهم قضاياهم. وكان يطلب إلى المتقاضين أن يقسموا الإيمان، وأحياناً كانوا يلجأون إلى الحكم الإلهي فتقضي الآلهة للمتهم بأن تنجيه من النار أو الغرق إن كان بريئاً، أو تقضي عليه بهما إن كان مذنباً. والرشوة عقوبتها الإعدام. وقد لجأ قمبيز لضمان نزاهة القضاة إلى سلخ جلد القاضي الظالم حياً، واستخدام جلده لتنجيد مقاعد القضاة.

وتتراوح عقوبة الجرائم بين الجلد بالسوط أو الوسم بالنار وتشويه الأعضاء أو بترها أو سمل العين أو السجن أو الإعدام. وقد تستبدل الغرامة بالجلد باحتساب

1- المرجع السابق، ص 288.

مبلغ للجلدة الواحدة، ولا يحق لأي إنسان حتى للملك نفسه أن يحكم على إنسان بالقتل أو هتك العرض أو القتل أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي، والمذنب يعدم إما بإرغامه على تجرع السم أو صلبه أو شنقه أو قتله بوسائل أخرى قاسية همجية[1].

الجيش:

كان الجيش العماد الأهم لسلطان الملك والحكومة الإمبراطورية، ذلك أن الإمبراطوريات إنما تبقى وتستمر ما دامت محتفظة بقدرتها على نشر النظام وتوطيد الأمن. والجندية كانت تفرض على كل رجل صحيح الجسم بين سن الخامسة عشرة والخمسين كلما أعلنت الحرب. وحدث مرة أن طلب والد ثلاثة أبناء أن يعفى واحد منهم من الخدمة العسكرية، فما كان من الملك إلا أمر بقتلهم هم الثلاثة. وكان الجند يسيرون إلى ساحات الحرب وسط دوي الموسيقى وهتاف الجماهير التي تجاوزت سن التجنيد . وكانت أهم فرق الجيش فرقة الحرس الملكي المؤلفة من ألفين من الفرسان، ومثلهم من المشاة النبالة من الأشراف، وكانت مهمتهم حراسة الملك. وللملك أن يعين قائد القوات الحربية. وكان الجيش العامل كله يتألف من الفرس والميديين، وكان يؤخذ من القوات الدائمة معظم الحاميات القائمة في النقط العسكرية الهامة في الإمبراطورية والتي ترهب من تسول له نفسه الخروج عليها . أما القوات الحربية الأخرى فكانت تجند من جميع الشعوب الخاضعة لسلطان الفرس، وكانت كل فرقة تتكلم بلغتها وتقاتل بأسلحتها وتتبع أساليبها الحربية الخاصة. والراجح أن التجنيد العسكري، الذي كانت تقضي به الحروب الكبيرة، كان أثقل الأعباء في نظر الشعوب المحكومة، أو أنه كان أبغضها إلى نفوسها . ولم يكن عتاد هذه الفرق الحربية وأتباعها أقل اختلافاً من أصولها : فهناك القسي والسهام، والسيوف والحراب، والخناجر والرماح، والمقاليع والمدى، والتروس والخوذ، والمجنات من الجلد، والزرد، وكانوا يركبون الجياد والفيلة، ويصحبهم المنادون والكتبة والخصيان والسراري، ومعهم العربات التي سلح كل جزء من عجلاتها بمناجل الصلب الكبيرة. وهذه الجحافل التي بلغت عدتها في حملة كسير يكس 1.800.000 مقاتل لم تتألف منها قط وحدة كاملة. ولذا فإن أول بادرة من بوادر الهزيمة كانت تحيلها إلى جموع من الغوغاء عديمة

1- المرجع السابق، ص 289.

النظام. وكانت تهزم أعداءها بقوة عددها، وبمقدرتها على استيعاب قتلاها، فإذا ما لاقاها جيش حسن التنظيم يتكلم أفراده لغة واحدة ويسودهم نظام واحد، حاقت بها الهزيمة. وهذا هو السر فيما أصاب الفرس عند ماراثون وبلاتية. على أن بسالة الجندي الفارسي أمر لا يتطرق إليه الشك، وعندما غلبه المكدوني لم يكن ذلك راجعاً إلى بسالة المكدوني، بل إلى أن المكدوني كان خيراً منه تسليحاً[1].

الحياة الاقتصادية:

لم تعمل الغزوات البربرية ولا استعمال الحديد على تغيير بناء المجتمع والنظام الاقتصادي الذي قام منذ عام 2000ق.م تغييراً مستمراً وحاسماً، فالزعماء العسكريون كانوا عادة يغتصبون عروش صغار الملوك ويقتبسون الأنظمة الإدارية الموجودة، إلا أنهم كانوا يملؤون الوظائف العليا من حاشيتهم. ولقد نجح الفرس في ذلك. ومن حيث الإنتاج الأولي، وجد أن نظام الفلاحين المستعبدين، الذين يمارسون زراعة معاشية وينتمون إلى عائلة مالك كبير، هو نظام يناسب جامع الضرائب الحديث بقدر ما كان يناسب جامع الضرائب القديم. والفاتحون، وخاصة الفرس، كانوا يحلون محل طبقة الأشراف القديمة كأسياد لهذه الأملاك. وهكذا أصبحوا أرستقراطية (تحكم عبيد الأرض)، ونسوا تماماً الأنظمة الاشتراكية لملكية الأرض التي كانت تناسب وضعهم البربري قريب العهد.

حققت إمبراطورية دارا الفارسية الهدف الاقتصادي للاستعمار الأكادي الذي رمى إليه سرجون. فضمن حدودها كان يمكن الحصول على جميع المواد اللازمة للصناعة وحتى على أدوات الترف التي كان يتطلبها النبلاء، وكانت النتيجة أن اتسعت التجارة والصناعة، غير أن وضع الفلاحين لم يتغير إلا قليلاً. وقد ابتلعت خزينة الإمبراطورية مقداراً ضخماً من الفائض ولم تستخدمه لأجل الأعمال الإنتاجية، وإنما خزن بشكل سبائك ذهب أو فضة أو أنفق على الحروب والعبث. لذا فإن الزيادة المطلقة في الثروة الحقيقية لم تكن عظيمة، والمقدرة على الشراء كانت لا تزال مقيدة. حتى إذا تفكك النظام المركزي للإمبراطورية الفارسية، كما حدث في بلاد الرافدين ومصر، أصبحت الإمبراطورية الفارسية جزءاً من إمبراطورية الإسكندر الأوروبية يسودها نظام اقتصادي نشأ في اليونان.

1- المرجع السابق، ص 290.

الزراعة والصناعة:

مجدت الكتب الدينية الفارسية الأعمال الزراعية، وعدتها أهم أعمال الجنس البشري وأشرفها، وكان أهورامزدا يفضلها على غيرها من الأعمال. وكانت بعض الأراضي يزرعها ملاكها المزارعون، وكان هؤلاء الملاك في بعض الأحيان يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونة من عدة أسر، لتقوم مجتمعة بزراعة مساحات واسعة من الأراضي. والبعض يمتلكه الأشراف الإقطاعيون ويزرعه مستأجرون نظير جزء من غلته، وبعضها الآخر يزرعه الأرقاء الأجانب (ولم يكونوا قط فرساً). وكانوا يستخدمون المحاريث الخشبية ذات الأطراف الحديدية التي تجرها الثيران. وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى الحقول بطرق الري الصناعية. وكان الشعير والقمح أهم محاصيل الأرض وأهم عناصر الغذاء، ولكنهم كانوا يأكلون كثيراً من اللحم ويشربون كثيراً من الخمر. وقد أدخل الفرس زراعة البرسيم (الفصة) إلى بلاد البحر المتوسط عندما غزوا اليونان عام 490ق.م. وفي الوقت نفسه تعلم الفرس أنفسهم زراعة الأرز بعد فتحهم الهند[1].

كان الإنتاج الزراعي في الدولة يقوم على نظام الإقطاع؛ حيث يعمل بفلاحة الأرض عبيد يباعون ويشترون معها، وكذلك كان العبيد الذين يؤسرون في الحروب يستخدمون في فلاحة الأرض. وكانت الزراعة أهم موارد الثروة في الدولة. ولم يكن هناك فلاحون يملكون أرضاً إلا في إقليم فارس وهو موطن الدولة الحاكمة؛ حيث كان الناس يعفون من الضرائب أيضاً. وكانت الحاصلات الزراعية هي القمح والشعير والكروم والزيتون. وكذلك كانت تربى الماشية والأغنام والماعز ودواب النقل وهي الحمار والبغل والحصان. وكان النحل يربى ويستخدم العسل فيما يستخدم فيه السكر.

ازدهرت كذلك حرفة الصيد وكانت ذات أهمية عظيمة في العالم القديم، إذ أن كثيراً من الناس، سواء منهم الغني والفقير، كانوا يعيشون على صيد السمك، وكانت مصائد الخليج العربي ودجلة والفرات تصدر السمك المملح أو المجفف. وقد تم القيام بكثير من الأعمال العامة التي تزيد الإنتاج، وكان من أهم أعمال الملوك الأخمينيين حفر القنوات في باطن الأرض. وكان لهذه القنوات قيمة حيوية للنهضة الإيرانية، كما

1- المرجع السابق، ص 205-206.

تم حفر قنوات في الأراضي التي تخلو من الماء مثل صحراء سوريا وبعض أقاليم آسيا الصغرى. ومن المؤكد أن الفرس قاموا بتجفيف المستنقعات، إذ أن هذا كان معروفاً لليونان في ذلك الوقت. وتحسنت الزراعة نتيجة لتلك الحروب التي قامت بين إيران وغيرها من الدول، فتم تبادل النباتات بين الأقاليم، وكان دارا يهتم بهذا الأمر.

وقد وصلنا خطاب كتبه دارا إلى أحد عماله، يشكره فيه على نقل أشجار الفاكهة من غرب الفرات وآسيا الصغرى وزراعتها في إيران. ولم يكن المقصود بهذا نفع إيران وحدها ولكن نفع الشعوب الأخرى في الدولة. فقد عرفنا أن الأخمينيين حاولوا زراعة نوع من الكروم التي يحبونها في دمشق، وقد أدخل الأخمينيون الفستق إلى حلب كما أنهم أدخلوا السمسم إلى مصر والأرز إلى العراق.

واستغل الفرس الغابات، فاستخدموا الأخشاب في المباني الملكية وبناء البيوت وصناعة الزوارق وعربات القتال وعربات النقل والآلات، وأدوات القتال. وكانت آسيا الصغرى وكريت وقبرص ولبنان والهند من أهم مراكز تجارة الأخشاب. وكان في الدولة كفايتها من الأخشاب والمعادن.

كانت الفضة والنحاس والحديد تستخرج من قبرص، والنحاس والفضة من آسيا الصغرى. وكانت هذه المعادن توجد أيضاً في فلسطين. وكان النحاس والحديد يستخرجان من لبنان وأعالي وادي دجلة والفرات. وكان الذهب والفضة يستخرجان من كرمان. وكانت سجستان معروفة بإنتاج القصدير، وجنوب القوقاز بالفضة والحديد وكذلك الساحل الجنوبي للبحر الأسود.

وكذلك بدأ العمل في المحاجر لتلبية حاجة الدولة إلى إنشاء المباني العظيمة. وبدأت الصناعة تزدهر في المدن، وكذلك استمرت الصناعات التي كان يقوم بها العبيد في داخل الإقطاعات الزراعية. وكانت صناعة الملابس والأحذية والأثاث من أكثر الصناعات رواجاً. وكان بعض هذا الأثاث فاخراً ليستخدمه الأغنياء.

وكذلك صنعت الأواني الذهبية والفضية والبرونزية التي كان يستخدمها الأغنياء أيضاً. وكانت النساء يتزين بالحلي، ويستخدمن وسائل التجميل المختلفة. وفي بيوت الفقراء كانت تستخدم الآنية الفخارية بدلاً من الآنية المعدنية[1].

1- د. عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 140-141.

التجارة والطرق التجارية:

وطدت الإمبراطورية الفارسية الأمن والسلام، وهما عماد الحياة الاقتصادية المزدهرة في بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر. وقد اهتم ملوك الفرس، وداريوس خاصة، بفتح الطرق وتعبيدها لأسباب اقتصادية وسياسية وحربية. ومن هذه الطرق تلك التي كانت تذهب من سوسه إلى برسبوليس وصولاً إلى البلاد الواقعة وراء نهر السند أو إلى باقتريان وإلى الطرق التي كانت تفضي إلى سوريا وآسيا الصغرى متبعة وادي الفرات. وكان طول إحدى هذه الطرق وهي الممتدة من سوسه إلى سرديس ألفاً وسبعمائة ميل مزودة بالمحطات والنزل اللائقة. والرحلة كانت تتم في مدة تسعين يوماً. وتسهيلات السفر هذه مكنت بعض اليونانيين المتعلمين مثل المؤرخ هيرودوت من زيارة بابل. وقد وضع الموظفون الآشوريون والفرس دليلاً للمسافرين يبين الطرق والمسافات.

وكان الفرس يعبرون الأنهار الكبيرة في قوارب، وكان في وسع مهندسيهم أن يقيموا على الفرات أو الدردنيل قناطر متينة تمر عليها الفيلة. وكانت ثمة طرق تصل فارس بالهند عبر ممرات الجبال في أفغانستان، وهذه الطرق قد أفادت في تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار، وقد كثر التبادل التجاري وأثرت المدن الواقعة على الطرق التجارية الكبرى. وأمر داريوس بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر، وأهملها خلفاؤه فردمتها الرياح[1].

وبازدهار التجارة شاع الرخاء وارتفع تبعاً لذلك مستوى معيشة أهل إيران. وقد كان تأسس الإمبراطورية إيذاناً بدخول العالم مرحلة جديدة من مراحل الازدهار الاقتصادي، وقام التبادل التجاري بين بلدان لم تكن بينها تجارة من قبل مثل بابل واليونان.

وازدهرت صناعة السفن، فبنيت سفن تجوب البحار حمولتها بين 200-500 طن، أما السفن النهرية فكانت حمولتها بين 100 و 200طن.

وكانت الأجور والقروض وفوائد الأموال تؤدى بادئ الأمر سلعاً، وأكثر ما كانت تؤدى به الماشية والحبوب، ثم قام دارا بإصلاح مالي عظيم كان من شأنه أن حسن طريقة جباية الضرائب ونظمها وسهل التبادل التجاري في أنحاء دولته، وذلك بسكه

1- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، ص 307.

العملة من الذهب والفضة وسميت (بالداريق). (وملوك الفرس هم أول من نقش على النقود صورهم بشكل رماة السهام).

وباختراع العملة، وجد التجار أداة ثابتة للتبادل، وربما أخذ دارا السكة من الصيارفة والتجار في مدن آسيا الآيونية، حوالي 700ق.م. ثم صقلها، حتى أن مجموعة (رماة السهام) التي صور على ظهرها الملك جاثياً على ركبتيه وممسكاً بقوسه، تعدُّ من أشهر قطع النقود في العالم القديم[1].

الفنون:

إن امتداد الإمبراطورية الفارسية في ما وراء بلاد فارس الأصلية بعد عهد قورش وخلفائه، جعل الفرس على اتصال مباشر مع بابل، أحد مراكز الفن القديم، ومع مراكز المدنيات في واديي دجلة والفرات وآسيا الصغرى، وأخيراً مع اليونان وسوريا ومصر بعد فتوح قمبيز. ولا يرجع الفن في الحضارة الفارسية إلى تطور محلي أصيل، فالأخمينيون كانوا أقل ابتكاراً وأصالة في الفنون، ولكنهم بمهارة اقتبسوا وتبنوا فنون الشعوب الأخرى. وبما أنه لم تكن للفنون الفارسية جذور عميقة، فإنها خدمت بالأساس الأغراض الإمبراطورية، وما لبثت أن اختفت كما ظهرت مع الإمبراطورية.

إن أعظم مآثر الفن الأخميني، تتمثل في فنون العمارة والنحت والتزيين. ورغم أن الديانة الفارسية لا تتطلب بناء الهياكل الضخمة كغيرها، إلا أن ملوك فارس كانوا مولعين بتشييد القصور الضخمة والمقابر منذ أيام قورش وداريوس واكسيركسيس. ففي بازار غاد بقايا قصر قورش وقبره. وفي سوسه خرائب قصر داريوس الذي جدده حفيده من بعده. وفي برسيبوليس أنقاض قصر داريوس أيضاً. وأهم النماذج المعمارية الباقية هي السقف والقصور العظيمة في برسبوليس وسوسه، ويظهر أنها من وحي العمارة الآشورية والبابلية، فعنهما نقلوا فكرة العمد الضخمة التي تصل بها ممرات مدرجة تزينها أفاريز منقوشة. ومع ذلك فقد أدخل الفرس خصائص متميزة على ما نقلوه من الخارج.

فالقصور الملكية الهائلة وأبهاء الاستقبال لم تكن على شكل حصون أو معابد، بل كانت الأبهاء تبنى على شكل مظلة تتكون من سقف خفيف فوق مجموعة من

1- المرجع السابق، ص 308.

الأعمدة؛ حيث يقابل الملك السفراء الأجانب وغيرهم من علية القوم. وفكرة الأعمدة المعمارية من هذا الطراز كانت مأخوذة من مصر بضخامة أقل وطول أكثر. إن طراز البناء المستعار من بابل هو الطراز نفسه الذي اتبع في بازار غاد وسوسه وبرسيبوليس من حيث إقامة العمائر المملوكية على ربوات اصطناعية يتم الصعود إليها عبر درج خارجية عظيمة. وربما أخذ الفرس هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى زقورات، ولكن كان لها مع ذلك خصائص فريدة بها، منها كون الدرج سهلة المرتقى واسعة، يستطيع عشرة فرسان أن يصعدوها جنباً إلى جنب. ولا شك أن هذه التي كشفت في برسيبوليس، كانت مدخلاً بديعاً إلى المرتفع الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علواً يتراوح بين عشرين وخمسين قدماً، والذي يبلغ طوله ألف وخمسمائة قدم، وعرضه ألف قدم، والذي شيدت عليه القصور الملكية. وعند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين يشاهد مدخل أمامي كبير، نصبت على جانبيه تماثيل ثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية آشورية. وإلى الجهة اليمنى، بعد هذا المدخل، توجد الردهة العظمى التي شيدها اكسيركسيس الأول، والتي كانت مساحتها مع غرف الانتظار المتصلة بها مائة ألف قدم مربعة.

ولا يزال ثلاثة عشر عموداً من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر اكسيركسيس باقية إلى اليوم بين خربات القصر. وتعد هذه الأعمدة من الأعمال البشرية الممتازة، وهي أرفع من مثيلاتها في مصر أو اليونان، ويبلغ ارتفاعها أربعة وستين قدماً، وقد خط في جذوعها ستة وأربعون محزاً، وتشبه قواعدها أجراساً تغطيها أوراق أشجار مقلوبة، ومعظم تيجانها على شكل لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف (الآيونية) يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف. ولا نشك في أن هذه العوارض كانت من الخشب، لأن أمثال هذه العمد المتباعدة سريعة العطب لا تقوى على تحمل الدعامات الحجرية الثقيلة. وكانت تيجان الأبواب وجوانب النوافذ من حجارة سوداء مزخرفة براقة كالأبنوس. أما الجدران فكانت من الآجر يغطيها القرميد المصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهاراً. وكانت العمد والفصوص والدرج من حجر الجير الجميل أو الرخام الأزرق الصلد.

وقد قلد الفرسُ الآشوريين في وضع تماثيل ضخمة عند أبواب القصور، وفي تزيين الجدران الخارجية بالنقوش الملونة. وبدلاً من أن يستعمل الفرس في مبانيهم

القرميد، كما فعل البابليون والآشوريون مضطرين بحسب طبيعة بلادهم، استفادوا خاصة من وجود حجر المرو كما في بازار غاد وبرسبوليس.

ولعل قصور برسبوليس كانت من أجمل ما شاده الإنسان في العالم القديم والحديث على السواء.

أما قبور ملوك الفرس، فأجمل ما بقي منها إلى يومنا قبران محفوران في مكان عال وليس له درج، فكانوا ينصبون السلالم الخشبية للوصول إلى القبر ودفن الملك فيه.

فقبر قورش هو الآن ضريح حجري بسيط فيه تأثيرات إيونية، ويرتفع إلى ما يقرب من خمس وثلاثين قدماً فوق قاعدة مدرجة.

وقبر دارا منحوت في واجهة صخرة في الجبل، وقد نقش مدخله ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر. وأقيمت عند المدخل أربعة عمد دقيقة حول باب قليل الارتفاع. ومن فوق هذا الباب شخوص قائمة، كأنها فوق سقف، يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس، تحمل منصة رسم عليها الملك كأنه يعبد أهورامزدا والقمر. والفكرة التي أوحت بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسري منها روح البساطة والرقة الأرستقراطية[1].

النحت والتزيين:

عَنيَ الفرسُ بالنحت لتزيين قصورهم وقبورهم. فالأبواب والجدران المبنية من الحجر الكلسي كانت مزدانة بالنقوش البارزة البديعة، وبعضها يمثل الملك في صراعه مع الوحوش الضارية، أو تمثله فوق عرشه وبين يديه أسرى الحروب، فضلاً عن الثيران الضخمة المجنحة ذات الوجوه البشرية التي تزين مداخل الأبواب. وفي كل ذلك يتضح تأثير بابل وآشور، سواء في اختيار المواضيع أو في معالجتها. إن الرمز الديني الواحد الذي يظهر في النحت الفارسي (أهورامزدا) في إطار مجنح، يشبه تماماً تمثيل نينوى للإله آشور الذي يعكس بدوره التأثير المصري حين يستعمل القرص المجنح.

ويبدو الرمز الإلهي فوق رأس الملك، شبيه للرمز الموجود في نينوى وبرسبوليس. أضف إلى ذلك أن الفرس أخذوا عن الآشوريين تلوين الآجر وطليه بالمينا، وأضافوا إليه النقوش البارزة فوقه. ولعل أبدع آثار هذه النقوش الملونة على الآجر هما الطنفان اللذان وجدا في سوسه ونقلا إلى متحف اللوفر، ويمثل أحدهما

1- نفس المرجع، ص 297-298.

أسوداً والآخر رماة من الجيش الفارسي. ففي سوسه عثر المنقبون على «نقش الرماة» ولعلهم (المخلدون) الأمناء حراس الملك. ويبدو للناظر - على ما يقول ديورانت - أن هؤلاء الرماة ذوي الطلعة المهيبة قد تزينوا لحضور حفلة في القصر، وليسوا خارجين لقتال أو حرب. فجلاليبهم ذات ألوان زاهية، وشعورهم ولحاهم مجعدة، وهم يمسكون بأيديهم، في قوة وخيلاء، رماحهم رمز مناصبهم الرسمية. ولم تكن فنون النحت والتزيين والتصوير في فارس مستقلة، بل كانت تابعة لفن العمارة، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع فنانين جيء بهم من آشور وبابل وبلاد اليونان. ففي الوجوه يمكن تحري التأثير اليوناني. فالبناؤون اليونانيون وغيرهم، لسبب أو لآخر، قد شقوا طريقهم إلى البلاط الفارسي، ولا يمكن التكهن بمدى العمل الذي كان يقوم به الأجانب أو الوطنيون.

ومهما يكن الأمر، فإن النحت كان مدنياً بأكمله، فالدين الفارسي لم يقدم مواضيع للمباني الدينية العظيمة. صحيح أن بيوت النار كانت متواجدة بكثرة، ولكنها ليست معابد للنار.

وتمثلَ الفن أيضاً لدى الفرس في صناعة أدوات الزينة مثل الأقداح والكؤوس والأحجار الكريمة وقطع السروج المرصعة بها، لأن اقتناءها كان محبباً عند شعب لمن يخرج من طور البداوة إلا منذ عهد قريب. وكانت الجواهر كثيرة لديهم من تيجان وأقراط، إلى خلاخيل وأحذية مذهبة، وحتى الرجال أنفسهم كانوا يتباهون بحليهم يزينون بها أعناقهم وآذانهم وأذرعهم. أما الفيروز فكانوا يستخرجونه من المناجم الفارسية، وكان هو المصدر الذي تصنع منها الطبقة الموسرة أختامها.

وأفضل نموذج للأحجار الكريمة المعروفة عند الأخمينيين كنز جيحون الشهير الموجود بالمتحف البريطاني، ويشتمل على مجموعة من القطع اليونانية الجميلة.

قيمة الفن الفارسي:

الفن الفارسي، شأن الفنون كلها تقريباً، عناصره مستعارة كلها من الخارج. ولنضرب مثلاً لذلك قبر قورش، فقد استعير شكله الخارجي من ليديا، وغمده الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من العمد الآشورية مع تحسين يسير. وبهو الأعمدة الضخمة والنقوش قليلة البروز مستوحاة من أبهاء مصر ونقوشها. وتيجان الأعمدة التي على صورة الحيوان مقتبسة من نينوى وبابل.

ويلاحظ أن فارس القديمة لم تترك ما يضاهي معابد مصر وبابل واليونان، والفن الفارسي عموماً لم يستوحِ من الدين إلا تمثيل أهورامزدا، وخلاف ذلك كان النحت لا صلة له بمواضيع الدين.

إن اختلاف فن العمارة الفارسي عن غيره من فنون العمارة، يرجع إلى اجتماع هذه العناصر سالفة الذكر كلها والمواءمة بينها، كما نجد في برسبوليس. وكان اليونان ينظرون إلى ما بلغه الفن الفارسي، ويندفعون إلى منافسته. والحق أنه لم يكن بين فني العمارة في برسبوليس وأثينا إلا خطوة واحدة. وبينما أوشكت الحضارات الشرقية أن تغرق في سبات عميق يدوم ألف عام، تتأهب بلاد اليونان للنهوض، بعد أن استودعها عالم الشرق تراثه القديم[1].

آداب الفرس وأخلاقهم:

كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم والمودة، ويراعون آداب المجالس، ولهم تقاليد وعادات لطيفة في المقابلات، وكلها تنم عن الاحترام والخضوع لمن تعلو منزلته بينهم. وإذا التقى الفارسي بمن هو أقل منه منزلة، قدَّمَ له خده ليقبله، فإذا قابل أحد العامة اكتفى باحناء رأسه.

وذكر هيرودوت بعض عادات وتقاليد لطيفة ترجع إلى الأيام التي كان يجوب فيها أجدادهم الآريون السهول الشمالية على ظهور الخيل، ومنها: أن الرضيع يبقى خمسة أعوام بعيداً عن أبيه لا يراه، وتتولى النساء تربيته، وأن الأبناء في سن الخامسة حتى سن العشرين يتعلمون ثلاثة أشياء فقط: ركوب الخيل، والصيد بالقوس، وقول الحق. أما القتال في المعركة، فكان يعدُّ أسمى صفات الرجل. وكان يليه في الأهمية بناء أسرة كبيرة من الأبناء، ثم يأتي بعد ذلك مثلهم الأعلى، وهو تكوين الجندي الباسل. إن استهجانهم للكذب وكرههم للاستدانة، يشيران إلى وجود قوانين صارمة في المدرسة، ويؤيدهما تصرف مشابه هو احتقارهم للتجارة، ولهم كثير من عادات الرجال الأقوياء الجسورين.

ولكن الفرس بدأوا، عند ظهور الإمبراطورية أيام هيرودوت، يتذوقون حياة الترف. ومع أنهم كانوا يحبون الطعام والشراب، لكنهم كانوا يتجنبون التخمة، ويتحاشون ممارسة شؤونهم الخاصة جهراً أمام الغير، لأنهم لم يكونوا أجلافاً. وكانوا

1- المرجع السابق، ص 299-300.

يعدون النظافة أكبر النعم، ويفرضون أشد العقوبات على من يتسببون في نشر الأمراض المعدية.

وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنا واللواط «أن يقتلوا لأنهم أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئاب العاوية»، ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يبقين عذارى ولا العزاب على أن يبقوا بلا زواج، ولكنه كان يبيح التسري وتعدد الزوجات، ذلك لأن المجتمعات الحربية في حاجة ماسة إلى كثرة الأبناء. وكانت الأسرة لديهم أقوى النظم الاجتماعية. وكانوا يعظمون الثور لما له من قدرة على الإخصاب، كما كانوا يصلّون للبقرة ويقدمون إليها القربان.

وكانت للمرأة مكانة سامية أيام زرادشت، كما هي عادة القدماء، ثم انحطت مكانتها بعد عهد دارا؛ حيث لم يكن يسمح للنساء بالاختلاط بالرجال علناً، أو بالخروج من بيوتهن إلا في هوادج مسجفة. ولم تذكر النساء قط أو يرسمن في النقوش أو التماثيل العامة في البلاد القديمة.

وكان الرجال يطيلون لحاهم ويتركون شعر رؤوسهم ينساب في غدائر، ثم استبدلوا بها فيما بعد شعراً مستعاراً. ومع تزايد الثروة في عهد الإمبراطورية، أقبل الأهلون على استعمال أدوات التجميل رجالاً ونساءً، فاستعملوا الأدهان لتجميل الوجه، والأصباغ الملونة لدهن الجفون، لكي يزيدوا بذلك من سعة العينين وبريقهما في الظاهر. وقد برع الفرس في صنع الروائح العطرية[1].

وكان للفرس آراء في التربية والتعليم، فالوليد يبقى في حضانة أمه حتى السنة الخامسة من عمره، ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة، وفي هذه السن يدخل المدرسة. وكان التعليم يقصر في الغالب على أبناء الأغنياء، ويتولاه الكهنة عادة. فكان التلاميذ يجتمعون عادة في الهيكل أو في بيت الكاهن. وكانت الكتب المدرسية هي الأبستاق وشروحها. وتشمل مواد الدراسة الدين، والطب والقانون. أما طريقة الدرس، فكانت الحفظ عن ظهر قلب، وتكرار الفقرات الطويلة غيباً. وكان تعليم أبناء الطبقات الفقيرة يقتصر على ثلاثة أمور: ركوب الخيل، والرمي بالقوس، وقول الحق. وقد يمتد التعليم عند أبناء الأثرياء إلى السنة العشرين، أو الرابعة والعشرين، ومنهم من يعد إعداداً خاصاً لتولي المناصب العامة أو حكم الولايات. وكان التدريب الشاق على القتال والفروسية والفلاحة من مستلزمات الدراسة الشاقة. ويلاحظ أن الفرس كانوا

1- نفس المرجع، ص 302-303.

متصوفين دائماً، متشككين فرديين، يهتمون بحقائق الحياة الظاهرة ويفيضون بهجة وحيوية. ولقد قام الحريم والحشد من الحصيان بدور كبير في حياة الإمبراطورية، ما أضعف قوة البلاط، وبالتالي غدا حكام الأخمينيين والمتأخرين مجرد ظل شاحب لأسلافهم العظام، سرعان ما سار حكمهم إلى الزوال، ومهد لبزوغ شمس الإسكندر[1].

الكتابة واللغة:

أصبحت الآرامية لغة الإمبراطورية الرسمية في أجزائها الغربية خاصة، أما الكتابة المسمارية القديمة، فقد استعملها الفرس، كما فعل الحثيون قبل ألف سنة، ولكن فهمها أخذ يصعب تدريجياً، حتى انقرضت في القرن الرابع قبل الميلاد. ثم استخدم الفرس الحروف الهجائية الآرامية لكتابة وثائقهم، وبسطوا مقاطع اللغة البابلية الثقيلة الصعبة، فأنقصوها من 300 رمز إلى 36 علامة، تبدلت تدريجياً من مقاطع إلى حروف، حتى صارت حروفاً هجائية مسمارية. ولم يخلّف لنا الفرس من الآثار الأدبية، إلا كتبهم الدينية وقليلاً من رسائل الملك دارا ووثائقه.

وتكلم الفرس عدة لغات عبر تاريخهم الطويل. فكانت الفارسية القديمة لغة البلاط وأعيان البلاد في عهد دارا الأول، وهذه اللغة وثيقة الارتباط باللغة السنسكريتية، حتى ليبدو أنهما واللغة الإنكليزية واليونانية واللاتينية والألمانية لهجات من لغة أقدم عهداً. وتطورت اللغة الفارسية القديمة، وتفرعت إلى فرعين هما الزندية - لغة الزند - أبستاق، والبهلوية، وهي لغة هندية اشتقت منها اللغة الفارسية الحالية. ولكن اللغة الفارسية القديمة لم تنتشر في الإمبراطورية، ولم تصبح لغة الشعوب، بل كانت الآرامية هي السائدة، لأن ملوك الفرس كانوا يستخدمون السوريين في الدواوين والإدارات[2].

الديانة:

يرتبط الأدب الإيراني القديم بالمعتقدات الدينية. وأهم أثر مكتوب هو الأفستا، وهو كتاب ديني منسوب إلى زرادشت، ويسمى بالعربية الأبستاق في بعض الأحيان.

1- نفس المرجع، ص 304.

2- المرجع السابق، ص 305.

والأفستا كتاب العلم والحكمة الذي يتألف من عدة أجزاء، ألفت في أزمنة مختلفة، وتناولت موضوعات مختلفة. ولئن ضاعت أجزاء من الكتاب، فإن ما بقي منه يسمح بالتعرف على الأبواب التي يتألف منها: التراتيل، الصلوات، الأحكام القانونية والطقسية. وأقدم هذه الأجزاء هو التراتيل الطقسية. وأقدم هذه الأجزاء هي التراتيل المنسوبة إلى زرادشت، وتعود على الأرجح إلى القرن السابع ق.م. وقد دُوِّنت بعد تناقلها شفهياً أجيالاً عديدة، وترتفع بأسلوبها إلى درجة أعلى من أسلوب الأجزاء الأخرى الرتيبة والركيكة والتي تم نسخها في القرن السادس. ولكن يلاحظ تطور في المضمون، وهذا التطور لم يكن ليتأثر دائماً بالزمن وبالوسط الثقافي، بل كان يتضمن أحياناً عودة إلى الماضي الوثني البعيد مثل عبادة ميترا (إله الشمس). ولذا يمكن القول إن الكتاب المقدس للديانة الفارسية (أفستا)، تكوَّن تاريخياً على مدى قرون، بصورة لم يعد في الإمكان تمييز الأصول، بسبب ما لحق بها من إضافات[1].

دين الفرس قبل زرادشت:

في فجر تاريخهم كان الآريون يقدسون قوى الطبيعة، وأهم ظواهرها كالنار والماء والهواء والرعد والشمس والقمر. وفي شرح الكتاب المقدس للديانة الفارسية القديمة، زند أفستا، ذكر لأسطورة تتحدث عن الإنسان الأول وعن التوصل إلى الخلود عن طريق أكل لحم نَصح أحد الأرباب بتناوله. وهي أسطورة تشبه في مغزاها موضوع نبتة الخلود في الآداب الميثولوجية الشرقية. لكن زرادشت يعلم أن الخلود لا يتوقف على أكل لحم ثور مقدس مثلاً، وإنما هو شيء معنوي يمنحه الإله أهورامزدا لمن يستحقه مقابل الفضيلة.

أما العناصر الكونية الأربعة المقدسة في الديانة الفارسية القديمة فهي: النار ممثلة بالكوكبين الشمس والقمر، والهواء، والماء، والتراب = الأرض، وهي العناصر التي اعتقد فلاسفة اليونان في القرن السادس أنها العناصر الأساسية في الكون.

ومن الطقوس القديمة للديانة الفارسية: التضحية. وكانت تقدم قديماً تضحيات بشرية استعيض عنها فيما بعد برموز وبدائل حيوانية: ثيران وكباش، ومن أهم الوصايا المتعلقة بحفظ الحياة، حماية بعض الحيوانات مثل كلب البحر والكلاب والقنافذ. وتعكس هذه التعاليم معتقدات شعبية متراكمة لها جذور تاريخية عميقة،

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضاراتها، ص 91-92.

تركت تأثيراً كبيراً في حياة العامة وسلوكهم اليومي وحتى في حياة طبقة الحكام والنبلاء. هذه بعض الأصول البعيدة للمعتقدات الدينية في الحضارة الفارسية. لكن الديانة في العصر الأخميني تبلورت حول عبادة أهورامزدا. وقد ارتبطت هذه العبادة باسم المصلح الديني زرادشت[1].

والخلاصة أن مصادرنا لا تعطينا صورة دقيقة للحياة الدينية في إيران قبل زمن زرادشت، ولا نستطيع أن نقطع بشيء أكثر من أن في دين زرادشت بقايا من الدين الآري القديم، تتمثل في تقديس الأجرام السماوية وتقديس عناصر الطبيعة، كما أن فيه دعوة حارة إلى نبذ السحر وعبادة الشياطين، وإلى ترك أمور أخرى مرتبطة بمعتقدات القوم قبل زمانه[2].

حياة زرادشت:

يعتبر زرادشت المؤسس الحقيقي للدين الفارسي القديم، فشخصيته وتعاليمه قد صبغت هذا الدين بصبغة قوية، ميزته عن غيره من الأديان الآرية. وقد أظهر بعض العلماء شكاً في وجود زرادشت، ولكن البحث أثبت أن زرادشت شخصية تاريخية، وأنه حكيم من أكبر الحكماء الذين ظهروا في الشرق القديم. وتمثله لنا الجاثات (أقدم قسم في كتاب الأفستا) رجلاً قوي الشخصية، يعلم ويعظ ويؤثر في كل من يتصل به. أما الأجزاء المتأخرة من الأفستا، فتضفي عليه لوناً من التقديس والتعظيم، يكاد يخفي معالم شخصيته الحقيقية. وقد كانت الأفستا الأصلية تشتمل على فصل من حياة زرادشت، ولكن هذا الفصل قد فُقد، وقد حفظت أجزاء منه في الكتابات الدينية البهلوية. أما العصر الذي ظهر زرادشت فيه، فقد كان موضعاً لخلاف كثير. وقد توصل الأستاذ WEST إلى القول بأن زرادشت عاش بين عام 660 إلى عام 583ق.م. وقد لقي تحديده هذا قبولاً من أعلام الباحثين، ومنهم وليام جاكسون العالم الأمريكي الذي اهتم كثيراً بهذا الموضوع[3].

تحدثت الكتابات البهلوية عن العجائب التي ظهرت عند ولادة زرادشت، كما تحدثت عن محاولة السحرة قتله في طفولته، ولكن هذه المحاولات لم تنجح، وكبر

1- المرجع السابق، ص 92.

2- محمد عبد السلام كفاني: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 195.

3- المرجع السابق، ص 196-197.

الطفل. ونقرأ في الأفستا أن الطبيعة ابتهجت بمقدم زرادشت، فالأشجار تهتز والأنهار تنساب رقراقة عذبة. أما الشيطان وأتباعه من الجن، فقد فروا هاربين إلى باطن الأرض. وحين ولد زرادشت ضحك ولم يبك كما يفعل الأطفال ساعة يولدون.

ولما بلغ سن العشرين انقطع عن الناس وخلا بنفسه يتفكر ويتأمل، وحين بلغ الثلاثين نزل عليه الوحي وبدأت بذلك نبوته. وظل زرادشت يدعو الناس إلى دينه ويعرضه على الأمراء المختلفين فلا يؤمن به أحد. وبعد عشر سنوات من قيامه بالدعوة أفلح في أن يجتذب تابعاً واحداً. وكاد اليأس يدب في نفس زرادشت بسبب الإخفاق الكبير، لولا أن أهورامزدا أمره بأن يذهب إلى بلاط الملك كشتاسب ملك إيران في ذلك الوقت.

وهناك يقضي زرادشت عامين محاولاً إقناع هذا الملك، وبعد تعب شديد يفلح في إقناعه بعد أن يظهر أمامه بعض المعجزات. وهناك يؤمن به الملك وأسرته وحاشيته وأتباعه في حوالي عام 618ق.م. بناء على تاريخ ويست WEST، ويتلو ذلك انتشار الدين في إيران وفي جزء من توران (بلاد الترك التي كانت على الحدود الشرقية لإيران). ثم نسمع عن انتشار هذا الدين في أجزاء من الهند وآسيا الصغرى. ويظهر أن دين زرادشت قد انتشر عن طريق الفتح خارج إيران، فهناك روايات تنبئ بذلك، بل وتنبئ بأن زرادشت نفسه قد قتل في إحدى هذه الحروب الدينية، وهو في عمر السابعة والسبعين[1].

أصبح زرادشت شخصية أسطورية في التاريخ الفارسي القديم، ذلك أنه بعد أن شبَّ وترعرع، أحب الحكمة والصلاح واعتزل الناس، وآثر أن يعيش حياة متقشفة في برية الجبل، واختار الجبن وثمار الأرض طعاماً له. وأخفق الشيطان في إغوائه، وتجلى له أهورامزدا، ووضع بين يديه كتاب العلم والحكمة «أفستا» = (الأبستاق عند المؤرخين العرب)[2]. وأمره أن يعظ الناس وأن يدعوهم إلى الإيمان به، ولكنه جوبه بمعارضة قوية وتعرض للاضطهاد.

ويتحدث زرادشت عن نفسه في هذه المرحلة قائلاً:

«إلى أية أرض أمضي؟ إلى أين المفر؟

1- نفس المرجع، ص 197-198.

2- تحدث عنه الطبري وابن الأثير والمسعودي وغيرهم. وعرض الشهرستاني في الملل والنحل أفكار زرادشت بوضوح، (تحقيق عبد الرحمن خليفة ج 2، ص 62).

لقد استبعدوني، وتركني أهلي وأنكرني أبناء عشيرتي وكبار قومي.
كيف أستطيع أن أرضيك يا أهورامزدا؟
أنا أعرف لماذا لن أفلح في ذلك!
لأن قطعاني قليلة وأنصاري قليلون!
إنني أدعو إليك أي أهورامزدا فاستجب دعائي.
امنحني العون كما يمنح الصديق صديقه»!

هكذا ولدت الزرادشتية، في عصر لا بد أن يكون أسبق من عصر داريوس الأول. أما نهاية زرادشت فهي أكثر غموضاً، إذ يُذكر أن ومض برق أحرقه وصعد إلى السماء.

ومن هنا يتضح لنا مدى ما يحيط بحياة زرادشت من ريبة وشكوك تجعل من الصعوبة بمكان تكوين صورة صادقة وصحيحة عن حياته وفكره وتعاليمه. ومهما يكن فإن الأمور التي تذهب إلى حد زرع الشك بحقيقة وجوده ليست مقبولة. أما الوسط الطبيعي الذي عاش فيه هذا المصلح فهو مروج ومراعي إيران الشرقية. وهي أقرب ما تكون إلى حوض السند وثقافة الهند الغنية.

لقد كان زرادشت شخصية قوية ومؤثرة في المجتمعات الإيرانية القديمة، وقد أدخل تعاليم أثرت في التربية والسلوك الاجتماعي لتلك المجتمعات زمناً طويلاً. وتدخل هذه التعاليم في نطاق تاريخ الأديان وفي تاريخ الحركات الفكرية والاجتماعية في العصور القديمة[1].

تعاليم الزرادشتية:

كان ثرا إله الشمس وأنيتا إلهة الخصب وماه إله القمر وزام إله الأرض، أكبر الآلهة في الدين السابق للدين الزرادشتي. واستنكر زرادشت ما رأى من هذه الآلهة البدائية، فثار على المجوس - وهم الكهنة الذين كانوا يصلون لتلك الآلهة ويقدمون لها القرابين، وأعلن أن إله العالم هو أهورا - مزدا إله النور والسماء. إن جوهر العقيدة التي بشر بها زرادشت هي التوحيد، فهي لا تقر إلا بإله واحد هو أهورامزدا وهو إله سام لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته. وتوجد معه قوى مجردة هي أشكال منه أو مبادئ صادرة عنه، لكنها في منزلة أقل من منزلته.

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 94-95-96.

ومنذ أن خلق هذا العالم يتناحر فيه روحان يمثل أحدهما الخير ويمثل الآخر الشر، ولا يعرف هذا النزاع بينهما أية مهادنة، وهو يشمل كل شيء في الوجود. أما دور الإنسان في هذا النزاع فهو أن يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجها، وعندها ينال السعادة بعد الدينونة الأخيرة.

فللعمل الإنساني قاعدة أخلاقية مبنية على حتمية انتصار الخير والعدل. إن التقي قديس وهو يزيد العدالة بالعقل والحكمة والعمل والضمير. هكذا يمكن للمرء أن يرى إلى أية قمة أوصل هذا المصلح الغامض أفكاره وتعاليمه.

أما الديانة الرسمية للدولة فهي الزرادشتية. وقد اعتنق دارا الدين الجديد وتحمس له ونصب نفسه نصيراً ومؤيداً له طوال حياته، إذ رأى فيه ديناً ملهماً لشعبه ودعامة لحكومته.

إن السياسة العالمية للإمبراطورية الفارسية جعلت الملوك الفرس يعترفون بالآلهة الأخرى للشعوب الداخلة في المملكة المترامية الأطراف. لكن أهورامزدا احتفظ بموقع الإله الأعظم، وهو الإله الملكي بالدرجة الأولى. ويمثل في النقوش برسم قرص الشمس المجنح تخرج منه صورة نصفية لشخص له لحية ويكلل رأسه تاج، ويذكّر هذا الشكل برمز الإله آشور المجنح. وتطلق على أهورامزدا صفات توضح ماهيته، فهو النور السماوي، خالق العالم بما فيه الأرض والسماء، الرب الحكيم، ناظم السعادة والعدالة، الآمر بالحق وحب الحقيقة وبغض الكذب. وعلى الرغم من المستوى العالي من الروحانية المجردة، فقد اهتم الملوك بالطقوس المادية، ومنها تقديم الذبائح والأضاحي وإشعال النار الدائمة[1].

على أنه بقيت في عقائد عامة الناس بقايا تقاليد قديمة تتصل بتصورات موروثة للعالم الآخر ودياجيره وإشراكه وشياطينه. ويسيِّر هذا العالم الخفي أهريمان. إن الديانة تأمر الإنسان بمجاهدة نفسه للانتصار على أسباب الشر وللوصول إلى فردوس حافل بالأفراح والسعادة واللذة المادية. فالمعتقدات السائدة في المجتمع هي أكثر تعقيداً، وتتصل بعالم الغيب وما بعد الموت وما يحيط به من أسرار.

وقد تكونت المؤسسات الكهنوتية لتنظيم العبادات والطقوس وعلى رأسها كهنة يدعى الواحد منهم بـ(ماج) = (مجوس)، كانوا يشرفون على إيقاد النار المقدسة ويرتلون التراتيل ويقربون القرابين ويقدمون التقدمات ويتولون العناية بالذبائح

1- المرجع السابق، ص 93-94.

والأضاحي، ويترأسون طقوس العناية بالموتى ونقلهم إلى الأماكن البعيدة لتلقى في الصحراء لكي تلتهما الطيور الجارحة وتفترسها الكواسر؛ فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنوها لكي لا يدنسوا العناصر الكونية الرئيسية وهي: التراب والهواء والماء والنار[1].

إن الفكرة المركزية في الزرادشتية هي التأكيد على إله واحد اسمه أهورامزدا. ولهذا الاسم دلالته لأن (أهورا) تعني الرب. وهو الاسم الذي كان يطلق على الربوبية من قبل. أما (مزدا) فهي صفته، وتعني الحكيم، العليم، العاقل. وهذا ما يعكس الجانب الفكري في تعاليم زرادشت. إنه لأمر ملفت للنظر ظهور مفكر في الشرق في أواسط الألف الأول ق.م، في الوقت الذي كانت تختمر فيه أفكار الفلاسفة اليونانيين على الساحل الآيوني، وهذا من المؤشرات الهامة على التطورات الفكرية التي تبلورت فيما بعد في العالم الهيليني في العصر الكلاسيكي على أيدي معلمي الفكر في أثينا.

إن إلحاق صفات تعادل قيماً أو أقانيم على اسم أهورامزدا يوضح بجلاء مدى تفوق العنصر الفكري في المفاهيم الزرادشتية. فأهورامزدا هو العدالة والفكر السليم، والإخلاص، والكمال والخلود، وهي كلها صفات للإله ليست مستقلة عنه لكنها مظهر منه وهو خالقها. وفيما يلي تعريب لأحد أهم التراتيل، يحدد فيه زرادشت عظمة عمل أهورامزدا: «إنني أسألك، أي أهورامزدا، أي مولاي، أجبني!

من كان أول أب للعدالة عند الخليقة؟

من حدد مسار الشمس والنجوم في أفلاكها؟

من سواك رفع القمر إلى الأوج، ومن هبط به إلى المحاق؟

هذا ما أريد أن أعرفه، أيها الحكيم، وأشياء أخرى.

أسألك يا رب أجبني!

إني أسألك، أي أهورامزدا، أي مولاي، أجبني!

من ثبت الأرض والسماء فوقها بسحبها حتى لا تنهار؟

من فجر الأمواه وأنبت النبات؟

من أسرج للريح وللغيوم خيولها؟

من هو، أيها الحكيم، يا خالق الفكر الطيب!

إني أسألك، يا مولاي، أجبني!

1- المرجع السابق، ص 93-94.

من مبدع النور والظلمات؟

من خالق النوم واليقظة؟

من فالق الصباح وموقت الظهيرة والمساء؟

لكي يحدد لكل ذي عقل من الناس ما يطلب منه.

أسألك يا مولاي أجبني!

من صاغ الإخلاص المكرس في الملك؟

من جعل الابن يحترم أباه؟

إنني أجاهد نفسي لكي أعرفك أيها الحكيم!

كالروح القدس خالق كل شيء»[1].

أهم خصائص دين زرادشت هي التثنية، أي الاعتقاد بوجود قوتين تسيطران على هذا العالم: قوة الخير وقوة الشر، أو إله الخير والشيطان.

فالعالم منقسم إلى قسمين كبيرين بينهما هوة واسعة. وعلى جانبي هذه الهوة تقوم مملكة النور ومملكة الظلام، أي عالم الخير وعالم الشر. وهناك في ذلك النور اللانهائي يقيم الله، وفي ذلك الظلام اللانهائي يقيم الشيطان.

وعالم الدنيا من خلق الله، ولكن الشيطان يفسد هذا الخلق ويتلفه. ولولا هذا لكان عالمنا الدنيوي عالماً خيراً، لأنه من خلق إله الخير (أهورامزدا). إن هذا العالم الدنيوي هو نقطة الاحتكاك بين الخير والشر ومسرح الحرب بينهما. ومحور هذا العالم هو الإنسان.

ورغم ما يؤكده الدين الزرادشتي من الاعتقاد بسلطة الشيطان في هذا العالم، وقدرته على أن يفسد ما يخلق الله من خير، فهو يؤمن بأن الشيطان في النهاية سينهزم، وسيختفي إلى الأبد، وبذلك تسود مملكة النور، وهنا تقوم القيامة ويبعث الناس، ويكافأ الخيِّر، ويعاقب المذنب[2].

يرتدي الكهنة الزرادشتيون أردية بيضاء، ويضعون عمامة على الرأس، وقناعاً على الفم أثناء تأديتهم لبعض الطقوس، ليتجنبوا تلويث النار المقدسة بأنفاسهم.

1- قام بتعريب هذا النص الدكتور محمد حرب فرزات عن موسكاتي: S. MOSCATI. LORIENT AV, LES GRECS, 317, GATHAS, YASNA 44, 3-7.

2- د. محد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 198-199.

وهناك صلوات بعدد أقسام اليوم الخمسة، حيث فرض على أتباع الزرادشتية أن يؤدوا خمس صلوات في اليوم، هي صلاة الصبح «كان هاون»، وصلاة الظهر «كاه إرقون»، وصلاة العصر «كاه إيزن»، وصلاة الليل «كاه عيوه سرتيرد»، وصلاة الفجر «كاه إشهن»، وهناك صلوات خاصة أخرى...

وهناك احتفالات لجميع المناسبات الكبرى في الحياة: في الميلاد والبلوغ والزواج وإنجاب الأبناء والموت.

ولا بد للمرء أن يمر بطقوس التطهر قبل أن يقوم بأي عمل رئيس من أعمال العبادة. وكثيراً ما يتم الاعتراف بالخطايا التي ارتكبت عن طريق التفكير أو الكلام أو العمل. وهناك نوعان من الطقوس المركزية: طقوس النار، وطقوس القربان (الهوما HAOMA). والنار رمز أهورامزدا وابنه، ولا بد أن تحفظ بعيداً عن أي تلوث، فلا ينبغي أن تراها الشمس ولا عيون غير المؤمنين، ولا بد أن تحفظ في معبد النار. وهناك عدد من النيران المقدسة يسهر على خدمتها الكهنة بحب وبشكل مستمر، والنار الرئيسة هي بهرام BAHRAM أو ملك النيران الذي يتوج ويوضع على العرش، ولا يكتفي بتصيبه فحسب. وعندما يزور البارسيون PARSIS [1] النار، يضعون على جباههم علامة بالرماد رمزاً للتواضع، والمساواة، وكمصدر للقوة. والهوما HAOMA نبات بدون أوراق، ثمرة يشبه عنب الثعلب، وهو سامّ. وهو عند أتباع هذه الديانة الإله «هوما» على الأرض. وفي طقوس الهوما يسحق هذا الإله - النبات، ويستخرج من العصير شراب الخلود. وفي هذه القرابين الخالية من الدماء، يكون القربان هو الإله والكاهن والضحية في آن معاً، ويقوم المؤمن بالتهام هذا القربان الإلهي، مستبقاً بذلك القربان الذي سيقام في نهاية العالم، ويجعل جميع البشر خالدين[2].

الزرادشتية بعد زرادشت:

بعد وفاة زرادشت استمر الدين الزرادشتي لزمن طويل، وقد أصابته ضربة قوية حين غزا الإسكندر إيران عام 330ق.م. فيقال إن نسخة الأفستا التي كانت في

1- البارسيون هم أتباع الديانة الزرادشتية أو المجوس كما أطلق عليهم اليونانيون عندما فتحو فارس.

2- جفري بارندز: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي ط 2، القاهرة، 1996، ص 143-144.

الخزائن الملكية قد أُحرقت. وتلا ذلك عصر مظلم بالنسبة إلى دين زرادشت هو عصر السلوقيين والبارثيين، الذين حكموا إيران حتى عام 226م، أي نحو خمسة قرون. وجاءت بعد ذلك الدولة الساسانية التي أسسها أزدشير بن بابل، فأحيت الزرادشتية، وأعادت إليها قوتها، وجعلتها دين الدولة الرسمي. ففي عصر هذه الدولة جمعت نصوص الأفستا من جديد، وسادت الزرادشتية من جديد نحو أربعة قرون. ولكن الفتح العربي الذي وقع في عام 651م كاد يقضي عليها، فأسلمت الكثرة الغالبة من سكان إيران، وفرَّ بعض أتباع الدين الزرادشتي إلى الهند؛ حيث بقوا على دينهم، وسموا هناك بالبارسيين نسبة إلى وطنهم الأصلي فارس[1].

1- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 220.

من السيطرة اليونانية إلى الدولة الساسانية

السيطرة اليونانية - عصر تحول جديد:

وصلت الدولة الأخمينية إلى قمة مجدها في عصر دارا، فبلغت أقصى درجة من القوة وازدهار الحضارة في إمبراطوريتها الواسعة. وقد عاشت الإمبراطورية 150 عاماً بعد دارا. ويرجع الفضل في استمرارها لهذه الفترة الطويلة من الزمن إلى الأساس المتين الذي أرساه قورش وإلى البناء الضخم الذي رفع قواعده دارا على هذا الأساس. وقد ظلت الإمبراطورية متماسكة، ولكنها لم تتجدد ولم تتطور. فقد أخفقت الإمبراطورية بعد دارا في تحقيق مزيد من التقدم، كما عجزت عن الدفاع عما خلفه لها المؤسسان العظيمان قورش ودارا، ما أدى إلى سقوطها في النهاية.

وليس من شك في أنه قد مرت بالإمبراطورية بعد دارا فترات قصيرة من الرخاء والتوسع أيضاً، كان السبب فيها يرجع إلى بعض الملوك البارزين الذين جلسوا على عرشها بعد دارا، والذين كانت لهم قدرة دبلوماسية فائقة، تمثلت في حسن تصريف سياستهم الدولية. ولكن هذه الفترات القصيرة من التقدم كانت تزيد من خطر السقوط. فلم يعد الملك في إيران يقود الجيش بنفسه، كما كان يصنع قورش ودارا، وذلك طوال القرن الأخير من حياة الدولة. وارتكزت المنافسات والمؤامرات حول العرش، فكانت تحدث الاغتيالات بين أفراد الأسرة المالكة حين يجلس ملك جديد على عرش إيران[1].

خشيار شاي (اكزرسيس):

لقد عين دارا خشيار شاي ليخلفه على عرش إيران. وقد ولي الحكم بعد أن ظل اثني عشر عاماً والياً على بابل. وكان من أول الأعمال التي قام بها القضاء على

1- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 142- 143.

الثورة التي بدأت في مصر أيام أبيه. ولقد كان خشيار شاي قاسياً في القضاء على هذه الثورة، ما أثار حقد المصريين وجعلهم يتحينون الفرص للأخذ بثأرهم. وقد تصرف بالقسوة نفسها إزاء ثورة قامت في بابل، فهدم أسوار المدينة وحصونها وحطّم معابدها وصهر تمثال الإله البابلي المصنوع من الذهب. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد يلقب نفسه ملك بابل، وإنما جعل لقبه مقتصراً على ملك «الفرس والميديين». ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الملك يمنح ثقته إلا للشعب الحاكم في إيران[1]. فالحملة الشهيرة التي قادها الملك إلى بلاد اليونان 480ق.م انتهت بهزيمة منكرة للأسطول الإمبراطوري وبانتصار ساحق للأسطول اليوناني. وفي نقش اكتشف في برسبوليس يتبدى الوجه الآخر لشخصية خشيار شاي، وتتأكد فيه عناصر إيمانه بالزرادشتية وكفره بالأرباب المؤذية:

«أهورامزدا هو الإله الكبير الذي خلق الأرض والسماء والإنسانية، ومنح الناس سلاماً وجعل خشيار شاي ملكاً ونصبه مشرعاً... أنا خشيار شاي، الملك الكبير، ملك الملوك، ملك بلاد متعددة اللغات، ملك هذه الأرض الكبيرة، ابن الملك داريوس الأخميني.

هكذا يتكلم الملك خشيار شاي: عندما أصبحت ملكاً، ثارت بعض المناطق المذكورة، لكن أهورامزدا يمنحني تأييده، وبرعايته أخضعت أولئك العصاة وأعدتهم إلى الوضع الذي كانوا عليه. ومن جهة أخرى فإن سكان بعض هذه المناطق يعبدون الأرباب المؤذية، ولكنني في ظل أهورامزدا اقتلعت أسس معابد الأرباب المؤذية وأمرت ألا تعبد بعد الآن.

مات خشيار شاي اغتيالاً بعد أن مرَّ في وضع نفسي مضطرب، خرج فيه عن طوره، وعم الاضطراب في الدولة كلها بعده. وفي جو المؤامرات والاغتيالات انقطع حبل التوازن وأخذ ميزان الدولة يميل إلى التدهور، وتعاقبت أشكال الثورات والصراعات الداخلية مدة قرن، فقدت فيها الإمبراطورية الكبرى كل معاني القوة، ولم تعد تمثل سوى واجهة مزعزعة الأركان، إلى حدٍّ بات يؤذن بالانهيار أمام القوة النامية الجديدة التي ظهرت بعد انتظار في العالم الهليني[2].

كان فيليب الثاني المكدوني، بعد تحقيقه نجاحات سياسية وعسكرية كثيرة في اليونان، قد وضع خططاً لإخراج الفرس من آسيا الصغرى. لكن لم يتسنَّ له تنفيذها،

1- نفس المرجع، ص 144.

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 89.

حيث أنه قتل اغتيالاً في سنة 366ق.م، فأخذ ابنه الإسكندر على عاتقه هذه المهمة، ولم يكن قد تجاوز سن العشرين بعد.

جهز الإسكندر جيشاً متوسط العدد، تراوح ما بين الثلاثين والأربعين ألفاً. وسار على رأسه في سنة 334 ق.م متقدماً في آسيا الصغرى ومجتازاً المضائق الجبلية الكيليكية والسهول الممتدة شمال شرقي خليج «ايسوس issos» - الذي سمي إسكندرون فيما بعد - حيث كان داريوس الثالث، مع جيش يقارب تعداده المئة ألف، قد تمركز هناك. وفي المعركة التي جرت سنة 333ق.م حقق الجيش اليوناني نصراً ساحقاً، وهرب داريوس نفسه مع شتات جيشه باتجاه الشرق. وقد خلد ذلك الانتصار بتأسيس مدينة على ذلك الخليج دعيت الإسكندرية، ثم غلب فيما بعد اسم إسكندرونة/ إسكندرون.

نتيجة معركة ايسوس أصبحت بلاد الشام كلها مفتوحة أمام الإسكندر، فوجه قائده «بارمينيو» لاحتلال دمشق؛ حيث كان مقر قيادة الفرس، وتابع هو تقدمه على طول الشريط الساحلي؛ حيث خضعت له كل المدن بسهولة، باستثناء صور زعيمة المدن الساحلية التي تحدت سابقاً أقوى ملوك آشور وبابل. فضرب عليها الإسكندر حصاراً مريراً دام سبعة أشهر، لم تتلق المدينة فيها مساعدة من المدن الأخرى، فسقطت بيده في سنة 332ق.م، وكان انتقامه من السكان قاسياً[1].

أثناء حصار صور، قدم له الملك الفارسي داريوس عرضاً مغرياً يتنازل له فيه عن كل غربي الفرات (بلاد الشام بكاملها) وأن يعطيه فوق ذلك مالاً كثيراً ويزوجه ابنته. فكان أن رفض الإسكندر هذا العرض، واستكمل إخضاع كل الساحل الجنوبي. وقد تخلل ذلك حصار لمدينة غزة التي صمدت حوالي شهرين. وبعد الانتهاء منها تابع الإسكندر إلى مصر، ودخلها دون حرب تذكر. وهناك أسس المدينة التي بقيت تحمل اسمه إلى اليونان (الإسكندرية). بعد أن تم له انتزاع بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى من يد الفرس، عاد الإسكندر في أوائل سنة 331 ق.م باتجاه الشمال (سهل البقاع ثم سهل الغاب) ثم تحول باتجاه الشمال الشرقي إلى الفرات. فعبر الجزيرة السورية العليا، ثم عبر نهر دجلة عند نينوى على مقربة من الموصل، متقدماً باتجاه الشرق. وفي منطقة سهلية غير بعيدة عن أربيل جرت معركة فاصلة أنزل فيها

1- د. عبد الله الحلو: صراع الممالك في التاريخ السوري القديم، الناشر: بيسان للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 1، 1999، ص 231- 232.

الإسكندر هزيمة منكرة بآخر جيش فارسي كبير في بداية شهر تشرين الأول سنة 331ق.م هرب فيها داريوس الثالث للمرة الثانية وتشتت جيشه. فأصبح الطريق مفتوحاً أمام الإسكندر إلى بابل وبلاد فارس. بعد ذلك مباشرة كان هدفه مدينة بابل المقر الرئيسي لحكومة الفرس، فدخلها دون مقاومة، والأكثر من ذلك أن كهنتها ومن كان فيها من موظفين فرس رحبوا به بحماس واستقبلوه بالهدايا. واعتبره الفرس ملكهم الجديد. وكان الملك الفارسي قورش قبل حوالي مئتي سنة قد دخل بابل أيضاً بمثل هذه السهولة.

ولم ينقض وقت طويل أي عام 330ق.م حتى كان الإسكندر قد اكتسح كل المناطق الفارسية الممتدة من سوسه (المقر الصيفي للملوك وعاصمة عيلام القديمة) وبرسيبوليس في الجنوب إلى إكبتانا عاصمة ميديا في الشمال (وهي همذان فيما بعد). في تلك الأثناء اغتيل داريوس الثالث وهو في معسكره. وانتهت معه سلالة الملوك الأخمينيين التي اعتبر الإسكندر نفسه وريثها الشرعي[1].

وهكذا حلَّ نظام جديد هو إمبراطورية الإسكندر المكدوني. ثم ترسخت قواعد هذا الغزو بتأسيس أسرات حاكمة هيلينية ورثت عروش الشرق القديم: الأسرة السلوقية في سورية وبابل، والأسرة البطلمية في مصر. أما ثمرة هذه التغيرات التي شهدها العالم القديم في أواخر القرن الرابع ق.م. فهي ظهور حضارة جديدة لها ثقافة جديدة هي مزيج من تفاعل ثقافات الشرق والغرب في العصر الذي يعرف بالعصر الهلنستي. لقد امتد هذا العصر على ما يزيد من نصف قرن، وشكَّل في العالم الإيراني مرحلة انتقالية قصيرة، قبل أن تنتزع أسرة حاكمة إيرانية أخرى هي الأسرة الفرثية السيادة على أجزاء كبيرة من الإمبراطورية: السلوقية التي انكمشت واقتصر نفوذها على مناطق من سورية وآسيا الصغرى.

امتزاج الشرق والغرب:

لعل أعظم مأثرة قدمها الإسكندر للتاريخ هي في إتاحته الفرصة لامتزاج الأفكار والمؤسسات اليونانية والشرقية. وكانت عملية التداخل الثقافية قد بدأت قبل عهده، إلا أن فتوحاته زادت في سرعتها وسهلتها. وقد أعطى بنفسه مثالاً على مزج الدم اليوناني والآسيوي بزواجه من الأميرة روكسانا من بكتريا (بلخ) واثنتين غيرها من

1- المرجع السابق، ص 232- 233.

الأسرة الملكية الفارسية في سوسه. وشجع ضباطه وجنوده ليحذوا حذوه. وكان يلبس في المناسبات الرسمية اللباس الشرقي. وأخذ ينغمس في عادات الفرس الناعمة المتخنثة ويقلد بذخ الملوك الآسيويين. وإنه لحدث عظيم في التاريخ عندما صلى الإسكندر في مأدبة حضرها تسعة آلاف مكدوني وفارسي على ضفاف دجلة لأجل وحدة القلوب ودولة مشتركة. وكان الأنبياء قبله قد تجاوزوا في خيالهم حدود القومية وتصوروا – مهما كان تصورهم ناقصاً – أخوة البشر. ولكننا الآن أمام أول رجل عملي عظيم حلم بمجتمع لا أثر للحواجز فيه بين اليونان والبرابرة، وعمل على تحقيقه.

ولم ينقطع تماماً ذلك الأمل البراق الذي ضمنه الفيلسوف الفينيقي زينون في «جمهوريته» عن أفكار الناس منذ ذلك الحين. كان إنشاء المدن، التي يروى أنها زادت عن السبعين، وسيلة أخرى في تحقيق سياسته المدروسة حول تقارب أوثق بين الشرق والغرب. وهدفت هذه المدن إلى ثلاثة أغراض وهي أن تكون مراكز سكنى للمحاربين المسرحين، وتشكيل سلسلة من النقاط العسكرية على خطوط المواصلات وخلق مراكز لنشر التأثير الثقافي الهليني.

ولا بد أن الإسكندر كان تلميذاً جديراً بأستاذه أرسطو، إذ كان يحتفظ كما يروى بنسخة من إلياذة هوميروس تحت وسادته. ويقال إنه ذكر في رسالة بعث بها من آسيا إلى أستاذه أرسطو: أؤكد بالنسبة إلي أنني أفضلّ أن أتفوق على الآخرين في معرفة الأحسن، من أن أتفوق عليهم في مدى سلطتي وممتلكاتي». وسرعان ما أصبحت اليونانية لغة العلم. وعندما أتى المسيح برسالته بعد ثلاثة قرون وترجمت إلى اللغة اليونانية، أصبحت في متناول العالم المتمدن كله[1].

تجزؤ الإمبراطورية:

تمزقت الإمبراطورية المكدونية المترامية الأطراف التي تمَّ ضمها بسرعة بعد موت مؤسسها. وتسابق قواد الإسكندر للفوز بأحسن أقسامها. وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية. ويبرز من هذه الفوضى أربعة قواد على رأس أربع دول: بطليموس في مصر، وسلوقس في مرزبانة بابل، وانتيغونس في آسيا الصغرى، وانتباتر في مكدونيا. وهكذا «انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه أربعة قرون عظيمة تتجه

1- د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج 1، ترجمة د. جورج حداد و د. عبد الكريم رافق، دار الثقافة – بيروت 1982، ص 258- 259.

نحو رياح السماء الأربع» كما يقول بلوتارخ. وكان بطليموس أكثر هؤلاء الأربعة ذكاءً، إلا أن سلوقس كان بالتأكيد أقدرهم[1].

المملكة السلوقية:

تحالف سلوقس مع بطليموس ضد أنتيغونس، وبعد حروبهما ضده، وانتصارهما عليه، نال بطليموس فلسطين التي ضمها إلى مملكة البطالمة في مصر، في حين أن سلوقس استرجع بابل.

وفي معركة ابسوس IPSOS ضد أنتيغونس أحرز سلوقس انتصاراً هاماً، حقق له الفوز بالقسم الشرقي من آسيا الصغرى وسورية، فشكل مملكة واسعة تعتبر من أعظم ممالك المكدونيين التي ظهرت على أنقاض إمبراطورية الإسكندر.

أعجب ملك سورية (سلوقس نيكاتور) بسياسة قائدة الإسكندر، واعتبر بناءه لمدينة (الإسكندرية) عملاً هاماً جديراً بمتابعته، فبنى سلوقس مدناً جديدة حملت اسمه (مثل السويدية) واسم أبيه أنطيوخس (مثل أنطاكية) واسم زوجته الآسيوية (أفاميا) واسم أمه لاوديسة (مثل اللاذقية).

وكان سلوقس يعتقد بأن البلاد تنطبع بالطابع الإغريقي بقدر ما يبنى فيها من مدن حديثة. وكان يقيم في هذه المدن الحديثة جنود قدماء من مكدونيين ويونان. وكان الحكام يعتمدون على هؤلاء في إدارة البلاد ومراقبة السكان أصحاب البلاد، ما جعل لهذه النهضة العمرانية أهدافاً سياسية، ومآرب استعمارية، وغايات ثقافية[2].

ولا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من المدن التي اعتبرت حديثة، لم تكن في الواقع سوى مدن قديمة أُعيد بناؤها أو اقتصر على تغيير اسمها فقط.

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن اعتبار أنطاكية واللاذقية وأفاميا ودورا أوروبس مدناً حديثة أنشت في العصر الهلنستي، فازدهر فيها الفن حتى غدت مراكز رئيسة للثقافة والفنون[3].

1- نفس المرجع، ص 260.

2- نفس المرجع ص 261.

3- بشير زهدي: الفن الهلنستي والروماني في سورية، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ص 10.

وأقيمت مدن يونانية في إيران، ومنها أنطاكية في فارس وهي بوشير ولاوديقية وهي نهاوند. وأطلقت أسماء يونانية على معظم المدن القديمة. وكان لهذه المدن تأثير عميق في طبيعة النظام السلوقي، وخاصة في المناطق التي كان فيها وجود هذه المدن - المستعمرات كثيفاً كالأناضول مثلاً وفي شمال سورية؛ حيث أثرت تأثيراً عميقاً في حياة السكان الأصليين وفي الحياة اليومية المدنية. ولكن عمق التأثير الهليني في العالم الإيراني كان أقل منه في المناطق الغربية الواقعة على شواطئ المتوسط، كما في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر.

إيران في العصر السلوقي:

لم يغير المستعمرون اليونانيون شيئاً كثيراً من النظام الاجتماعي القائم، ولكنهم أقاموا إلى جواره مدنهم ومستعمراتهم لممارسة الحرف والصنائع، وللتبادل التجاري بالتعاون مع الطبقة السائدة في المنطقة وزعمائها. وبقيت هذه الجالية اليونانية مرتبطة بالمجتمع الإيراني حتى بعد ثورة الفرثيين الذين كانوا يسيطرون على مناطق تقع إلى الشرق والجنوب من بحر قزوين. وظلت هذه الجالية، بعد انفصال الفرثيين عن الإمبراطورية السلوقية واستقلالها بمناطق واسعة من شرقي إيران، في أداء دورها بنشر الثقافة الهلينية على أبواب الهند وفي قلب آسيا حتى سقوطها وتشتتها عند دخول موجات من البدو الإيرانية إلى مناطق باكتريان في أواخر القرن الثاني ق.م. وبدخول هذه الموجات البدوية الإيرانية، اكتسب العنصر الإيراني قوة بشرية، ساعدت على تأسيس مملكة جديدة هي المملكة الفرثية بزعامة أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الارشاقية. وقد عملت هذه الأسرة على اقتلاع النفوذ الهليني، ثم الصمود أمام التوسع الروماني. وقد قامت الدولتان في العصرين الفرثي ثم الساساني بهذا الدور قرابة ثمانية قرون، ووقفت بوجه السياسة التوسعية للإمبراطوريات التي قامت على الحدود الغربية للعالم الإيراني وهي السلوقيون ثم الرومان ثم البيزنطيون.

واستمر هذا الموقف حتى قيام الدولة العربية الإسلامية، التي دخل العالم الإيراني في إطارها، واندمجت ثقافته بثقافتها قروناً عديدة حتى الغزو المغولي. وعندما حاول سلوقس الثاني (246-226) العمل على مواجهة الموقف في الجبهة الشرقية، دفع الفرثيين إلى التراجع أمامه بعد أن اخترق خطوطهم بنجاح باهر. ولكن خططه انقلبت رأساً على عقب، عندما وصلت إليه أنباء عن أحداث خطيرة وقعت في

غيبته في العاصمة أنطاكية، فقفل راجعاً إلى سورية بعد أن تخلى عن خططه على الجبهة الشرقية. وقد منح هذا الظرف الدقيق الفرثيين فرصة تاريخية لإحراز انتصار سهل حين تمكنوا دون مقاومة تذكر من بسط سيطرتهم على معظم المناطق الإيرانية الشرقية. وهكذا انتقلت السيادة على إيران لأول مرة منذ سقوط الأسرة الأخمينية إلى أسرة إيرانية هي الأسرة الأرشاقية كما ذكرنا[1].

تبدت مظاهر التنازع بين الثقافة الفارسية القديمة والثقافة الهيلينية الوافدة على الصعيد اللغوي. فإلى جانب الفارسية والآرامية في المناطق الإيرانية، بقيت اللغة اليونانية لغة التعليم في المدن اليونانية حتى بعد قيام الدولة الفرثية، وتراجعت الإمبراطورية السلوقية عن كثير من الأقاليم الإيرانية. وأمام تعدد الثقافات صارت بعض المجتمعات مزدوجة اللغة. وكان التأثير الثقافي اليوناني عميقاً، إلى حدٍّ أن اليونانية بقيت لغة متداولة في المدن الإيرانية إلى جانب الفارسية البهلوية في العصر الفرثي، كما تدل على ذلك الكتابة اليونانية على العملة الفرثية[2].

الدولة الفرثية:

نشأت دولة الفرثيين من قبيلة بارني parni إحدى قبائل البدو التي كانت تعيش في المراعي الممتدة بين بحر قزوين وبحر آرال. وكان هؤلاء الناس فرساناً ومحاربين أشداء. والظاهر أن هذه الدولة بدأت في الظهور نحو 250ق.م، وقد قامت بين البارثيين وبين السلوقيين منازعات وحروب، انتهت بانتصار البارثيين، وأصبحت دولتهم تمتد في عهد ميترايداتس mithridates المتوفى سنة 137ق.م من نهر الفرات إلى هراة (الواقعة في أفغانستان الآن). ورغم أن دولة البارثيين كانت دولة إيرانية، إلا أنها كانت متأثرة بالحضارة اليونانية، والثقافة اليونانية. وكانت في أنحاء هذه الدولة مدن يونانية تنتقل منها آثار اليونان الثقافية والاجتماعية إلى أنحاء أخرى.

وقد دارت بين هذه الدولة وبين الدولة الرومانية - التي كانت في ذلك الوقت دولة فتية - منازعات وحروب كثيرة، ولكن لم تستطع إحداهما القضاء على الأخرى. وكانت أرمينيا أهم المناطق التي كثر تنازع الدولتين عليها[3].

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها، ص 120-121.

2- نفس المرجع، ص 129-130.

3- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 169.

انقسم المشرق القديم بين القوتين القائمتين في المنطقة: روما من جهة، وفرثيا من جهة أخرى، اللتين تواجهتا على امتداد جبهة طويلة، كان الفرات واجهتها الاستراتيجية. وبعد أن قامت الحملات الفرثية على سورية في القرن الأول بقيادة أورود الثاني، لم تستطع الحملات الرومانية التي تتالت بقيادة ترايانوس وسيفروس في القرنين الأول والثاني عبر الفرات على مناطق الجزيرة العليا وأرمينية، أن تغير من ميزان القوى بين الدولتين على هذه الجبهة، رغم استيلاء الرومان على نينوى العاصمة الآشورية السابقة لجعلها رأس جسر لتوسعهم على نهر دجلة وأعالي الرافدين. فقد تمتع الفرثيون بقوة عسكرية كبيرة، تجلت في جيوشهم الضخمة التي كانت تضم فرقاً وكتائب من رماة السهام ومن الفرسان الخفاف والثقال المدرعين بالزرد والحديد.

في هذه المواجهة بين الحضارات على أرض الشرق القديم تراجعت الهلينية في الأقاليم التي يسيطر عليها الفرثيون لانقطاعها عن البحر المتوسط، بسبب الصراع الروماني - الفرثي. وبقي الوضع سجالاً بين الطرفين طوال قرن ونصف القرن، دون أن يكون في إمكان الملوك الفرثيين تغييره.

استردت بابل مكانتها القديمة بوصفها عاصمة الإمبراطورية، وبنيت إلى جانبها طيسفون (المدائن) ولكن المدن اليونانية احتفظت بطابعها الهليني وسط حضارة الشرق القديم مثل سلوقية على نهر دجلة. ومما كانت له دلالته انتقال العاصمة الفرثية من أقصى الشرق إلى طيسفون.

تطورت اللغة الإيرانية الفارسية بتأثير الآرامية إلى اللغة البهلوية. ورغم عودة الثقافات المحلية وانبعاثها بعد الانتصار المرحلي للهلينية، فإن نزاع الفرثيين العنيف مع الدولة السلوقية لم يكن يعني انحسار الثقافة الهلينية عن العالم الإيراني. فقد أعلن الملوك الفرثيون تمجيدهم للثقافة الهلينية كما فعل ميترايداتس الذي دعا نفسه (بفيلهيلين) أي محباً للهلينية، وأحاط نفسه بالفنانين والممثلين اليونانيين.

ومن جهة أخرى، ورثت الدولة الفرثية التقاليد التجارية الدولية للعصرين الأخميني والسلوقي. فقد اجتمعت في خزائن الملوك الفرثيين أموال وفيرة من المكوس والأتاوات المفروضة على الطرق الوحيدة للتجارة البرية ما بين الصين والهند من جهة، وحوض البحر المتوسط من جهة أخرى. وبعد الغزوات والغارات المتبادلة تحركت قوافل فرغانة التجارية نحو الصين لجلب الفرو والحرير والمصنوعات الحديدية

والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة. ونجمت عن هذه الاتصالات تبادلات واسعة وعلاقات متصلة عبر العصور. ولم يفد الملوك وحدهم من هذه المبادلات، وإنما عملت على تنمية طبقة من التجار والوكلاء والوسطاء من اليونانيين والفرثيين وغيرهم. ويبدو الطابع المزدوج للهوية الحضارية في العصر الفرثي في أسماء الأعلام، فإنه من المألوف أن نجد ضمن الأسرة الواحدة من يحمل أسماء يونانية وآخرين يحملون أسماء إيرانية. حتى الآلهة وعرفت بالأسماء مزدوجة، فقد دعي (زوس) أهورامزدا، و (هيلوس) = الشمس ميترا. وهكذا برهنت الحضارة الإيرانية على قدرتها في التفاعل الإيجابي مع الحضارات الأخرى في العصر الأخميني وعلى مزاياها في التلاؤم مع الشرط التاريخي الثقافي في العصر الفرثي. وهكذا بقيت للثقافة الهلينية جذور وقواعد ظلت تتغلغل وتعلو وتنتشر في أواخر العصر الساساني ثم في الحضارة العربية الإسلامية[1].

الساسانيون:

كان إقليم فارس موطن انبعاث الحضارة الإيرانية من جديد في القرن الثالث الميلادي. فقد أقام الساسانيون في ذلك القرن دولة إيرانية الطابع ذات دين قومي هو الدين الزرادشتي. وكذلك أقاموا حكومة مركزية قوية، استطاعت أن تكبح جماح الحكام الإقطاعيين، كما جندوا جيشاً قوياً مدرباً، وأنشأوا نظاماً إدارياً محكماً. وبظهور الدولة الساسانية على مسرح التاريخ، أصبح العالم في ذلك الوقت تتنازعه قوتان هما روما وإيران.

بعد تدهور الأسرة الأرشاقية الفرثية في مطلع القرن الثالث الميلادي، نهضت إيران على أيدي أسرة حاكمة جديدة كانت آخر الأسرات المالكة في تاريخها القديم وهي الأسرة الساسانية.

كان ساسان جد هذه الأسرة كاهناً في معبد الربة أباحيتا في اصطخر، وقد استولى ابنة بابل الذي خلف أباه في سدانة المعبد على السلطة في إقليم فارس في جنوب غربي إيران، وأعلن انفصاله في نحو 208م عن الملك الغربي المقيم في عاصمته طيسفون (المدائن). وبعد أن تزوج بابل ابنة أحد الأمراء المحليين في فارس، ادعت الأسرة الساسانية انتماءها إلى البيت الأخميني القديم صاحب الحق التاريخي بالعرش الفارس، بينما أنكرت الأسرة الارشاقية هذا الانتماء.

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 137-138.

وبعد صراع مرير، استطاع هذا البيت المالك الجديد تأسيس دولة ضمت معظم إيران، وقامت على قاعدة اجتماعية لها ثقافة متميزة وديانة خاصة وتاريخ طويل. لقد كان الساسانيون يحاولون أن ينفذوا سياسة خارجية أساسها القوة والمحافظة على دولتهم، ولذلك فقد وقعوا في حروب كثيرة، فكانوا يحاربون الرومان في الغرب والبدو الآسيويين على الجبهة الشرقية، وكان عليهم مواجهة المشكلة الأرمينية. ثم هناك بعد ذلك القادة العسكريون الذين تنازعوا السلطان فيما بينهم حين ضعف الملوك، وكذلك المؤامرات التي كانت تحاك حول العرش... وكان على الإيرانيين خوض سلسلة من الحروب، امتدت أربعة قرون ما بين القرنين الثالث والسابع، دون أن تتمكن الدولة دائماً من تحقيق نصر حاسم أو الوصول إلى توازن مع الجانب الآخر الروماني ثم البيزنطي. وقد سهلت هذه الأمور مهمة العرب الذين ظهروا على مسرح التاريخ، بعد أن وحد الإسلام بينهم، فسددوا ضربة إلى دولة الفرس قضت عليها[1].

تطورت الدولة الساسانية من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية كبرى، فقد استطاع أردشير الأول (226-241م) حفيد ساسان القضاء على أرطبان الخامس في ميدان المعركة، وأخضع العاصمة سلوقية - طيسفون (المدائن فيما بعد) وضم إلى ملكه مناطق أخرى. وتوج ملكاً للملوك في 226م وعلى الرغم من تدخل مملكة الكوشان الواقعة في الشمال الغربي من الهند (البنجاب وجنوبي أفغانستان) لمساعدة الأسرة الفرثية، فقد استطاع أردشير إحراز نصر على المتدخلين وأوقف تحركات الرومان الذين حاولوا استغلال الظروف، وهكذا دخل تاريخ إيران في طور جديد. وظهرت الدولة الجديدة وكأنها وريثة العصر الأخميني وتقاليده القديمة.

ثم جاء شابور الأول وقد ورث من أبيه أردشير دولة بقي فيها كثير من نظم البارثيين، وفي مقدمتها نظام الإقطاع، ولكن الساسانيين نظموا هذا الإقطاع، بأن أخضعوه لقدر كبير من الإدارة المركزية. وقد قامت هذه الدولة على دعامتين قويتين، هما الجيش المنظم والإدارة الحازمة.

وجه شابور اهتمامه إلى الشؤون الخارجية منذ بدء حكمه. لقد ظهرت الدولة الكوشية مصدر خطر سياسي واقتصادي بالنسبة إلى الدولة الجديدة. وقد تقدم شابور لمحاربتها، يحدوه الأمل في تأمين حدوده الشرقية، وكذلك في الاستيلاء على

1- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 170.

الثروات التي تراكمت في هذه الدولة، نتيجة لازدهار تجارتها الخارجية. نجح شابور في إيقاع الهزيمة بالأسرة الكوشية، ووصل في غزواته إلى سمرقند وطشقند. وكان من نتائج هذا الغزو القضاء على الأسرة الكوشية، وإضافة قسم كبير من أملاكها إلى الدولة الساسانية، وإحلال أسرة موالية للفرس محل هذه الأسرة المغلوبة[1].

وبعد أن حقق شابور انتصاراً في الشرق، اتجه إلى الغرب، فوقعت بينه وبين الروم حروب، انتهت بفرضه جزية كبيرة وضم العراق وأرمينيا إلى أملاكه. وكان ذلك في عام 224م. وبعد خمسة عشر عاماً من هذا التاريخ، استؤنفت الحرب بين الفرس والروم، وانتصر الفرس انتصاراً باهراً بجوار الرها، ووقع الإمبراطور فاليريان أسيراً في قبضة شابور، وكذلك أُسر ألوف من الرومان، سيقوا إلى النفي في إيران؛ حيث استقروا في مدن بنيت على طريقة المعسكرات الرومانية، وذلك في عام 260م. وقد أمدَّ هؤلاء الإمبراطورية بالأخصائيين والمعماريين والمهندسين والفنيين الذين استخدموا على نطاق واسع في الأعمال العامة، وبخاصة بناء الجسور والقناطر والطرق التي سببت رخاءً عظيماً لإقليم خوزستان الغني. ومن العجيب أن بعض بقايا هذه المنشآت لا يزال يستخدم حتى يومنا هذا.

وإلى جانب فتوحاته العسكرية، فإن شابور أكمل ما بدأه أبوه من تنظيم داخلي للإمبراطورية، وكان واسع الاهتمام بالمعارف، ولذلك فقد أمر بترجمة كثير من المؤلفات اليونانية والهندية التي تتعلق بمختلف مسائل العلم كالطب والفلك والفلسفة. ولما كان هذا الإمبراطور مؤسساً لدولة واسعة، فقد اهتم اهتماماً كبيراً بـ (ماني) وديانته. وكان ماني هذا داعية آسيوياً، ظهر في إيران بمذهب جديد، اقتبست عناصره من الزرادشتية والمسيحية والبوذية. وكان يهدف من دعوته إلى توحيد العالم في ظل دين واحد. وقد اهتم شابور بهذا الدين وقرّب ماني وأيده. ولكن دعوة ماني، بما اشتملت عليه من حث على الزهد، وتنفير الناس من الاهتمام بالمادة، واعتبارها شراً لا بد من التخلص منه، جعلت هذا الدين عاجزاً عن الوفاء بحاجة دولة عظيمة، تقوم على أساس دنيوي مكين.

ولهذا فقد انعكس الحال بالنسبة إلى ماني بعد وفاة شابور (272م)، حيث اضطُهد، ثم قُتل أيام حكم بهرام الأول[2].

1- نفس المرجع، ص 172.

2- المرجع السابق، ص 172-173.

وهكذا، بينما كانت الإمبراطورية الرومانية تميل إلى الانحدار والانقسام، كان العالم الإيراني يتجه نحو الوحدة من خلال إنشاء مملكة قوية. ففي أيام أردشير وشابور أنشئت المدن الجديدة التي حملت اسميهما ومنها قصر بيشابور في فارس ونيسابور في فرثيا وجنديسابور في خوزستان. وربما كان هو أول من شيد الديوان.

أما شابور الثاني الذي حكم مدة طويلة (310-379م) فقد جعل من القرن الرابع عصره، ومضى في تعزيز أركان الدولة، فأحكم سيطرته على بلاد الكوشان، وأوقف غزو الهون الذين تحركوا من آسيا الوسطى، وردّ بنجاح الهجوم الذي قاده الإمبراطور الروماني يوليانوس عام 363م، ولكنه اضطر إلى قبول اقتسام أرمينية مع الرومان. وهكذا بلغت الدولة درجة كبيرة من القوة، ولكن الحدود الشرقية بقيت مصدر قلق، ولم تكن الحكومة المركزية على قدر كاف من المقدرة لإدارة إمبراطورية مترامية الأطراف، ثم ساعدت الاضطرابات الداخلية والصراعات الاجتماعية، خلال القرنين الخامس والسادس، على ترك البلاد تحت رحمة هجمات قبائل الهون المتكررة.

وبعد أن مرت البلاد في مرحلة حرجة من الصراع الفكري - الديني بين الزرادشتية التقليدية والمذاهب المنشقة عنها كالمانوية والمزدكية وغيرهما في أيام الملك قباذ (ما بين 488 و 531م) وما نجم عن ذلك من تطورات اجتماعية، شهدت الإمبراطورية الساسانية في القرن السادس نهضة جديدة على يدي خسرو (كسرى أنو شروان) (ذي النفس الخالدة) الذي امتد حكمه قرابة نصف قرن (531-579م)، وهو يعدُّ من أعظم عصور التاريخ الفارسي القديم[1].

استطاع هذا الملك القيام بحملة على سورية ودخول أنطاكية على العاصي عام 540م، فاضطرت بيزنطة إلى عقد الصلح. وبعد أن اطمأن كسرى إلى الجبهة الغربية التفت إلى الجبهة الشرقية، وحقق انتصاراً كبيراً على الهون، ودفع حدود إمبراطوريته إلى نهر أوخوس. وقد نجح العاهل الساساني لأول مرة في مدّ نفوذه على سواحل الجزيرة العربية، واستطاع بدخول اليمن وضع مصادر التجارة العربية تحت رحمته مستغلاً الظرف الدولي المواتي والانقسامات الداخلية في الجزيرة العربية. وجعل الملك عاصمته طيسفون (المدائن) التي توسعت وضمت مجموعة من المدن. وتحدثت الروايات الفارسية والعربية عن أخبار هذا العاهل الذي رعى العمران والآداب والعلوم وأفسح المجال لنقل ثقافات اليونان والهند والصين. ودخلت في معارف الفرس معارف

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 143-144،

الشعوب الأخرى في الطب والحساب. تسلم حكم الإمبراطورية بعده ابنه هرمزد الرابع (579-590م)، وتوالت بعد ذلك الأحداث في الأعوام الباقية من حكم الدولة الساسانية. وكان من أهم هذه الأحداث الصراع بين الفرس والروم في عصر إمبراطور الروم هرقل، وملك الفرس خسرو أبرويز. اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية هراقليوس (هرقل) (610-642م) واستطاع بسرعة تغيير الموقف على جبهة الروم، فبعد أن اخترق كيليكية، أوقع في جبهة الفرس هزائم فادحة على خطوط آسيا الصغرى وأرمينية، وتقدمت جيوش هرقل وهددت عاصمة الساسانيين (المدائن) ومقر كسرى الثاني بالحصار بعد معركة نينوى في 627. وفي خضم الصراعات الطاحنة والمؤامرات العاصفة مات كسرى الثاني اغتيالاً، تاركاً الدولة دون وريث قادر على تسلم العرش. وبدت هزيمة كسرى للمعاصرين سقوطاً مريعاً لأهورامزدا وللديانة الفارسية أمام المسيحية الصاعدة[1].

أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الروم)، فقد خرجت منهكة القوى من هذا الصراع الرهيب. وبدا وكأن الساحة الدولية في الشرق الأدنى قد خلت أمام القوة الناهضة الجديدة التي ظهرت في مطلع القرن السابع في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام. إذ تم للمسلمين فتح إيران عام 652م، وانتهى بذلك العصر الساساني، وبدأ عصر الدولة العربية والحضارة العربية الإسلامية.

الدولة والمجتمع في العصر الساساني:

لم يتمكن الساسانيون من إحداث تغيير جذري في تاريخ إيران القديم. وكل ما تمّ على أيديهم سياسياً، هو نقل السلطة الحاكمة من شمال إيران إلى جنوبي البلاد. لكن مركز الدولة الإمبراطورية بقي في مكانه كما كان في العصر الفرثي. فقد بقيت بابل هي العاصمة الثقافية التاريخية للشرق، لكن الضاحية الملكية طيسفون (المدائن) كانت مقر الأكاسرة.

وأبقى الساسانيون على النظام الإقطاعي للدولة، كما كان في العصر السابق بالنسبة إلى العلاقات الاجتماعية، لكنهم حاولوا إحلال نظام جديد للإدارة على درجة كبيرة من التطور في حينه، كان من شأنه إضعاف الأمراء المحليين لتقوية الإدارات الإقليمية للولاة (المرازبة) التابعين للسلطة المركزية. وأوجدت دواوين كثيرة

1- المرجع السابق، ص 145.

ألحقت بكبير الوزراء. وقد ترك هذا النظام الإداري بصماته في أنظمة الحكم في المنطقة لمدة طويلة.

عقدت الإمبراطورية الساسانية، خلال أربعة قرون التي امتد فيها حكمها، علاقات سياسية وحربية ودبلوماسية واقتصادية مع القوى المجاورة: روما والقسطنطينية والهند والصين. وكان الفرس القدماء صلة الوصل ما بين هذه الحضارات في تسهيل النقل والتفاعل ما بين الثقافات، والتبادل التجاري بين الشعوب، فعن طريقهم وصل حرير الشرق إلى الغرب، ووصلت إليه الأواني الفضية النفيسة. ودخلت في الأدب الفارسي مؤثرات من الآداب الهندية، وانتشرت حكايات وأخبار وحكم عن طريقهم في آداب الشعوب. وتفاعلت الأساليب الفنية في التصوير ما بين الصين وفارس. وفرضت على الفنانين موضوعات تمثل الملكية في صورة الألوهية على الأرض، وظهر الملك في هذه الرسوم بطلاً فاتحاً وصياداً ماهراً. وقد خلف العصر الساساني آثاراً معمارية شيدت من الحجارة والصخور ومنها القصور ومعابد النار والحصون والسدود، وقد تميزت هذه الأوابد بالقباب وأبهاء الاستقبال الواسعة وبالغرف العديدة التي أقيمت حول الإيوان. ومن أهم هذه القصور فيروز أباد، وبيشاور وقصر شيرين، ونقش رستم ونقش رجب. وفي هذه القصور وجدت رسوم ومنحوتات جدارية رائعة متميزة تصور حياة العصر والمواكب الاحتفالية الملكية والأزياء المختلفة المدنية والعسكرية ونماذج مختلفة من مظاهر حياة شعوب الإمبراطورية الساسانية الواسعة[1].

كان المجتمع الإيراني القديم قبل الإسلام مجتمعاً طبقياً، وكان الحكم وراثياً في الأسرة الساسانية. وينتقل العرش بالوراثة من الملك إلى أبنائه.. وما أن يجلس الملك على سدة العرش حتى يحاط بكل مظاهر الإجلال ومراسم الإكبار. وقد تحدثت المصادر الفارسية والعربية عن طراز الملوك وملابسهم وعن منحهم وأعطياتهم الوفيرة وإقطاعاتهم لرجال حاشيتهم الذين كانوا يتبارون في اكتساب مرضاتهم بالطرق الممكنة كلها. وكان كسرى يتصرف بأموال وفيرة جداً، فخزانته هي خزانة الدولة والأموال التي كان يجبيها عمال الخراج كانت تودع في خزائنه ينفق منها كيف يشاء على الجيش والأعوان. وتتحدث المصادر اليونانية المعاصرة عن التكوين القبلي للمجتمع الإيراني القديم، (ونجد ذلك عند هيرودوتس وكزينوفون) فتذكر أسماء

1- المرجع السابق، ص 146-147.

القبائل الإيرانية وتوزعها والمناطق التي استقرت فيها. وأهم هذه القبائل البازار كاديون في فارس وإليها تنتمي الأسرة الأخمينية. وإلى جانب الأسرات الحاكمة كانت لبعض الأسر مكانة متميزة بحكم موقعها من الأسرة المالكة والمجتمع.

وتذكر الأفستار (الأبستاق) أربع طبقات اجتماعية وهي: الكهنة، والمحاربون وهم من الفرسان، والرجالة، والعاملون من الحراث والصناع. وفي العصر الساساني ظهرت من هذه الطبقات الاجتماعية طبقة الكتاب ومنهم كتاب الرسائل والمحاسبون ومسجلو العقود، وإلى الكتاب ينضم الأطباء والشعراء والمنجمون.

ورجال الدين أنواع، فمنهم القضاة والزهاد والسدنة والمعلمون... وأمر الملك أردشير في مطلع العصر الساساني بتنصيب رئيس على كل طبقة اجتماعية. وعين معلمين صناعاً لتعليم كل فرد صنعة أو عملاً، وجعل للسدنة القائمين بالشعائر الدينية وللمعلمين والقضاة مرتبات من خزانة الدولة. أما أبناء المحاربين فكانوا يدربون على حمل السلاح وآداب الحرب. وأما الكتاب فقد عني الملوك بتأهيلهم وبخاصة كتاب الرسائل منهم وأطلقوا عليهم لقب "تراجمة الملوك". وكان لأصحاب كل طبقة طراز خاص من اللباس يعرف به بحسب مراتبهم[1].

الأديان والعقائد في العصر الساساني:

قامت الدولة الساسانية بإحياء الزرادشتية، وأعادت إليها قوتها، وجعلتها دين الدولة الرسمي. ففي عصر هذه الدولة جمعت نصوص الأفستا من جديد، وسادت الزرادشتية من جديد نحو أربعة قرون. ولكن الفتح العربي الإسلامي الذي وقع في عام 651م كاد يقضي عليها، فأسلمت الكثرة الغالبة من سكان إيران، وفرَّ بعض أتباع الدين الزرادشتي إلى الهند؛ حيث بقوا على دينهم، وسموا هناك بالبارسيين نسبة إلى وطنهم الأصلي فارس.

لم يخلُ تاريخ الزرادشتية في العصر الساساني من اضطرابات داخلية، فمنذ ظهور المسيحية في الغرب، بدأت تظهر في فارس حركات ترمي إلى المزج بين الديانتين، وكان أهم هذه الحركات حركة مرقيون وحركة ابن ديصان. وجاءت بعدهما حركة أكبر منهما وأخطر هي حركة ماني، وقد سعى هذا إلى توحيد العالم في ظل

1- المرجع السابق، ص 149-150.

ديانة واحدة، فدعا إلى دين يتكون من عناصر من الأديان السائدة في عصره وهي: الزرادشتية والمسيحية والبوذية.

وتعتبر كتب التاريخ الإسلامي من أهم المصادر التي ذكرت هذه الحركات الدينية. وفيما يلي بعض ما كتبه البيروني عن مرقيون وابن ديصان وماني. يقول:

«نعود الآن فنقول إن الفرس كانوا يدينون بما أورده زرادشت من المجوسية، لا يفترقون فيها ولا يختلفون إلى ارتفاع عيسى، وتفرق تلامذته في الأقطار المختلفة للدعوة. وإنهم لما تفوقوا في البلاد وقع بعضهم إلى بلاد فارس، وكان ابن ديصان ومرقيون ممن استجاب، وسمعا كلام عيسى وأخذا منه طرفاً. واستنبط كل واحد من كلا القولين مذهباً يتضمن القول بقدم الأصلين. وأخرج كل واحد منهما إنجيلاً نسبة إلى المسيح وكذب ما عداه. وزعم ابن ديصان أن نور الله قد حل في قلبه. ولكن الخلاف لم يبلغ بحيث يخرجهما وأصحابهما من جملة النصارى. ولم يكن إنجيلاهما مباينين في جميع الأسباب لإنجيل النصارى، بل زيادات ونقصان وقع فيهما والله أعلم.

ثم جاء من بعدهما ماني تلميذ فادرون، وكان عرف مذهب المجوس والنصارى والثنوية، فتنبأ وزعم في أول كتابه المكرسوم بالشابرقان - وهو الذي ألفه لشابور بن أردشير أن الحكمة والأعمال هي التي لم يزل رسل تأتي بها في زمن دون زمن، فكان مجيئهم في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو البد (بوذا) إلى بلاد الهند، وفي بعضها على يدي زرادشت إلى أرض فارس، وفي بعضها على يدي عيسى إلى أرض المغرب. ثم نزل هذا الوحي، وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يدي ماني رسول إله الحق إلى أرض الشرق، وذكر في إنجيله الذي وضعه على حروف الأبجد الاثنين والعشرين حرفاً أنه الفارقليط الذي بشر به المسيح، وأنه خاتم النبيين وأخبر عن كون العالم وهيأته بما يضاد نتائج البراهين والدلالات. ودعا إلى ملك عوالم النور والإنسان القديم وروح الحياة، وقال بقدم النور والظلمة وأزليتهما. وحرّم ذبح الحيوان وإيلامه، وإيذاء النار والماء والنبات على أبلغ وجه. وشرع نواميس يفترضها الصديقون وهم أبرار المانوية وزهادهم على أنفسهم من إيثار المسكنة وقمع الحرص والشهوة، ورفض الدنيا والزهد فيها، ومواصلة الصوم، والتصدق بما أمكن، وتحريم اقتناء شيء خلا قوت يوم واحد ولباس سنة، وترك الزواج، وإدامة التطواف في الدنيا للدعوة والإرشاد. ورسوماً أخرى يفرضونها على السماعين، أعني أتباعهم والمستجيبين لهم من المختلطين بالأسباب الدنيوية من التصدق بعشر الملك، وصوم

سبع العمر، والاقتصار على امرأة واحدة، ومواساة الصديقين وإزاحة عللهم. وكانت ولادة ماني في بابل في قرية تدعى مردينو، وجاءه الوحي وهو ابن ثلاث عشرة سنة. ولما ظهر كثر مصدقوه وأتباعه، وألف كتباً كثيرة كإنجيله والشابرقان وكنز الأحياء وسفر الجبابرة وسفر الأسفار، ومقالات كثيرة زعم فيها أنه بسط ما رمز به المسيح. ولم يزل أمره يزداد أيام أردشير وابنه شابور وهرمز ابنه إلى أن ملك بهرام بن هرمز فطلبه حتى وجده وقال: إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم، فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده. فالمشهور من حالة أنه قتله، وحشاه تبناً، وعلقه من باب مدينة جنديسابور. ويعرف إلى زماننا هذا بباب ماني. وقتل خلقاً ممن استجاب له. وبقي من مستجيبيه بقايا منسوبة إليه، متفرقة الديار لا يكاد يجمعهم موضع واحد في بلاد الإسلام إلا الفرقة التي بسمرقند المعروفة بالصابئين. فأما خارج دار الإسلام فإن أكثر الأتراك الشرقية وأهل الصين والتبت وبعض الهند على دينه ومذهبه. وهم في أمره على قولين: فرقة تقول إنه لم يكن لماني معجزة، وتحكي أنه أخبر بارتفاع الآيات عند مضي المسيح وأصحابه. وأخرى تزعم أنه كان ذا آيات ومعجزات، وأن سابور الملك آمن به حين رفعه مع نفسه إلى السماء ووقفا بينها وبين الأرض في الهواء، وأراه بذلك الأعجوبة، قالوا وإنه كان يصعد من بين أصحابه إلى السماء فيمكث فيها أياماً ثم ينزل إليهم»[1].

وقد كان ظهور مرقيون نحو عام 142م، وظهور ابن ديصان نحو عام 172م أما ماني فقد كان بدء دعوته نحو عام 242م. وقتل حوالي 273 أو 274م.

ولقد بدأت الثنوية تظهر غرباً في تعاليم الغنوصيين hnostics (العارفين) الذين بلغت حركتهم درجة من الأهمية في أوائل القرن الثاني الميلادي، وبلغت أقصى قوتها في الربع الثالث من ذلك القرن، ثم أخذت بعد ذلك في الضعف. وقد قالت هذه الدعوة بعالم للخير وعالم للشر.

وتجلت الثنوية بحركة مرقيون. وكان هذا رجلاً غنياً يملك السفن. ولد وثنياً ونشأ نشأة وثنية، ثم اعتنق المسيحية، وذهب إلى روما عام 140م، وهناك حاول أن ينشر مذهبه الذي كان يتنافى مع تعاليم الكنيسة في روما، ولكنه لقي معارضة شديدة من جمهور المسيحيين، وفُصل من الكنيسة، فأسس مذهباً جديداً نحو عام 144م، ونمت جماعته في السنوات العشرين التي تلت ذلك، وأسست كنائس تدين لها

1- البيروني: الآثار الباقية ، 207-209.

بالتبعية في شرق الإمبراطورية وغربها. وخلاصة دعوة مرقيون أنه جاء بثنوية تنافي المسيحية، خلاصتها أن هناك إلهين، إلهاً صارماً يمثل القانون هو إله اليهود خالق الدنيا، وإلهاً للخير والمحبة هو إله يسوع المسيح، وهو أسمى من إله التوراة.

فهذا لون من الثنوية، ولكنها ليست مطابقة لثنوية الفرس، وإن كان من الواضح تأثرها بها.

ماني:

إن ماني هو أكثر الدعاة الدينيين إساءة لعقيدة الثنوية. فلننظر كيف يصور ابن النديم عقيدة ماني:

«قال ماني: مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة، كل واحد منهما منفصل عن الآخر. فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد، وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء: الحكم والعلم والعقل والغيب والفطنة. وخمسة أخر روحانية وهي الحب والإيمان والوفاء والمروءة والحكمة. وزعم أنه بصفاته هذه أزلي ومعه شيئان اثنان أزليان، أحدهما الجو والآخر الأرض. قال ماني: وأعضاء الجو خمسة الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة. وأعضاء الأرض النسيم والريح والنور والماء والنار. والكون الآخر هو الظلمة وأعضاؤها خمسة: الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة. قال ماني: وذلك الكون النير مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما. والنور يلقى الظلمة بصفحته، ولا نهاية للنور من علوه ولا يمنته ولا يسرته. ولا نهاية للظلمة في الأسفل ولا في اليمنة ولا في اليسرة»[1].

ولقد قامت حرب بين كون النور وكون الظلمة، فامتزجت حبات من النور بحبات من الظلمة، فتكون منها عالم الدنيا. «فخالط الدخان النسيم فمنهما هذا النسيم الممزوج، فما فيه من اللذة والترويح عن النفس وحياة الحيوان فمن النسيم. وما فيه من الهلاك والإيذاء فمن الدخان. وخالط الحريق النار فمنها هذه النار، فما فيها من الإحراق والهلاك والفساد فمن الحريق، وما فيها من الإضاءة والإنارة، فمن النار. وخالط النور الظلمة، فمنها هذه الأجسام الكثيفة، مثل الذهب والفضة وأشباه ذلك، فما فيها من الصفاء والحسن والنظافة والمنفعة فمن النور، وما فيها من الدرن والكدر والغلظ والقساوة فمن الظلمة. وخالطت السموم الريح، فما فيها من المنفعة

1- الفهرست، ص 329.

واللذة فمن الريح، وما فيها من الكرب والتعوير والضرر فمن السموم. وخالط الضباب الماء فمنها هذا الماء، فما فيه من الصفاء والعذوبة والملاءمة للأنفس فمن الماء، وما فيه من التغريق والتخنيق والإهلاك والثقل والفساد فمن الضباب»[1].

ويصور الشهرستاني ثنوية ماني الصريحة بقوله: «زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم. وزعم أنهما لم يزالا قويين حساسين، داركين سميعين بصيرين، وهما - مع ذلك - في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفي الخير متحاذيان، تحاذي الشخص والظل»[2].

وتختلف المانوية عن الزرادشتية في نظرتها إلى الحياة الإنسانية والسلوك الإنساني. وأهم وجوه هذا الخلاف بين المانوية والزرادشتية ما يلي:

أولاً - أن ماني قد اعتبر المادة مصدر الشر، وبذلك أوصى بقتل رغبات الجسد، إذ أنه من أصل مادي، وبذلك كانت رغباته شراً يجب القضاء عليه. ومن الخير للإنسان - في رأيه - أن يفرَّ من العالم، وينقطع في مكان موحش لا تصله فيه الآلام أو المسرات، ولا تعكر صفوه فيه رغبات هذا العالم. أما الزرادشتية الأصلية فهي تدعو إلى التحكم في رغبات الجسد وتنظيمها، وليس كبتها والقضاء عليها. وقد شرَّع زرادشت للروح والجسد معاً. فالمادة في نظر زرادشت ليس من المحتم أن تكون شراً، وحياة الجسد ليس معناها بالضرورة موت الروح.

ثانياً - اعتبر ماني الرهبنة أعظم الفضائل، ودعا الصدِّيقين من أتباعه إلى نبذ الزواج، فهو في نظرة يعوق الإنسان عن التوجه بكيانه كله إلى ربه. إن الزواج يطيل عمر البشرية على هذه الأرض، وبذلك يؤخر من اليوم الذي يتحد فيه الروح الإنساني بربه. على أن ماني سمح بالزواج لعامة الناس الذين لا يستطيعون مقاومة رغباتهم، واعتبر ذلك شراً لا بد منه. وهذه التعاليم تناقض تعاليم زرادشت تمام المناقضة، فالزرادشتية لم تدع إلى الرهبنة في يوم ما، وحتى الموابذة (رجال الدين الزرادشتي) لم يدعوا إلى ذلك. أهورامزدا - كما يقول زرادشت - يفضل الرجل الذي يستمتع بحياة زوجية سعيدة على الرجل الذي يمارس الرهبنة. الزواج واجب ديني وواجب اجتماعي يوصي به الدين وتوصي به الدولة. ومساعدة رجل مسكين على الزواج كان يعدّ عملاً

1- نفس المرجع، ص 330.

2- الملل والنحل، ج 1، ص 224.

من أكبر أعمال الإحسان. ويروي هيرودوت أن ملوك الفرس كانوا يكافئون من ينجبون الكثير من الأولاد.

ثالثاً - دعا ماني إلى الصوم عن الطعام، وحضَّ عليه، باعتباره وسيلة لغفران الذنوب. وروي أنه أمر أتباعه بصوم ربع العام. وطريقة الصوم - كما أمر بها ماني - طريقة مضنية حقاً، إذ يبقى الإنسان فيها بدون طعام نحو يومين كاملين. ولم تدع الزرادشتية إلى الصوم، بل إن الزرادشتية تعدّ الصوم ونظائره من أعمال الزهد ذنوباً. وترك الطعام عمداً احتقار لنعمة أهورامزدا.

رابعاً: اعتبر ماني الفقر فضيلة، ودعا أتباعه إلى نبذ الممتلكات الدنيوية. فأما رجال الدين فقد دعاهم إلى الامتناع عن الحصول على أكثر من قوت يوم واحد، ولباس عام. فامتلاك متاع الدنيا يعدّ في نظر ماني استجابة للغرائز المنحطة في الإنسان. أما عند الزرادشتيين فليس هناك مانع من أن يكون الإنسان غنياً. ولا عيب على الإنسان إذا جمع ثروة كبيرة. ولكنه يصبح مذنباً إذا أساء استخدام هذه الثروة، أو تركها تطغى على روحه، وتجعلها مسخَّرة للمادة. حينذاك يكون الفقر خيراً منها.

لم يقدَّر للمانوية أن تعيش في إيران بعد قتل ماني، ولكنها انتشرت شرقاً وغرباً، فانتقلت إلى الصين، ثم إلى ممتلكات الدولة البيزنطية في القرن الرابع الميلادي. وقد انتشرت في أوروبا خلال القرون الوسطى، وحاربتها المسيحية حتى قضت عليها. كذلك عادت المانوية بصور مختلفة في العالم الإسلامي بعد قيام الدولة العباسية، وكان لها نشاط قوي حاربته الدولة بلا هوادة حتى قضت عليه[1].

مزدك:

ظهر مزدك بعد ماني بنحو ثلاثة قرون، وكان مذهبه في الثنوية شبيهاً إلى حد بعيد بمذهب ماني. يقول الشهرستاني: «حكى الوراق: إن قول المزدكية كقول كثير من المانوية: في الكونين والأصلين، إلا أن مزدك كان يقول: إن النور يفعل بالقصد والاختيار، والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق. والنور عالم حساس، والظلام جاهل أعمى. وإن المزاج كان على الاتفاق والخبط، لا بالقصد والاختيار. وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار»[2].

1- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم ص 225-227.

2- الملل والنحل: ج 1، ص 229.

كان ظهور مزدك في زمن الملك الساساني (قباذ) (488-531م)، وقد استطاع أن يحدث ثورة اجتماعية جارفة، بمبادئه الاجتماعية التي دعا إليها. وكانت هذه المبادئ تسعى إلى إقرار السلام والوئام في الدنيا- على حد زعمه.

يقول الشهرستاني: «وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال. ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحلَّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ»[1].

اعتنق الملك قباذ هذه المبادئ وأيدها، وقيل في تفسير ذلك إنه أراد باعتناقها التخلص من سلطة النبلاء، ورجال الدين الزرادشتي، الذين قوي سلطانهم في زمنه. ولكن يظهر أن هذه الحركة - التي اعتنقها غوغاء الناس وعامتهم - قد أدت إلى انتشار الفوضى في البلاد، وانتهت الاضطرابات التي نتجت عنها بخلع الملك نفسه.

ولكن الملك قباذ استطاع أن يستعيد ملكه بمعاونة الهياطلة. وحين عاد إلى عرش إيران، كان له موقف من المزدكية غير موقفه السابق، فقد دعا إلى اضطهاد مزدك وأتباعه في عام 528. وحين تولى أنو شروان الملك بعد وفاة أبيه، استمر في اضطهاد أتباع مزدك. ولكن، رغم ذلك، عاشت المزدكية حركة سرية، وعادت إلى الحياة في صور مختلفة خلال العصر العباسي. وقد أحدثت كثيراً من الثورات والقلاقل في أقاليم إيران. ومن أشهر هذه الثورات تلك التي عرفت بحركات الخرمية.

وقد اختلفت الآراء في تفسير المزدكية، فرأى البعض أنها كانت حركة اجتماعية أراد بها مزدك نشر الشيوعية، بوصفها وسيلة لرفع أسباب النزاع والخلاف بين الناس. ويربطها البعض بحركة ماني التي ذكرناها. ومن أدلة الارتباط بين دعوتي ماني ومزدك ما سبق أن نقلناه عن الشهرستاني من تشابه بينهما في العقيدة الثنوية، وكذلك دعا مزدك إلى الزهد، وحثَّ على الامتناع عن ذبح الحيوان وأكل اللحوم، وهذه كلها من صميم دعوة ماني، وتخالف بوضوح دعوة زرادشت. ولكن غرابة الدعوة الشيوعية على الناس في ذلك الحين، وما أحدثت من اضطراب وفوضى، أنست المؤرخين كل ما عداها من تعاليم مزدك، فأبرزوها دون غيرها من تلك التعاليم.

انتهت ثورة مزدك بانتصار الزرادشتية، وعودة إيران إلى دينها القديم، في ظلال ملك قوي عادل هو كسرى أنوشروان[2].

1- نفس المرجع: ص، 230.

2- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 228-229.

الزرادشتية في العصر الساساني:

بعد تطورات متلاحقة، امتدت قرابة قرن من الزمان، أخذت تتضح ملامح الأفستا (الابستاق) التي اتخذت شكلها النهائي في حكم الملك شابور الثاني (309-379م) الذي جعلها كتاباً مقدساً للدولة، وأعلن شريعتها شريعة رسمية لها. وتبدو الافستا الساسانية مختصرة بالقياس إلى مجاميع نصوص الأفستا القديمة التي ترجع أصولها إلى العصر الأخميني، حيث ضاعت وفقدت منها نصوص كثيرة خلال الحروب والصراعات الدامية.

تضم الافستا الساسانية واحداً وعشرين نسكاً (سفراً) تشمل ثلاث مجموعات:

1- المجموعة الأولى: وتبحث في الأخلاق وأركان الدين والصلوات والعبادات.

2- المجموعة الثانية: وتتناول القوانين المدنية والجنائية وقواعد الطهارة.

3- المجموعة الثالثة: وتتناول المعارف الخاصة بالروح والجسد والنجوم والطب والتاريخ والأساطير وسائر جوانب المعرفة.

وتقدم الأفستا تصوراً للألوهية، يقوم على الاعتقاد بإله الخير (أهورامزدا) وإله آخر يمثل الشر (أهريمان). ولإله الخير معاونون أبديون مقدسون مهمتهم رعاية استمرار الحياة، ويختص كل منهم بحماية جانب منها وبعض مظاهرها وهم: الفكر الطيب، والتقوى، والحكم الصالح، والجهاد، والصحة. ولكل من أيام الشهر ربه، والأرباب طبقتان: سماوية وأرضية، ومقر أهورامزدا في السماء، أما زرادشت الذي دعا إلى الإيمان به وعبادته، فقد تحول إلى إله على الأرض.

وفي الأفستا فإن الأرباب هي التي تحمي الوجود بما فيه من طبيعة وعناصر ومن ظواهر كبرى: من شمس وقمر ونجوم وماء وتراب ونار وهواء، وبما فيه من قيم الاستقامة والحق والصدق والنور والقدرة والنصر والسعادة والسلام. وفي هذا السياق تحرس الملائكة الإنسان وترافقه في حياته وتصحب روحه عند موته.

أما إله الشر أهريمان، فهو الذي خلق الموت ويعاونه الشياطين الذين يقيمون في جهنم. ومهمتهم في الكون منع الخير ونشر الظلمة والشر والكذب والطاغوت والتعاظيم.

وهكذا يتضح لنا أن كتّاب الأفستا في سعيهم لبلورة صيغة للفكر التوحيدي من التناقضات البارزة في الوجود، لم يتحرروا من تأثيرات العقائد الدينية الرافدية القديمة، وبخاصة فكرة نزول إله سماوي على الأرض، والقول بآلهة سماوية وآلهة

أرضية. وهو ما جعل الفكر الزرادشتي، إلى جانب أمور أخرى، عرضة للجدل ومحلاً للنقد في العصور التالية.

وتحاول الأفستا أن تقدم تصوراً لصيرورة الكون ومصيره. فالأفستا وشروحها الفهلوية (الزند) تصور أهورامزدا خالقاً لعالم الأرواح، وقد بقي ثلاثة آلاف سنة سلطاناً عليه لا ينازعه منازع، ولكن أهريمان الذي خرج بعد ذلك من الظلمة اللامتناهية ودخل عالم النور بعنف، بهره النور، فرفض الهداية، ونشب بعد ذلك صراع بين إله الخير وإله الشر ستكون خاتمته في نهاية اثني عشر ألف عام وتكون الغلبة فيه آخر الأمر للخير الذي يقهر الشر وينتصر عليه. إلا أن ذلك لن يأتي إلا بعد صراع مرير وطويل.

بعد خلق عالم الأرواح، خلق أهورامزدا عالم المادة وفي الدورة السادسة من دورات الخلق (وتستغرق كل دورة منها ألف عام) خلق الإنسان الذي أُخرج في نهايتها إلى الدنيا. وكان أهريمان قد أنهكه الصراع فأضحى ضعيفاً، لكنه أخذ يخلق كائنات شريرة مقابل الكائنات الخيرة التي خلقها أهورامزدا.

وتقول الأفستا إن أهورامزدا اشتد ساعده بظهور زرادشت الذي يعمل على نشر النور في العالم كله، وعندما يتحقق ذلك يغادر اهريمان عالم النور مهزوماً ليدخل عالم الظلام.

وهكذا يتبين لنا أن الزرادشتية تقوم على الثنوية، ولكن لأهورامزدا فيها موقع مقدس أعلى، فهو في هذه العقيدة خالق الأرباب والملائكة والكون والناس ومنه كل ما هو خير. أما أهريمان فهو خالق الشر الذي سيُهزم في آخر الزمان.

وفي تعاليم زرادشت في الأفستا حول العالم الآخر، فإن روح الميت تبقى وهي التي تحاسب بعد الموت أمام ثلاثة قضاة، فتسير على الصراط وتوزن أعمالها، فيحكم أخيراً لها أو عليها، فتصل إلى الجنة (بهشت) الأرواح التي تمر بمراحل هي الفكر الطيب والعمل الطيب والقول الطيب. أما الأرواح الشريرة فتهوي إلى الجحيم وتستقر في جهنم. وبين الجنة وجهنم منزلة تدعى (همشكان) تستقر فيها الأرواح التي تعادلت موازينها. ويكون على الأرواح بعد الحساب أن تنتظر يوم القيامة الذي ينبئ به المخلص الذي يحيي الموتى عندما ينتصر إله الخير راعي الحياة أهورامزدا[1].

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها، ص 152-154.

عامل العرب مجوس إيران معاملة أهل الكتاب، وتركوا لهم حرية البقاء على دينهم، والاحتفاظ بهياكلهم وممارسة طقوسهم وعبادتهم. وقد بقيت بيوت النيران منتشرة في إيران فترة طويلة بعد الفتح العربي، ووصفها مؤرخو القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كالمسعودي والمقدسي.

وقد اختلف في تفسير الأساس الفقهي الذي بنيت عليه معاملة أتباع زرادشت على هذا النحو من قبل الفاتحين العرب. فذهب بعض الفقهاء إلى أن المجوس أهل كتاب، وممن أبدى في ذلك رأياً صريحاً ابن حزم صاحب الفصل في الملل والأديان والنحل. وقد ذكر أن المجوس (أتباع زرادشت) أهل كتاب، ونقول القول بذلك عن علي بن أبي طالب وحذيفة وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أهل الظاهر[1]. وأشار ابن حزم إلى مواضع متعددة من كتبه الفقهية، أبدى فيها هذا الرأي. ويختم حديثه عن زرادشت وأتباعه كما يلي: «ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرم الله عز وجل في نص القرآن في آخر سورة نزلت منه، وهي براءة، أخذ الجزية إلا من كتابي»[2].

واكتفى الشهرستاني صاحب الملل والنحل بوصف المجوس بأنهم قوم لهم شبهة كتاب، أي أنهم كانوا يتبعون كتاباً أصابه التحريف والخرم.

وإذا تركنا ميدان البحث الفقهي ونظرنا في الواقع التاريخي، فسنجد أن التاريخ لم يسجل في أي من الفتوحات العربية أن المسلمين فرضوا دينهم بالقوة على شعب من الشعوب التي دخلوا بلادها، مهما كانت عقيدة هذا الشعب. وهذه الشعوب جميعها قد استمتعت بسماحة الحكم العربي، وتحولت كثرتها إلى الإسلام بمحض إرادتها، ولم تمارس الحكومات الإسلامية ضغطاً على أتباع المذاهب المخالفة، إلا حين شكل هؤلاء حركات سرية أو ثورات عاتية، كانت تهدف إلى قلب الحكومة الإسلامية، كما فعل الزنادقة والخرمية في العصر العباسي.

1- ابن حزم: الفصل في الملل والأديان والنحل، ج 1، ص 114.

2- نفس المرجع، ص 115.

الثقافة الفارسية وأثرها على الحضارة العربية في العصر العباسي

كان التداخل كبيراً بين تاريخ العرب وتاريخ الفرس قبل الإسلام وبعده. فقد ارتبط العرب مع الفرس بعلاقات تجارية وسياسية، إضافة إلى روابط الجوار التي كانت تربط بينهم. وكان بين العرب من يعرف اللغة الفارسية، ومنهم من اطلع على بعض معارفهم في الطب والآداب وغيرهما. وعندما فتح العرب المسلمون بلاد فارس دخل الفرس في الإسلام أفواجاً، وأقبلوا على الإسلام يدرسونه، وعلى اللغة العربية يحصلونها. ولم يمض وقت طويل، حتى أخذوا يساهمون في الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم، وقد ساعد على ذلك أمران:

الأول: إنشاء منصب الوزارة، وإسناده غالباً إلى الفرس.

والثاني: انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، وبعبارة أخرى من الشام إلى العراق.

أفادت الحضارة العربية الإسلامية من الثقافة الفارسية، وقد ظهر أثرها في الثقافة العربية في نواح عديدة أهمها:

1- في النظم الإدارية التي أقامها العرب في مختلف العصور، ولا سيما في العهد العباسي.

2- في المذاهب، حيث أن الفرس لم ينسوا معتقداتهم القومية، فحاول بعضهم أن يدخل عناصرها في الدين الإسلامي، وهناك من حاول التوفيق بينها وبين الإسلام. ومن أمثلة ذلك انتشار المانوية والزرادشتية والمزدكية وبخاصة في العصر العباسي.

3- في الآداب، حيث اعتمد الوزراء على الكتاب وكان أكثرهم من الفرس، وكان لهم أثر كبير في نشر الثقافة الفارسية في المجال الأدبي، فأضافوا الآداب الفارسية إلى الآداب العربية.. ودخلت ألفاظ فارسية إلى العربية، كأدوات الزينة، وآلات الغناء،

وأنواع المآكل والملبس، كما نقل المثقفون الفرس إلى العربية تراث آبائهم في التنجيم والطب والجغرافية والهندسة، ولكن أكثر ما نقل في الأدب والأساطير والتاريخ، وقد أفرد ابن النديم فصلاً بأسماء النقلة من الفارسية إلى العربية، ويأتي ابن المقفع على رأس هؤلاء، وكان للفرس أيضاً أثر في الشعر الديني، وفي حياة الزهد والتصوف.

الوزارة:

كانت كلمة وزير معروفة للعرب قبل الفتح الإسلامي، ففي القرآن الكريم على لسان موسى: «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي». وفي حديث السقيفة «نحن الأمراء وأنتم الوزراء» وفي طبقات «ابن سعد» أن أبا بكر كان وزيراً للنبي (ص).

ولكن الكلمة في كل المواضع التي ذكرنا، لم تستعمل في المعنى الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة وزير، وإنما هي بالمعنى المؤازر المناصر. قال ابن خلكان: «وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين: أحدهما أنها من الوزر وهو الحمل، فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل، وهذا قول ابن قتيبة - والثاني أنها من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به لينجى به من الهلاك، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة، أو السلطان، ويلتجئ إلى رأيه. وهو قول أبي إسحاق الزجّاج».

ونحن نرجح هذا - وهو أن أصل الكلمة عربي - على ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوي مأخوذ من فيشيرا ره - vi chira ومعناه الأمر أو التقرير[1].

لم تكن كلمة وزير بدعاً في العصر العباسي، وإنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب، وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية، وتلقيبه بهذا الاسم، وهذا المنصب فارسي، ولم يكن معروفاً قبل العباسيين - قال ابن خلجان في ترجمة أبي سلمة الخلال: «إن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول»[2].

ويقول الفخري: «الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون من بعده شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة... والوزارة لم تتمهد قواعدها، وتقرر قوانينها إلا في دولة

1- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج 1، دار الكاتب العربي، بيروت 1934 ص 164-165.

2- وفيات الأعيان، ج 1، ص 229.

بني العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجة والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة، وسمي الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً»[1].

وقد كان الوزراء الظاهرون في هذا العصر موالي فرساً، وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في الشؤون كلها. فينظر في الشؤون الحربية، وفي الشؤون المالية، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة، ويوقع على ما يرفع إليه من أوراق. ولم يتعدد الوزراء في الدولة العباسية بتعدد الأعمال، وإنما جمعوا له بين خطتي السيف والقلم.

وتاريخ الوزراء، يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار، والأشعار والسير والجدل، والبرامكة كانوا ذوي مشاركة في كثير من العلوم والآداب. والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين بجمعة بين رياسة السيف ورياسة القلم... الخ.

وهذه القدرة الكتابية التي كان يشترطها الخلفاء في الوزير، كانت من أكبر الأسباب في قصر الوزارة على الفرس - غالباً - فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية. ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان، فقالوا: رجل لسن إذا كان ذا بيان وفصاحة، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة.

وكان لهؤلاء الوزراء أعوان يسمون الكتَّاب، فقد كان لكل وزير كاتب، بل كتاب يعينونه. ولولاة الأقاليم، ورجال الدولة كتَّاب. وكانت هذه الطائفة - طائفة الكتَّاب - تؤلف وحدة على رأسها الوزير. وكان أكثر هؤلاء الكتَّاب فرساً كالوزراء، يحتذون حذو أجدادهم من الفرس - حتى في مظاهرهم الخارجية - بل إن تكون الكتَّاب كطبقة، ليس إلا تقليداً للنظام الفارسي، فالجهشياري يقول: «كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة، فإذا وصل الرجل إلى الملك عرف بلبسته صناعته، والطبقة التي هو منها، فكان الكتَّاب في الحضر يلبسون لبستهم المعهودة... وكانت ملوك الفرس تسمى كتَّاب الرسائل تراجمة الملوك»[2].

1- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 165.

2- الوزراء والكتاب للجهشياري، ص 401-402.

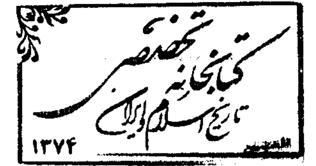
كان لهؤلاء الكتّاب أثر كبير في نشر نوع خاص من الثقافة، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة، لأنهم - بحكم مناصبهم - مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم، وأن يعرفوا من اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والجغرافية والتاريخ طرفاً، لأن كثيراً من مواقفهم يحتاج إلى ذلك، وقد تُعرض للخليفة أو الوالي مسائل من هذا القبيل، يضطر الكاتب إزاءها أن يكون ملماً بذلك كله. إذ هم الذين كانوا يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحررون ما يصدر منهم[1].

وأول ما نعرفه من ذلك: «أدب الكاتب لابن قتيبة»، فقد حمله على تأليفه كما ذكر في مقدمته: أنه رأى طائفة من الكتّاب قد شغفت بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة.

وألف بعده أبو بكر الصولي كتابه «أدب الكتّاب» فتكلم في حسن الخط وقبحه، والدواة والقلم وما إليهما، وترتيب الكتاب وطيه، والدعاء في المكاتبات - والدواوين وتحويلها إلى العربية، ووجوه الأموال التي تحمل إلى بيت المال، وشيء من قواعد الإملاء.

وتوسع من جاء بعدهم - من المؤلفين للكتاب - حتى ختمت بكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» فتعرض فيه - تقريباً - لكل المعلومات البشرية في عصره، من تاريخ وجغرافية وفلك، وما يحتاج إليه الكاتب عملياً في صناعته من خط ونحوه، ومصطلح المكاتبات، وكيفية العقود، والبريد، ومطارات حمام الرسائل، والمنارات... الخ فترى من هذا كيف كان المؤلفون يعنون بهذه الطبقة من الناس، وكيف كانوا يطلبون منهم المعارف الواسعة في الموضوعات المختلفة، وأن هذه الطبقة كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة.

هؤلاء الوزراء والكتاب نشروا الثقافة العامة، وضموا إلى الآداب العربية الآداب الفارسية، فأصبح ما يتطلبه الأدب، أن تعرف حكم بزرجمهر كما تعرف حكم أكثم بن صيفي، وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب، وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبرويز وموبذان كما تعرف أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين[2].



1- احمد أمين: ضحى الإسلام، ص 170.

2- المرجع السابق، ص 172.

انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى العراق:

وهو السبب الثاني في نشر الثقافة الفارسية. وكان من أكبر بواعث العباسيين على هذا الانتقال، أن دمشق كانت عاصمة الأمويين، وكانت ضلع الشام مع بني أمية من عهد الخلاف بين علي ومعاوية، وكان الشاميون هم الجند المخلصون لبني أمية، وهم مثال الطاعة لدولهم، فمن حزم العباسيين ألا تكون عاصمة الدولة الجديدة بين الشاميين وتحت رحمتهم، وفوق ذلك، فدمشق بعيدة جداً عن خراسان، منبع الثورة، ومصدر الدعوة، وذخيرة العباسيين وعمادهم.

والذي يهمنا هنا أن بغداد كانت في العراق؛ حيث عواصم الممالك القديمة مثل بابل والمدائن. لهذا كله، أصبحت بغداد، بعد قليل، أهم مركز للحضارة والثقافة في المملكة الإسلامية، بل في العالم كله. ونحن إذا استثنينا أوقات الفتن والاضطرابات، أمكننا أن نقول: إنها ظلت في رقي واتساع وعظمة إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

وكان لهذا الانتقال من الشام إلى العراق أثر كبير - من الناحية العقلية - فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة. وتداولت عليه دول خلفت فيه مدنيتها وثقافتها، وكان يسكنه قبيل الفتح الإسلامي بقايا من الأمم القديمة مثل الكلدان والسريان وهم الذين يلقبون بالآراميين، وكان يسكنه العرب من إياد وربيعة، وكان يقيم فيه المناذرة الذين أسسوا مملكة الحيرة، وكانت مدينة الفرس غالبة عليه لأن آخر من حكمه قبل الإسلام هم الساسانيون من الفرس، وظل في أيديهم زمناً طويلاً، إلى أن استولى عليه المسلمون في أيام عمر، وكانت فيه «المدائن» عاصمة الساسانيين. كل هذا جعل العراق أكثر ما يكون اصطباغاً بالفارسية، فلما كان العباسيون، وكان الفرس هم الذين أعانوهم، كان من هذا وذاك نفوذ للفرس عظيم في المناصب وفي الثقافة[1].

النواحي التي كان فيها للثقافة الفارسية أثر في الثقافة العربية:

أول ذلك الألفاظ اللغوية: ذلك أن العرب لما تحضروا بعد البداوة، وجدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة، ليس في ألفاظهم ما يدل عليها، وكان ذلك في جميع مرافق الحياة، من أدوات الزينة، وأنواع المأكل والملبس، وآلات الغناء، والدواوين ونظامها ونحو ذلك، فسلكوا خير طريق يُسلك لذلك. وهو أن يتوسعوا في مدلولات الكلمات العربية

1- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 174.

أحياناً، ويأخذوا الكلمات الأجنبية كما هي أحياناً، ومصقولة بما يتفق ولسانهم أحياناً. وكانت اللغة الفارسية منبعاً كبيراً من المنابع التي تستمد منه اللغة العربية وتوسع به مادتها – من قديم تسربت ألفاظ فارسية إلى اللغة العربية، وكان ذلك بطريق التجارة أو الاختلاط. ولكنها بعد قليل، قيست بالألفاظ التي دخلت في العصر العباسي للسبب الذي ذكرنا، وهو أن العرب كانوا أكثر شعوراً بأسباب الحضارة في العصر العباسي، فكانوا أشد احتياجاً للاقتباس من الفرس، ولأن اللغة العربية لم تعد ملكاً للعرب وحدهم، بل كانت ملكاً للعالم الإسلامي جميعه، والعالم الإسلامي لا يتعصب للغة العربية تعصب العرب، فهو يفسح صدره للغات الأخرى ما دعا داع إليها. ثانياً – كان للفرس – من قديم – علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم، فلما جاءت الدولة العباسية، وكان كثير من رعيتها فرساً، لهم نزعة وطنية، وميول قومية، أخذ المثقفون ينقلون إلى العربية تراث آبائهم، وما حفظته العصور إلى عهدهم.

كانت لهم كتب في التنجيم والهندسة والجغرافية، وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم. ولكن كانت مدينتهم في حياة وعظمة، فكانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم. وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح الإسكندر الأكبر لبلادهم، وقد تلف في هذه الحرب كثير من خزائن كتبهم. فلما جاءت الساسانية (226–652م) استعادوا أدبهم وعلمهم، وأظهر ملوكهم ميلاً إلى العلم، وتشجيع للترجمة وللتأليف: أردشير بابل (226–241م)، فقد بعث في طلب الكتب من الهند والروم والصين، وكذلك كان الشأن في عهد ابنه سابور، وعهد كسرى أنوشروان[1].

دامت الدولة الساسانية نحو أربعة قرون، خلفت فيها علماً كثيراً، وأدباً وفيراً. وأكثر ما نقل إلينا في العصر العباسي – من الأدب والعلم، والأساطير والتاريخ – إنما يرجع إلى هذه الأسرة. فلما نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي، أخذ طائفة ممن يجيدون اللسانين – الفارسي والعربي – ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية، وقد عقد ابن النديم في كتابة الفهرست فصلاً لأسماء النقلة من الفارسي إلى العربي، ذكر منهم:

(1) عبد الله ابن المقفع (2) آل نوبخت (3) موسى ويوسف ابني خالد (4) أبا الحسن علي بن زياد التميمي (5) الحسن بن سهل (6) البلاذري (7) جبلة بن سالم

1- المرجع السابق، ص 175-176.

(8) إسحق بن يزيد (9) محمد بن الجهم البرمكي (10) هشام بن القاسم (11) موسى بن عيسى الكردي (12) زادويه ابن شاهويه الأصفهاني (13) محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني (14) بهرام ابن مروان شاه (15) عمر بن الفرجان[1].

وقد ترجم عبد الله ابن المقفع «كتاب خداينامه» وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم، وقد سماه ابن المقفع «تاريخ ملوك الفرس». والظاهر أن الطبري اعتمد عليه في كتابه "تاريخ الأمم والملوك" عند كلامه على الساسانيين، وترجم كذلك كتاب «آيين نامه» ومعنى الآيين النظم والعادات، والعرق والشرائع. وصف لنظم الفرس، وتقاليدهم وعرفهم. وقد ذكر المسعودي أنه كتاب كبير، يقع في آلاف من الصفحات. كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية «كليلة ودمنة» وكتاب «مزدك»، وهو يتضمن سيرة مزدك الزعيم الديني الفارسي المشهور، وكتاب «التاج» في سيرة أنوشروان، وكتاب «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» وكتاب «اليتيمة»[2].

وقد ذكر المسعودي: أن ابن المقفع ترجم كتاباً اسمه كتاب «الكيكيين» من الفارسية الأولى إلى العربية – وهذا الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم وسير ملوكهم[3].

وفي الأدب، ترجموا أشياء كثيرة، منها ما ذكرنا قبل من كليلة ودمنة، واليتيمة، والأدب الكبير، والصغير، ومنها كتاب «هزار أفسانه» ومعناه ألف خرافة، وهو أصل من أصول «ألف ليلة وليلة» وكثير غيره من كتب القصص، ككتاب بوسفاس، وكتاب خرافة ونزهة، وكتاب الدب والثعلب، وكتاب روزبه اليتيم، وكتاب نمرود، الخ.

كما ترجموا في الأدب عهد أردشير، وهو محفوظ بالعربية إلى عهدنا، وكتاب موبذ موبذان، وكتاب أردشير في التدبير، وتوقيعات كسرى. وكتاب أدب الحرب، الخ[4].

كان هناك كثير من الفرس ممن أتقنوا الفارسية والعربية معاً، وتثقفوا الثقافتين، وأنتجوا في الأدب العربي نتاجاً جديداً كالفضل بن سهل، وسهل ابن هارون، وابن المقفع، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار الأسواري – أحد القصاص – كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في

1- ابن النديم، الفهرست، ص 224 وما بعدها.

2- مروج الذهب للمسعودي، ج 1، ص 109.

3- نفس المرجع، ص 118.

4- أحمد أمين، ص 178-179.

مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأي لسان هو أبين. واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسواري»[1].

بل نرى قوماً من العرب تعلموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها، ثم يخرجون فيما بعد أدباً عربياً فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب. نذكر مثلاً على ذلك «العتابي» الشاعر العباسي المشهور. وهو عربي من تغلب اسمه كلثوم ابن عمرو بن أيوب، تثقف بالثقافة الفارسية، وأعجب بها. وكان أديباً ممتازاً، عزيز المعاني، وكان يقول: وهل المعاني إلا في كتب العجم، وبالبلاغة: اللغة لنا والمعاني لهم. ثم كان يتكلم بالفارسية كثيراً[2].

هؤلاء الفرس الذين تعربوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظ من الثقافة الفارسية، ملأوا الدنيا في هذا العصر العباسي علماً وحكمة وشعر ونثراً، فيها العنصر الفارسي واضح جلي. ومن حظ العربية وقتذاك أنها سادت على اللغة الفارسية وغلبتها على أمرها، فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة، إنما هو باللغة العربية لا الفارسية، شعر الشاعر منهم عربي كبشار، وأدب الأديب منهم كابن المقفع، وتأليف المؤلف منهم عربي كابن قتيبة والطبري... الخ[3].

أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي:

وقد كان ذلك من جملة وجوه:

- أن الأدب - في كل عصر - ظلٌ الحياة الاجتماعية. وقد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعددة، أظهر لون فيها كان اللون الفارسي.

وبيان ذلك: أن العادات الفارسية تغلغلت في الناس في ذلك العصر، كان مظهرها واضحاً جلياً. فالناس يتخذون يوم النيروز عيداً لهم كالفرس قديماً، والقضاة وعظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس، ومجالس الغناء واللهو والشراب هي مجالس الفرس. والفضل بن سهل وزير المأمون - وهو فارسي - يحتال حتى يقنع

1- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1 ص 139.

2- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 180.

3- المرجع نفسه، ص 181.

المأمون بتغيير السواد بالخضرة، ويكتب إلى جميع العمال أن يجعلوا أعلامهم وقلانسهم خضراً، والخضرة هي لباس كسرى والمجوس[1].

وقد اتبع نظام الحرب وإدارة الدولة، في أغلب الأحيان، نظام الفرس في حروبهم وإدارتهم، إلى كثير من أمثال ذلك. والفرس من قديم ميالون إلى الإفراط في الشراب، والإفراط في الغناء، حتى وصفهم هيرودوت بالإمعان في ذلك، والغلو فيه وتصريفهم شؤون الدولة وهم سكارى.

نعم إن الفرس هم الذين دفعوا الناس إلى حياة ترف ألفوها وآباؤهم عن عهد الأكاسرة، وعلموهم كيف يكون الإفراط في طلب الملذات منية أكسبتهم إياها حضارتهم القديمة – لا من طريق ساذج كالذي يعرفه العرب – هل كان يعرف العرب مجالس الغناء المتقنة، ومجالس الشراب المترفة، وحياة النعيم الناعمة لولا الفرس؟ فعظماء الفرس كالبرامكة وأمثالهم أرشدوا الناس إليها، وفنانوهم كإبراهيم الموصلي غنوها لهم، وشعراؤهم كبشار بن برد كانوا لسانهم الناطق بها، المحدث عنها! ولو كانت الحياة الأموية امتدت وظلت السيادة العربية ما رأيت تشبيباً بغلمان، ولا هذا السيل الجارف من القيان، ولما رأيت نعيماً وترفاً وفيراً! ألم ترَ الشام ومصر والأندلس في هذا العصر نفسه – لم تنغمس في الترف كما انغمست العراق وفارس، ولم يكن أدبها أدباً ناعماً كالذي كان في العراق. قد تكون كثرة المال التي تصب في حاضرة الخلافة سبباً للترف في الحياة، والترف في الأدب. ولكن المال وحده لا يكفي لولا العنصر الفارسي الذي كان ينظم كيف يستخدم المال في هذا السبيل[2].

من الحق أن نقول: إن هذه النزعة إلى اللهو والترف لم تكن نزعة عامة شاملة للفرس، بل كان هناك نزعات أخرى بجانبها، أظهرها ما كان يقابله من نزعة الزهد. وكان زعيم هذه النزعة في الأدب أبا العتاهية الفارسي أيضاً.

إن أبا العتاهية قد فلسف الزهد، وملأ الأدب العربي – في عصره – بالموت والتخويف منه ومما بعده، واحتقار اللذة، والجهد في الهرب منها.

وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب غير هذا الذي ذكرنا، فقد كانت كتبهم في القصص التي نقلت من الفارسية إلى العربية، كـ "كليلة ودمنة" و"هزار إفسانه" أساساً من الأسس التي بنت عليها الأجيال المتعاقبة ما بين أيدينا من قصص عربي. فابن

1- الوزراء والكتاب للجهشياري، ص 396 وما بعدها.

2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص 184-185.

النديم يروي أن محمداً بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء «ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم المسامرين، فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في السمار والخرافات ما يحلا بنفسه، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سحر تام يحتوي على خمسين ورقة، وأقل وأكثر، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه تتميمه ألف سمر»[1].

وضرب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير، وهو باب «التوقيعات»، ذلك أن الفرس - قبل الإسلام - كانوا يعنون بالبلاغة عناية كبرى، وكان لهم فيها تأليف كما حكى الجاحظ، وكان من أظهر عنايتهم بالبلاغة والحكم والتوقيعات. كان الفرس - ككل الشعوب - يرفعون إلى ولاة أمورهم أوراقاً تتضمن طلباً لشيء أو شكوى من شيء، نسميها نحن الآن «عرائض»، وكانت تسمى عند العرب «قصصاً» سميت كذلك على سبيل المجاز، لأن القصة اسم للمحكي في الورقة، فسميت الورقة نفسها «قصة» وكانت تسمى كذلك رقاعاً، لصغر حجمها تشبيهاً لها برقعة الثوب.

كانت هذه القصة ترفع إلى الملك، أو من يليه تبعاً لموضوعها، وتبعاً للمتظلم وقدره. وقد جرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقعوا على هذه القصص بعبارة بليغة، أو حكمة حكيمة. يتخيرون لها أحسن اللفظ، وأجود المعنى. وتتناقل أثراً من الآثار القيمة، كما يتناقل المثل الجيد. وقد نقل إلى أدبنا العربي الشيء الكثير من توقيعات ملوك الفرس، من ذلك، أن رجلاً رفع إلى كسرى بن قباذ رقعة يخبره فيها أن جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم منهم فلان وفلان، فوقع في أسفل كتابه، إنما أملك ظاهر الأجسام لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالهوى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر!

ووقع أنوشروان في قصة محبوس: من ركب ما نهى عنه حيل ما بينه وبين ما يشتهي. ومدح رجل من الخاصة كسرى بن قباذ بمدح أطنب فيه وأسهب، وذهب كل مذهب، وكان المدح في رقعة فوقع فيها كسرى «إني للمدح مستصغر، لعلمي بأشياء قد مدحت، وكانت بأن تذم محقوقة». الخ. الخ.

ولما تحضر العرب، وانتشرت بينهم الكتابة، وحرروا مظالمهم على رقاع - بعد أن كانوا يشافهون بها أمراءهم - كان لهم توقيع. وقد نقلت توقيعات في أيام الخلفاء

1- ابن النديم، الفهرست، ص 304.

الراشدين وبني أمية، أخشى أن يكون كثير منها شفهياً فحور إلى توقيع. ولكن قد سال سيل التوقيعات في عهد بني العباس، وكان أكثر الكتاب والوزراء فرساً، فساروا فيها على سنن آبائهم. وكثر ذلك حتى أنشأوا فيما بعد ديواناً أسموه «ديوان التوقيع»[1].

هذا إلى أنه كان للفرس شعر كثير وأمثال كثيرة وأدب كثير، فتحت أعين العرب.

وشيء آخر كان له أثر كبير في الثقافة العربية، ذلك ما تنبه إليه ابن خلدون من «أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته»[2].

ويعلل ذلك بأن العلوم من جملة الصناعات، والصناعات من خصائص الحضر، والعرب كانوا بدواً فكانت العلوم من نتاج الحضر. والحضر في ذلك العهد من العجم، ومن في معناهم من الموالي. ويقول: «فكان صاحب صناعة النحو سيبويه، والفارسي من بعده، والزجّاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم. وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم، أو مستعجمون باللغة والمربى، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس»[3].

ونحن نعتقد أن ابن خلدون – مع دقة ملاحظته – قد عانى فيها غلواً كبيراً وبخس العرب نصيبهم في المشاركة. فلئن كان أبو حنيفة النعمان فارسياً فمالك والشافعي وأحمد بن حنبل عرب، ولئن كان سيبويه فارسياً فشيخه الخليل بن أحمد عربي. وليس كل علماء أصول الفقه عجماً كما يقول، فواضعه وأول مؤلف فيه الشافعي وهو عربي، وغلو أن يدعى أن هؤلاء العلماء العرب هم عجم بالمربى، فإن المربى كان مزيجاً من عرب وعجم[4].

1- أحمد أمين، المرجع السابق، 188.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص 477.

3- المرجع السابق، ص 487.

4- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 191.

ولكن مما لا شك فيه أن العجم - وخاصة الفرس - كانوا في جملتهم أقدر على التدوين والتأليف للسبب الذي ذكره ابن خلدون، وهو تعمقهم في الحضارة، ولأنهم مرنوا من قديم على التأليف بلغتهم هم وآباؤهم، فلما دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية، كان تأليفهم بالعربية سهلاً يسيراً، لأنه ليس إلا احتذاء للمنهج، وإن اختلف الموضوع واللغة.

إذاً، لا عجب من أن نرى في عصرنا الذي نؤرخه كثيراً من الفرس، كانوا من السابقين الأولين في تدوين العلوم المختلفة.

والآن نستطيع أن نختار رجلاً يمثل الثقافة الفارسية خير تمثيل وليكن «ابن المقفع».

ابن المقفع

ابن المقفع فارسي الأصل، كان أبوه من قرية اسمها «جور»، من أقاليم فارس. نشأ ابن المقفع في البصرة في «ولاء آل الأهتم» وهم معروفون بالفصاحة واللسن، وخالط الأعراب وأخذ عنهم. وكان أبوه يدين بمذهب زرادشت، وهو نشأ – كأبيه – زرادشتياً وتقلد الكتابة لكثيرين، فكتب ليزيد بن عمر بن هبيرة، وكان يزيد والياً على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ثم كتب لأخيه داود بن عمر بن هبيرة، ثم اتصل بعيسى بن علي عبد الله بن عباس عمّ السفاح والمنصور.

وكان إلى هذا العهد – لا يزال مجوسياً، فأسلم على يديه وكتب له، ثم قتل لتشدده – على ما يقول كثير من المؤرخين – في كتابة صيغة الأمان التي وضعها ابن المقفع ليوقع عليها أبو جعفر المنصور أماناً لعبد الله بن علي، فأفرط ابن المقفع في الاحتياط فيها، حتى لا يجد المنصور فيها منفذاً فيها للإخلال بعهده، فغاظ المنصور ذلك فأوعز بقتله. وكان قتله سنة 142هـ أو 143 أو 145 على خلاف في ذلك.

نستطيع أن نستنتج من هذا نتيجتين هامتين:

الأولى: أنه لم يقض من حياته في العصر العباسي إلا نحو عشر سنوات، أما البقية فقد قضاها في العصر الأموي، وشهد اضطهاد العرب للموالي، وشاركهم في محنتهم وبؤسهم – أيام الأمويين.

الثانية: أنه نشأ مجوسياً زرادشتياً، وقضى زهرة شبابه في أحضان المجوسية، مثقفاً بثقافتها، ولم يُسلم إلا قبل قتله ببضع سنوات، بعد أن تكوَّن ونضج، وتقلد الكتابة للكثيرين.

وابن المقفع من أقوى الشخصيات في عالم الأدب العربي، قوي في خلقه، قوي في عقله وسعة علمه، قوي في لسانه[1].

1- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 196-197.

آثاره الأدبية:

ذكرنا فيما سبق ما ترجم من الفارسية إلى العربية، وما نقله منها ابن المقفع. والآن نذكر آثاره الباقية في أيدينا، وهي: 1- الأدب الصغير، 2- الأدب الكبير أو اليتيمة، 3- رسالة الصحابة، 4- كليلة ودمنة.

الأدب الصغير والأدب الكبير:

هما كتابان يدلان على أن ابن المقفع لم يترجمهما حرفياً، كما نفهم من معنى الترجمة، وإن كان اعتمد في كثير من المعاني على معاني الأقدمين. قال في الأدب الصغير: «قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها، وتجلية أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق». وقال في الأدب الكبير المسمى بالدرة اليتيمة: «إنا لم نجدهم - أي الأولين - غادروا شيئاً، إلا في تعظيم الله عز وجل، وترغيب فيما عنده. ولا في تصغير للدنيا، وتزهيد فيها. ولا في تحرير صنوف العلم، وتقسيم أقسامها، وتجزئة أجزائها، وتوضيح سبلها، وتبيين مآخذها. ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق. فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور، فيها مواضع لصغار الفطن، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم. ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس».

وكلمة الأدب في الكتابين ليس معناها ما نستعمله الآن فيما يقابل العلم، وإنما يطلقها ابن المقفع على معنى تهذيب النفس والخلق.

والأدب الصغير - عبارة عن كلمات حكيمة في الأخلاق، لا تحلل النفس والخلق تحليلاً دقيقاً واسعاً مستوفى، ولا تذكر الخلق فتبسط القول فيه، وتذكر وصفه، والسبيل إلى اكتسابه، فذلك بالعقل اليوناني أشبه، ولكنها عبارة عن جمل موجزة أشبه بالأمثال. وهي خطرات، نتيجة تجارب قد صنعت في إيجاز، وفي عبارة رشيقة رقيقة. مثل: «أربعة أشياء لا يستقل منها القليل: النار والمرض والعدو والدين».

ومثل «لا تعد الغنم غنماً إذا ساق غرماً، ولا الغرم إذا ساق غنماً، ولا تعتد من الحياة ما كان في فراق الأحبة» الخ.

ونلاحظ في الأدب الصغير- في كثير من مواضعه - أنه لا ارتباط بين حكمه، فهي أشبه برجل أخذ يرصد تجارب مختلفة في حالات مختلفة، وقد عثر على تجربة

وضعها، وإن كانت إحدى التجارب اقتصادية، والأخرى دينية، والثالثة نفسية. أو كرجل يقرأ في كتب مختلفة، فكلما وجد كلمة أعجبته دوّنها، لذلك ترى كلمة في محاسبة النفس، وبجانبها كلمة في الصديق، ثم كلمة في معاملة الناس بحسب طبقاتهم، ثم في اختلاف الرأي والهوى، ثم بعد كثير من الصفحات تجد كلمة أخرى في الصديق، قد كان يحسن أن تكون بجانب الأولى، وهكذا. ثم هو مختلف في طريقة التأليف، فأحياناً ينشئ الشيء من غير إسناد، وأحياناً يقول: وقالت الحكماء، وأحياناً تجد قبل الحكمة كلمة «وقال»، ما يدل على أنه لم يضعها هو في هذا الموضع[1].

أما الأدب الكبير - أو ما سماه بالدرة اليتيمة، فكلمات كذلك، ولكنها في مجموعها أطول، وهي مرتبة غالباً، ألفت الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد تقريباً، يدور أغلبها حول موضوعين قد استوفى الكلام فيهما استيفاء حسناً، فأولهما: الكلام على السلطان والولاة، ومن يتصل بهما. وقد كان هذا الموضوع يشغل نفسه كثيراً، يتجلى ذلك في أكثر ما كتب، لأن حياته كانت متصلة به، فقد كتب للولاة، واتصل بهم، وصادقهم وعاداهم. وقد اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه وكان ركناً من أركان هذا الخلاف ومحرراً لوقائعه، ومستشاراً في أمره، ومنغمساً فيه، وقارئاً لمثل هذه الأحداث في سير الفرس، ومترجماً لها. فلا عجب إذا أكثر الكتابة فيه، ولا عجب إذا أجاد، وقد جمع فيه مأثور الأولين، وتجارب الآخرين، إلى ما منحه الله من دقة نظر، وحسن أداء. وقد استغرق هذا الموضوع القسم الأول من الكتاب. والموضوع الثاني: الصداقة والصديق. وقد كان ابن المقفع يقدر هذا تقديراً دقيقاً، ويرى في الأصدقاء عماد الحياة، ومرآة النفس، يفضي إليهم وحدهم ببنات صدره، ودخائل نفسه، ويضع عندهم وحدهم مكنونات سره، ويضع عنه مؤونة الحذر والتحفظ. أما غيرهم فليس لهم لباس آخر، لا يلقاهم إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً. ولأجل ذلك أثقل في شروط الصديق، ونصح بالدقة التامة في اختياره «لأن ذا الرأي لا يدخل أحداً من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والسبر، والثقة بصدق النصيحة، ووفاء العقل». وتدل سيرته على أنه آمن بما كتب، ودان به، وسار في حياته على ما كتب من قوانين الصداقة.

في الكتابين أثر كبير من الثقافة الفارسية، ففيهما حِكَم كثيرة من حكَم الفرس، وفيهما بعض نظم الساسانيين في الحكم، وكثيراً ما يقول: «احفظ قول الحكيم»

1- أحمد أمين، المرجع السابق، ص 200-201

و«قالت الحكماء» وهو يقصد حكماء الفرس. وفيها بعض وصايا مأخوذة من عهد أردشير، كالنظام المتعلق بولي العهد. وفيها من حكم كليلة ودمنة، إلى غير ذلك. نعم هناك أثر يوناني في هذه الحكم مثل قوله: «إن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره، فيعلم أن أحق ذلك بالطلب إن كان مما يحب، وأحقه بالاتقاء إن كان مما يكره، أطوله وأدومه وأبقاه، فإذا هو قد أبصر، فضل الآخرة على الدنيا، وفضل سرور المروءة على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامع العام - الذي تصلح به الأنفس والأعقاب - على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل، وفضل الأكلات على الأكلة، والساعات على الساعة». إنك تلمح في ثنايا هذا رأي أبيقور، وهو أنه يحب أن يراعي - في تفضيل لذة على لذة - الشدة والمدة، وتفضيل اللذائذ العقلية والروحية على اللذائذ البدنية، الخ. ولكن ابن المقفع إنما نقل عن الفرس، وإن كانوا قد تأثروا - فيما تاثروا به - بالمذاهب اليونانية. كذلك نلمح في بعض حكمه أشياء إسلامية كقوله: «والدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك» فهو قريب في لفظه من حديث مشهور، ونرى وجوه شبه عديدة في بعض الحكم بين ما ورد في كتب ابن المقفع، وما ورد عن الإمام علي في كتاب نهج البلاغة. ولكنا يعترينا الشك في كثير مما نسب في نهج البلاغة إلى الإمام علي.

استمد ابن المقفع غالبية ما في كتبه من الثقافة الفارسية، وقليلاً منها من الثقافة العربية الإسلامية[1].

رسالة الصحابة:

ولابن المقفع رسالة سميت بالصحابة، وليس يعني صحابة رسول الله - كما هو المشهور في استعمال الكلمة - وإنما عنى صحابة الولاة والخلفاء، وهم من يقربهم الأمراء أو الخلفاء وينادمونهم، ويجعلونهم موضع السر منهم، ويستشيرونهم في أمورهم. وقد عرض في هذه الرسالة لهذا الموضوع، فسميت الرسالة به.

وللرسالة قيمة كبرى، فهي تقرير في نقد نظام الحكم إذ ذاك ووجوه إصلاحه، رفعه إلى أمير المؤمنين ولم يسمه، والظاهر أنه أبو جعفر المنصور، لأنه يذكر دولة بني العباس وقد استقرت، ويذكر أمير المؤمنين، وقد أهلك الله عدوه وشفى غليله، ومكن له في الأرض، وآتاه خزائنها. ويذكر أبا العباس (السفاح) ويترجم عليه. وإذا علمنا أن

1- نفس المرجع، ص 204.

ابن المقفع قتل في عهد المنصور، صح لنا أن نستنتج - من ذلك كله - أن الرسالة إنما كتبت للمنصور. بدأها بمدح أمير المؤمنين بأنه جمع إلى ما عنده من علم الرغبة في السؤال، والاستماع لنصيحة الناصح، وفي هذا ما يشجع ذا الرأي على أن يدلي برأيه. ثم ذكر موضع الشكوى قبل أن يتولى أبو جعفر المنصور، فوالٍ لا يهتم بالإصحاح، وإن اهتم فليس له رأي يهديه، أوله رأي ولكن ليس له عزم يمضي به ما يبتغيه، وأعوان ليسوا على الخير بأعوان، ولهم من المكانة والنفوذ ما يمنع الخليفة من إقصائهم والنيل منهم، وأمة إن أخذت بالشدة حميت، وإن أخذت باللين طغت، وأبان أن أمير المؤمنين وفقه الله لمداواة هذه العيوب، واقتلاع هذه الشرور، ثم بدأ بتقريره الذي وضعه.

فأول ما بدأ به: شرح حال الجند. وإذا علمنا أن الدولة في عهد هذا التقرير دولة ناشئة، ولها أعداء كثيرون، وذوو أطماع عديدون، ثم هي واسعة الأطراف، مترامية الأنحاء لا يخلو فيها يوم من فتنة، أدركنا ما للجند من عظيم شأن، وعرفنا السبب في أن جزءاً كبيراً من التقرير كان يدور حول هذا الموضوع. وكان عماد الجند هم الجند الخراسانية، وكانوا هم القائمين بحماية الدولة، وكانوا فرساً، وكان ابن المقفع فارسياً، وكان محور كلامه الجند الخراسانية.

ثانياً: مما نصح به أمير المؤمنين في شأن الجند، أن يحول بين الجنود وبين إدارة الشؤون المالية. وقد علل ابن المقفع رأيه هذا بأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة. وهو نظر صائب، لأن كثيرين من هؤلاء القواد اعتزوا بسلطانهم وجنودهم، فظلموا الناس. ولما أخذوا على ظلمهم اعتزوا بما في أيديهم من مال، وما تحت طاعتهم من جند، فخرجوا على الدولة، وكانوا سبباً لمصائب لا تحصى[1].

ثالثاً: مراعاة الكفاية في القيادة، فقد لفت نظر الخليفة - في لطف - إلى أن يعيد النظر في الرؤساء ومرؤوسيهم، فكثير من المرؤوسين أكفأ من رؤسائهم، فلو ولى القيادة خيارهم، ووضع الجند في منازلهم، حسب كفايتهم، لكان من ذلك خير عظيم.

رابعاً: تثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية، فيعنى بتعليمهم الكتابة والتفقه في الدين، كما يعنى بتعويدهم الأمانة والعفة والتواضع، واجتناب الترف في الزي والعطر واللباس، وما إلى ذلك.

خامساً: تعيين وقت محدد للجند يقبضون فيه أرزاقهم، فإن ذلك أدعى إلى طمأنينتهم، وأمنع للشكوى والاستبطاء.

1- المرجع السابق، ص 205-207.

سادساً: أن يتقصى أخبارهم وحالاتهم الخ...

ثم ذكر أمير المؤمنين بأهل العراق عامة، وأهل البصرة والكوفة خاصة وأنهم أقرب الناس إلى يكونوا شيعته ومعينيه.

ثم عرض ابن المقفع في تقريره إلى موضوع من أهم الموضوعات وأعمقها في حياة المسلمين، وهو فوضى القضاء[1].

بعد ذلك انتقل إلى تعطيف المنصور على أهل الشام، وقد كان العباسيون ينظرون إليهم نظرة عداء، لأنهم كانوا أنصار الأمويين وجندهم المطيعين. بعد هذا تكلم في صحابة الخليفة أو ما نسميه نحن الآن «بحاشيته» ورجال دولته المقربين إليه. ذلك أن الخليفة كان يقرب إليه أوغاد الناس وسفلتهم. وأن هؤلاء كانوا - قبل خلافة أمير المؤمنين - عملوا أعمالاً مفرطة القبح، مفسدة للحسب والنسب والسياسة، داعية للأشرار طاردة للأخيار.

انتقل بعد هذا إلى الكلام في الخراج، وهو عماد مالية الدولة، والخراج هو المال المفروض على الأراضي، وقد شكا من الفوضى فيه كما شكا قبل من فوضى القضاء.

ثم انتقل ابن المقفع إلى الكلام في جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها، وقد كانت موضع نقمة المنصور إذ خرجت عليه، فطلب إليه أن يعنى بها عناية خاصة، فيتخير لولايتها الخيار من أهل بيته، ذلك أنها منبع النبوة، ومصدر الإسلام، وقبلة المسلمين، وقد تولاها ولاة سوء انتهكوا حرمتها، فكانت حاجتها إلى خير الولاة أمس وأوجب.

وختم ابن المقفع تقريره ببيان ما للخليفة من أثر عظيم إذا صلح.. الخ...

كليلة ودمنة:

يقول ابن المقفع إنه نقل الكتاب من اللغة الفهلوية، وقد نقل في أيام كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية، وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هرتل HERTEL على بعض الأصول الهندية الأولى، كتبت باللغة السنسكريتية القديمة، كما عثر غيره على بعض أبواب من الكتاب مفرقة. فعثروا في كتاب على باب «الأسد والثور» و«الحمامة المطوقة» و«البوم والغربان» و«الناسك وابن عرس»، و«الأسد وابن أوى»، كما عثروا في كتاب ثالث على باب «ملك الفيران» وعلى أبواب أخرى.. فجميع

1- نفس المرجع، ص 208-209.

هذه القصص هندية الأصل. ولكنهم لم يعثروا إلى الآن على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى «كليلة ودمنة»، أو أي اسم آخر.

وقد كان الباعث لابن المقفع على ترجمته ما عهدناه فيه من ميل إلى الإصلاح الاجتماعي، شاهدناه في الأدب الكبير والصغير، ورسالة الصحابة. وكتاب كليلة ودمنة يشرح بعض هذه النواحي شرحاً وافياً، فهو يتعرض للنصح بعدم الإصغاء إلى الحاسد النمام، ويبين أن هناك جزاءً طبيعياً، فعاقبة الخير خير، وعاقبة الشر شر. وينصح بأخذ الحذر من العدو، والاعتماد على الصداقة، الخ.

ويظهر أن تعمق ابن المقفع في دراسة الحياة الاجتماعية دفعه إلى استنكار كثير من الأمور، ورأى أن معظمها يرجع إلى حكام عصره، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة في زمنه، فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقداً صريحاً. وقد عاش ابن المقفع وقت نضوج فكره في زمن أبي جعفر المنصور، وهو شديد البطش، سريع إلى أعمال السيف. وكان (أبو جعفر المنصور) مؤسس الدولة العباسية وواضع نظمها، وكان يرى أنه لا يمكن تثبيت قواعدها إلا بإخماد كل حركة تضعف من شأن الدولة، أو يتوهم فيها ذلك، ويقطع رأس كل مخالف. وكان من ضحايا المنصور كثيرون قتلوا بالظنة، وتذرع في قتلهم بالاتهام بالزندقة أو نحو ذلك، وكان ابن المقفع ذاته أحد هؤلاء الضحايا[1].

لعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه المنصور بأكثر مما واجهه به في رسالة الصحابة، وقد مزج نقده بين مدح الخليفة والثناء عليه، ونسب أكثر الشدة التي يراها إلى غيره. ولكن هذا لم يشف غلته، فرأى أن أسلم طريقة أن يترجم هذا الكتاب ويزيد فيه ليعمل الكتاب في الخلفاء والرعية، ما فعله كليلة ودمنة في الهند وفارس، ولعل هذا هو الغرض الذي أخفاه في مقدمة الكتاب ولم يصرح به.

يمكن تلخيص عرض ابن المقفع من ترجمة هذا الكتاب، في أنه النصح للخلفاء حتى لا يحيدوا عن طريق الصواب، وتفتيح أعين الرعية حتى يعرفوا الظلم من العدل، وحتى يطالبوا بتحقيق العدل. ولم يوضحه ابن المقفع، لأن في لإيضاحه خطراً عليه من المنصور. ولعل هذه النزعة فيه كانت من الأسباب في الإيعاز بقتله[2].

وتدل المقارنة بين ما عثر عليه من الفصول الهندية، والترجمة السريانية القديمة، التي ترجمت من اللغة الفهلوية القديمة نحو سنة 570م، والتي وجدت في دير

1- نفس المرجع، ص 217-218.

2- نفس المرجع، ص 219.

في ماردين ونشرت عام 1876م، على أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية بل حور كثيراً في جملة ومعانيه وترتيبه، حتى يتفق والذوق العربي الإسلامي، وذوق المتأدبين في عصره. بل أضاف فصولاً من عنده أيضاً.

وقد كان لكتاب كليلة ودمنة أثر كبير في الأدب العربي، وفي غيره من الآداب. وعني الناس به عناية كبرى وحذوا حذوه. وعلى كل حال فقد أدخل هذا الكتاب على الأدب العربي القصص على ألسنة الحيوانات - نعم كان للعرب قبله شيء من ذلك كالذي ورد من أمثالهم، أن الأرنب التقطت تمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا إلى الضب، فقالت الأرنب يا أبا الحصين! قال سميعاً دعوت، قالت أتيناك لنختصم إليك، قال عادلاً حكيماً. قالت اخرج إلينا، قال في بيته يؤتى الحكم. قالت إني وجدت تمرة، قال حلوة فكليها. قالت فاختلسها مني الثعلب، قال لنفسه بغى الخير. قالت فلطمته، قال بحقك أخذت.. قالت فلطمني، قال حر انتصر. قالت فاقض بيننا، قال قد قضيت! وورد في القرآن الكريم: «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم» وقال في الهدهد «فقال أحطت بما لم تحط به» ولكن كان لكتاب كليلة، أثر من ناحية تفصيل القصص على ألسنة الحيوانات تفصيلاً طويلاً، ووضع الحكم والأمثال والعظة على ألسنتها، وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع في عصور الاستبداد. يوم كان الملوك والحكام يضيقون على الناس أنفاسهم، فلا يستطيع ناقد أن ينقد أعمالهم، ولا واعظ أن يومئ بالموعظة الحسنة إليهم. فغشا هذا الضرب من القول والقصص، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل. وكأنهم يقولون: إذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل فأولى الإنسان بذلك! وإذا كانت الولاة والرؤساء تأخذهم العزة بالإثم، ويستعظمون أن يصرح لهم بنصح أو نقد، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم! وإذا كان في التصريح تعريض الحياة للخطر، ففي التلميح نجاة من الضرر[1].

1- نفس المرجع، ص 220-221.

القسم الثاني

حضارات شمال آسيا الصغرى وشمال بلاد الرافدين في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد

(الحوريون - الكاشيون - الحثيون)

الفصل الأول

لمحة حول مسرح التقلبات السياسية والبشرية وصانعوها في الشرق الأدنى القديم

ظلت منطقة الشرق الأدنى مسرحاً للتطورات التاريخية، كما كانت عليه في العصور السابقة، وكانت منحصرة في تلك البلاد الشاسعة ذات التركيب الجغرافي المتنوع والممتدة بين البحر المتوسط غرباً وحدود جبال إيران شرقاً من جهة، وبين جبال أرمينيا شمالاً والخليج العربي جنوباً من جهة أخرى. إلا أنه لم يعد يتحكم في هذه المنطقة المترامية الأطراف مركز واحد، ذلك لأن مسرح الحوادث لم يعد يوجهه مركز تشرئب إليه أعناق سائر المناطق المحيطة به متلقية منه تلك الإيحاءات النشيطة والإرساليات الحضارية الحيوية كما كان الأمر عليه في عهد الحضارة السومرية - الأكادية. بل أصبحت منطقة الشرق الأدنى مقسمة الآن إلى مناطق كبيرة تختلف باختلاف شعوبها، وذلك كما كانت عليه حال تلك المنطقة في عصور ما قبل التاريخ. أما الصفة المميزة لهذه الشعوب فتكمن بوجودها الدائم في تنافس مستمر مع بعضها البعض من أجل توجيه دفة القيادة. بيد أنه كثيراً ما كان هذا النزاع يؤدي إلى توازن في القوى؛ حيث غالباً ما تعادلت القوى المتنازعة.

وهنا نرى تلك الشعوب الفتية، التي قدر لها أن تصبح قائدة التطور التاريخي للشرق الأدنى عقب سقوط سلالة حمورابي، وقد اصطحبت معها نظاماً اجتماعياً جديداً، يمكن مقارنته بنظام الفروسية والإقطاع في العصور الوسطى في أوروبا . وبعد غزو هذه الشعوب لمناطق الشرق الأدنى، استقر كل منها في موطنه الجديد منفصلاً عن الآخر ليدخل بطبيعة الحال في صراع فكري ومادي حاد مع الحضارة السومرية – الأكادية. لذا غيرت هذه الشعوب معالم وجه الشرق القديم، لتحل محل الوحدة المتجانسة المتراصة مجموعة معينة متفككة من الشعوب على مستوى متشابه من التنظيم الشعبي والسياسي. ولهذا كان لا بد لها أن تتحد تارة أو تتصارع باستمرار مع

بعضها البعض تارة أخرى، وكل يأمل في الوصول إلى السيطرة والقيادة لهذه المنطقة من العالم.

يمكن تصنيف الشعوب التي طغت على الشرق القديم وحكمت سكانه سياسياً في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م والنازحة إلى هذه المنطقة من الجنوب الشرقي والشرق والشمال والشمال الغربي، إلى المجموعات التالية:

1- استطاع الكاشيون تثبيت أقدامهم في بلاد بابل أثر قضاء الملك الحثي مورشيلي على آخر ملوك سلالة حمورابي باجتياحه العسكري الخاطف لبلاد ما بين النهرين.

2- أما المناطق الواسعة الممتدة من أرمينيا إلى فلسطين ومن الحدود الغربية لإيران حتى ساحل البحر المتوسط الشرقي، فقد اجتاحتها الشعوب الحورية منذ النصف الأول من الألف الثاني ق.م. لقد كان مركز ثقلهم ينحصر في شمال ما بين النهرين؛ حيث استطاعوا تدريجياً الحدَّ من توسع الساميين الغربيين، الذين سبقوهم إلى استيطان أواسط الفرات وبلاد الشام. وقد بلغ شدة تأثير الحوريين في هذه المنطقة درجة استطاعوا معها فعلاً تطعيم الشعب الآشوري عرقياً والتغلغل حتى جبال إيران. وقد يدفع هذا كله مع عوامل أخرى بالبعض للظن أحياناً أن أحكام الهكسوس غزاة مصر حوالي 1700ق.م إنما ينحدرون إلى حد ما من أصل حوري. ومهما يكن الأمر، فإن الحوريين يبقون كقوة سياسية وشعبية أكبر عظمة حضارية وتوسعية عرفتها الألف الثانية قبل الميلاد، قوة قدر لها أن تمتد من بلاد فارس حتى فلسطين.

3- أما الشعب الثالث فقد جعل من منطقة شرق آسيا الصغرى وطنه الجديد. وقد اعتدنا تسمية هذا الشعب بالحثيين انطلاقاً من تسمية أضفاها هؤلاء بأنفسهم على سكان البلاد الأصليين قبلهم، أي سكان منعطف نهر الهاليس في القسم الشرقي من آسيا الصغرى.

فمن ناحية الصفات البدنية يمكن تصنيف الحثيين في الدرجة الثانية بعد الحوريين، المجاورين لهم شرقاً، بيد أن مواهبهم العسكرية والسياسية كانت تفوق هؤلاء الحوريين، إذ استطاعوا بواسطتها الصمود بكل نجاح أمامهم في شمال بلاد الشام وشمال بلاد ما بين النهرين ومقارعة السلطة المصرية أيضاً.

تشكلت من هذه الشعوب الثلاثة لأول مرة في الشرق الأدنى - بصورة غير مباشرة - معالم أسرة من الشعوب ذات أهمية عالمية في التاريخ، تشابه أهمية أسرة الشعوب السامية في الصحراء الشامية، آلا وهي أسرة العنصر الهندي الغربي.

ولما كان من المتعذر فهم العلاقات المتشابكة وغير الواضحة تماماً إلا من خلال الدراسات التفصيلية لكل من هذه العناصر البشرية التي استطاعت منذ منتصف القرن السادس عشر ق.م قيادة وتوجيه سياسة الشرق الأدنى، لذلك يترتب على من يريد دراسة تحليلية لتاريخ الشرق الأدنى في الحقبة الزمنية ما بين 1500 و 1200ق.م، أن يراقب ويتفحص تشعب الأمور في مجاريها الزمنية المتعرجة العامة والمعاصرة. كما يتوجب على المرء إيجاد السبل لصبها في قالب واحد، بحيث تدور حول تمركز دول الشعوب الثلاثة مكان تلك الحضارة البابلية التي كانت تحتل مركز الصدارة. ومن ناحية أخرى لم تشكل هذه الشعوب في الأصل مجموعات بشرية متكاملة، بل كانت وحدات نشأت تدريجياً من اتحاد فئات بشرية متباينة.

ولقد استمرت إلى جانب هؤلاء من وراء الستار الطاقات الشعبية والسياسية لسكان البلاد الأصليين.

إن القسم الجنوبي من بلاد بابل الواقع على الخليج العربي والمسمى ببلاد البحر، أرض سومر الحقيقية، كان قد استقل تحت حكم ملوكه المحليين في عهد خلفاء حمورابي الضعفاء. واستطاع هذا الجزء لوقت ما أن يضم قسماً ملحوظاً من أرض بابل إليه. واستمرت بلاد البحر بالحكم في الحقبة الأولى للسيطرة الكاشية تحت قيادة حكام أطلقوا على أنفسهم ألقاباً سومرية قديمة[1].

وهكذا، عندما انتصف الألف الثاني ق.م (نحو 1450)، كانت الأوضاع الدولية قد تغيرت تماماً، وتبدل مصور الشرق الأدنى القديم بصورة كلية. أما القوى الدولية الأساسية بعد ذلك التغيير فهي: إمبراطورية ميتاني (الحوريون) ومملكة بابل الكاشية، والإمبراطورية الحثية، والإمبراطورية المصرية. وهكذا استطاعت تلك الشعوب التي كانت تعيش في السابق في مواقع ومناطق متطرفة على هامش الحياة الدولية أن تنتقل إلى واجهة المسرح الدولي للقيام بأدوار أساسية طوال ثلاثة قرون.

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب: توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير. وزارة الثقافة، دمشق 1981، ص 171-177.

كانت تلك هي الدول الكبرى التي توزعت النفوذ في المنطقة، وقامت فيما بينها علاقات متشابكة، تفاوتت ما بين النزاع والعلاقات الدبلوماسية والتجارية. ولأول مرة في التاريخ يحدث تغير نوعي في العلاقات الدولية بنشوء احتكاك مباشر بين القوى الدولية بعد توازن استمر أمداً طويلاً بوجود فراغ كبير كان يفصل في السابق بين الممالك والدول. أما التوازن الجديد فقد نشأ عن تزاحم هذه القوى واحتكاكها وتصارعها، ثم اقتسام النفوذ في المناطق الاستراتيجية للمحافظة على أمن كل دولة من الدول، ولحماية المصالح الاقتصادية والتجارية لكل منها[1].

وفي وسع الباحثين أن يرجعوا إلى الوثائق الوفيرة عن هذه المرحلة من التاريخ، والتي تتضمن مجموعات وثائق المحفوظات في القصور الملكية المكتوبة باللغة البابلية والخط المسماري على ألواح الطين. وقد وجد من هذه النصوص في موقع تل العمارنة (أخيت آتون) في صعيد مصر. وهناك الوثائق الاقتصادية والسياسية المكتشفة في أوغاريت، وكذلك الوثائق الدبلوماسية والحوليات التي عثر عليها في الديوان الحثي في حاتوشا (بوغازكوي) العاصمة الحثية وسط الأناضول، وفي أشور وبابل. أما الثغرة الكبيرة التي تحول دون رسم صورة كاملة للوضع الدولي في المنطقة في تلك الفترة، فسببها عدم العثور على موقع العاصمة الحورية (وأشوكاني) الذي لا يزال غير معروف حتى الآن.

وبانتظار هذا الكشف الهام، فإن الوثائق المتوافرة حالياً بين أيدي الباحثين كافية للتعرف على التطورات السياسية والدولية في تلك المرحلة من التاريخ.

وكان انشغال مصر في أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة بظروفها الداخلية آنذاك فرصة أتاحت للإمبراطورية الحثية التحرك في المناطق السورية بصورة مثيرة للقلق، وقادت مصر من جديد إلى التصدي للحثيين بقيادة حور محب أولاً ثم بقيادة فراعنة الأسرة التاسعة عشرة سيتي الأول ثم رعمسيس الثاني لهذا التحرك الحثي.

كانت تلك هي الدول الكبرى في المنطقة في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، لكن كانت توجد أيضاً دول عديدة أخرى في سورية وبلاد الرافدين تابعة لهذه الدولة الكبرى أو تلك. ولم تكن الحدود السياسية ثابتة على حال واحدة خلال ذلك العصر،

1- د. محمد حرب فرزات و د. عيد مرعي: دول وحضارات في الشرق العربي القديم، ط 2، دار طلاس، دمشق، 1994، ص 159-160.

فقد كانت تتغير ظروف التوازن الدولي، ويتغير رسم الحدود تبعاً لفعاليات الدول والعلاقات القائمة فيما بينها.

وإذا كان من الصعب التعرف على الحدود السياسية للدول بشكل صحيح، فإنه ليس من السهل تحديد الحدود العرقية واللغوية بدقة في خارطة المنطقة. وإننا إذا نظرنا إلى أحوال السكان من الزاوية الاجتماعية – الثقافية، فإننا نجد معظم السكان في الريف من الفلاحين وهم مستقرون أو أشباه البدو، في مرحلة وسط بين البداوة والحضارة. أما في المدن فنجد التجار والصناع موزعين على أحياء المدينة وأسواقها بحسب صنائعهم. ويتكلم معظم هؤلاء السكان لهجات سامية غربية كنعانية وآرامية في غرب الفرات وأكادية بلهجة آشورية أو بابلية في آشور وبابل، ونجد في المناطق الانتقالية قبائل أمورية عديدة، تختلف لهجاتها قليلاً أو كثيراً عن الأكادية أو الكنعانية. وهناك تجمعات حورية مبعثرة في مناطق كثيرة، ولكن معظم الحوريين ينتشرون على شريط يمتد من زاغروس إلى الأمانوس. وينبغي مع ذلك أن يذكر أن السكان كانوا مختلطين ومتداخلين بصورة عامة، ولم يكن هناك فصل بين المجتمعات على أساس لغوي. فبينما كان يكثر عدد الحوريين في وادي الخابور، كان أكثر السكان من الناطقين بلهجات تنتمي إلى العائلة اللغوية السامية (العربيات القديمة). وبينما كنا نجد عناصر حورية في ألالاخ في سهل العمق في وادي العاصي الأدنى، فإن العناصر الأمورية كانت تنتشر في حلب وفي وادي الفرات وبخاصة في منطقة ماري وبلاد بابل.

وقد تمكنت العناصر الحورية في شمال بلاد الرافدين وفي الجزيرة وشمال سورية أن تشكل دولة كبيرة هامة في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م هي مملكة ميتاني بعد أن تضاءلت قوة مملكة بابل. وكانت هذه الدولة تتألف من مجموعة كبيرة من الدويلات والإمارات ترتبط برأس الدولة وهو ملك ميتاني ارتباطاً شخصياً واهياً أحياناً وشبيهاً بالارتباط الإقطاعي. وكان على رأس الدولة والمجتمع أرستقراطية آرية بالإضافة إلى العناصر الحورية القديمة. وقد كونت هذه الدولة، مع مملكة آشور التي كانت تابعة لها، أكبر قوة سياسية في غربي آسيا خلال القرن الخامس عشر، امتدت من جبال زاغروس شرقاً إلى الأمانوس غرباً، ومن كيليكية شمالاً إلى جبال لبنان جنوباً[1].

1- المرجع السابق، ص 160-161.

ولكن في الربع الأخير من هذا القرن دخل عامل جديد في معترك الصراع في سورية الشمالية، عندما أخذت الإمبراطورية الحثية في مدّ نفوذها نحو الجنوب، بعد أن تنامت قوتها، ما أدى إلى الاصطدام المباشر مع مملكة ميتاني، وإلى إيجاد الظرف المناسب لتوطيد التحالف الميتاني – المصري. إنه لمن المستحيل إعطاء صورة حية ذات تفاصيل وافية عن الشعوب المختلفة لتاريخ الشرق الأدنى خلال الحقبة الواقعة ما بين 1500 و 1200ق.م، وأن نتعقب في الوقت نفسه تشابك الحوادث الدولية والحقائق جاعلين منها وحدة تامة، ذلك لأننا نرى التوازي الزمني للروايات التاريخية يتحول إلى ترادف فيها. وهكذا لم يبق لنا – مع الإشارة إلى الخطورة في تكرار الحوادث التاريخية – سوى مخرج واحد، وهو معالجة تاريخ كل دولة أو شعب قيادي على حدة، بعد أن أشرنا إلى الخطوط الرئيسة لمجرى التطور العام للتاريخ السياسي.

بلاد بابل تحت حكم الكاشيين

إن الاضطراب الذي حلَّ في مواطن الأقوام الهمجية في الألف الثاني ق.م وإزاحة هذه الأقوام بعضها بعضاً وهجرة أقسام منها إلى أنحاء الشرق الأدنى، كان السبب في القضاء على المملكة المصرية الوسطى على أيدي الهكسوس. وبعد أن غزا الحثيون بابل في أواخر الأقوام التي ذكرناها، طردهم الكاشيون الذين حلوا محل الحثيين بعد غزوهم العراق. وقد أسس الكاشيون سلالة جديدة في بابل، عرفت باسم سلالة بابل الثالثة. وكانت نهاية سلالة بابل الأولى في حدود 1600ق.م. ويشير مجرى الحوادث إلى أن الحثيين لم يبقوا زمناً طويلاً في البلاد، بل كانت غايتهم السلب والنهب. ولعل الكاشيين هم الذين طردوهم.

أما الكاشيون فقد جاؤوا من شرق العراق أو شماله الشرقي. ويظهر أن عددهم كان قليلاً. وقد أسسوا سلالة حاكمة دام حكمها زهاء خمسة قرون (من بداية القرن السادس عشر ق.م إلى القرن الحادي عشر ق. م) وعرفت سلالتهم في بابل. أما سلالتها الثانية فكانت مؤلفة من ملوك يرجح أنهم كانوا من الأمراء السومريين، استقلوا في القسم الجنوبي من العراق بالقرب من شواطئ الخليج، ولذلك عرفت سلالتهم باسم سلالة أرض البحر.

اختلف المؤرخون في أصل الكاشيين، والشائع أنهم من القبائل الجبلية في المنطقة الكائنة إلى شرق دجلة وشمال شرقها، وأنهم فرع من الأقوام الهندية الأوروبية. واسم الكاشيين مشتق من اسم إلههم القومي على ما يرجح. ولم يخلف لنا الكاشيون وثائق وسجلات تأريخية مدونة بلغتهم القومية، وإنما استعملوا لغة البلاد الأصلية أي اللغة البابلية السامية، واستعملوا كذلك اللغة السومرية في بعض المآثر الدينية، على نحو ما كان يفعل أهل البلاد، وما ذلك إلا لأن حضارة البلاد التي فتحوها قد طغت عليهم واندمجوا فيها، لأنهم كانوا دون هذه الحضارة في المرتبة، كما

طغت الحضارة العربية الإسلامية على هولاكو وأتباعه الفاتحين. ومع ذلك يستدل من بعض المفردات التي جاءت في بعض المعاجم البابلية وكذلك من أسماء الإعلام التي جاءتنا من هذا العهد، على أن لغة الكاشيين تعود إلى عائلة اللغات الهندية الأوروبية، ولا يستبعد كثيراً أنهم من القبائل الكردية القديمة[1]. اهتم الكاشيون كثيراً بالتراث الثقافي واحتفظوا بالآلهة والطقوس والاحتفالات الدينية البابلية. وقام الكتّاب والنساخون بنقل أعمال الأجيال السابقة ونسخها، واختاروا منها مجموعات ومصنفات، أضحت منذ ذلك الوقت المرجع المعتمد عند دراسة الأدب البابلي. وتتألف هذه الأعمال من نصوص طقسية وتنبؤات وتعاويذ ومقالات في الطب وجداول معجمية اتخذت صيغاً مقننة ومعتمدة من هيئات الكتاب والكهان المتفرغين للنسخ والتصنيف والتأليف، وكأنهم كانوا يشكلون أولى الأكاديميات والمجامع اللغوية في التاريخ. ولقد أعيد النظر تعديلاً وصياغة في أهم عملين من الأعمال الأدبية الميثولوجية أنتجتهما الحضارة الرافدية وهما: ملحمة الخلق، وملحمة جلجامش. واستطاعت اللغة البابلية تأدية دور أكبر بقيامها بدور الوسيط الثقافي والحضاري، وانتقل كثير من مفرداتها إلى لغات الشعوب الأخرى.

أما في الميدان الاقتصادي، فإن الطابع العام للدولة البابلية في العصر الكاشي هو الطابع الإقطاعي. وهو طابع العصر آنذاك، وكان واضحاً في الدولتين الحثية والميتانية. والمهم هو أن التحول نحو هذا الاتجاه بدأ منذ عصر الأسرة البابلية الأولى؛ فالإقطاعات الشخصية غير القابلة للتوريث أصلاً بدأت تتحول إلى إقطاعات موروثة، ولكن بقي حملة الألقاب المستفيدون من النظام مسؤولين عن تنفيذ الالتزامات والخدمات المفروضة تجاه الملك. وكانت العلاقات الاجتماعية والمالية بين المستفيدين قوية ومغرية لتكوين الثروات الكبيرة. وكان من الممكن الحصول على إعفاءات تزيد من تراكم الثروات. وبالتالي أن يحل المالك محل الدولة في التصرف وجمع الأرباح لحسابه. وهكذا ارتبط المزارع الصغير بسيد كبير، وتكونت إلى جانب الدولة طبقة من الأغنياء الأقوياء المالكين، أخذت تنافس الدولة وتقاسمها على مواردها. والنتيجة هي تصاعد نفوذ أسر كبيرة أرستقراطية، أخذت تستمد قوتها من وضعها الاقتصادي الجديد. وقد بلغ هذا التغيير أقصى درجة من الحدة في الوقت الذي اشتدت فيه

1- طه باقر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، بغداد، 1958، شركة التجارة والطباعة المحدودة. ص 156-157.

وطأة الهجمات والغزوات الخارجية على المنطقة، وحين كانت السلطة المركزية القوية والقادرة ضرورية جداً. وهكذا حين اجتاحت المنطقة حركات الشعوب في شرقي البحر المتوسط وفي كل الشرق الأدنى القديم، لم تكن بابل هي التي تلقت النتائج الأولى للغزو. لقد تلقت البلاد المجاورة أشد الضربات، وانهارت الإمبراطورية الحثية، واجتاحت شعوب البحر الساحل السوري - الفلسطيني ودلتا النيل وبرقة في ليبيا - بينما عمَّ الانتشار الآرامي كل سورية وبلاد الرافدين.

وهكذا يتضح أن بلاد الرافدين، التي كانت مركز الثقل السياسي قروناً طويلة في عصور أكاد وأور الثالثة وحمورابي، لم يكن في مقدورها أن تكون العامل المركزي المؤثر في سياسة المشرق العربي القديم بعد ظهور القوى الدولية الأخرى خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. ولقد بقي دورها بلا شك مرعياً، إلا أنه حدث اختلال في التوازن بين دور بابل الدولي السابق ودورها الحضاري الذي بقي متفوقاً حتى العصر الهلنستي[1].

لم يصلنا أي خبر مكتوب عن احتلال كاشي عسكري لبلاد بابل، سوى ما ذكره خليفة حمورابي البابلي سمسو - إلونا في السنة التاسعة لحكمه عما أسماه بطلائع الكاشيين. لقد عاش الكاشيون من قبل في بابل زمناً طويلاً بعد أن تغلغلوا سلمياً في المجتمع البابلي. غير أن وثائق القرن السادس عشر ق.م تذكر الكثير من أسماء الكاشيين عملوا في مواسم الحصاد أو كانوا مستخدمين في الحقول. وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن هذه الهجرة إنما تمت بصورة سلمية. حدث هذا على الأرجح في الوقت الذي كان فيه رؤساء القوم الأشداء ما يزالون يقيمون في موطنهم الجبلي، بلاد الإله كاشو، الذي ظل اسمه بعد ذلك لمدة طويلة مقترناً بمنطقة لورستان، ولم تكن هذه المنطقة الموطن الأول للكاشيين، في الوقت الذي يجوز فيه أن يكون اسم إلههم على علاقة باسم بحر قزوين. وبالإضافة إلى ذلك تبدو أيضاً تلك البقايا القليلة للغتهم التي وصلتنا على شكل فهرس مع ترجمتها الأكادية وكأنها ترينا نوعاً من القرابة مع اللغات القوقازية.

كذلك تدلنا أسماء آلهتهم، التي بقيت حية في أسماء العلم لديهم، على تلك العلاقة مع القوقاز. وحتى هذا لا يتم إلا بصورة غير مباشرة، وذلك عن طريق فهارس المقارنة المكتوبة التي تعدد هذه الآلهة مقابل مال يوازيها من الآلهة السومريين

1- د. محمد حرب فرزات ود. عيد مرعي: دول وحضارات في الشرق العربي القديم، ص 172-173.

والأكاديين. كما تقودنا بعض أسماء آلهة الكاشيين مثل شورياش، الذي ربطه بعضهم وبحق مع إله الشمس الهندي سرياً، ومثل ماروتاش (ماروت الهندي) أو مثل بورياش (اليوناني) إلى الظن أن الكاشيين كانوا على صلة بالهنود الغربيين. وتأكيداً لذلك نجد أن قسماً من طبقة أمرائهم القياديين كان من الهنود الغربيين.

وللأسف الشديد فإن كل شيء كاشي يبقى لدينا مظلماً بسبب الطغيان الشديد الكاسح للحضارة البابلية، الذي أقعدهم عن تطوير أي نوع من الأدب الخاص بهم سواء كان تاريخياً أو دينياً[1].

اتصف كامل العصر الكاشي في بلاد بابل بميزة بمنتهى الغرابة، ألا وهي عدم التطور، بل التشنج والجمود، لدرجة يشكل معها هذا العصر تناقضاً كبيراً إذا ما قيس مثلاً بالعصر الأكادي. وقد ينتابنا شعور بأن ما من توترات قد صبغت العلاقة بين الغزاة وأهل البلاد الأصليين، وكأن كل شيء في خمول وركود. ولا يكاد يوجد من بين الحكام الكاشيين من خرج عن هذه المجموعة من الملوك أو شذ عن هذا الخط العام ليبرز بصفات خاصة به. حتى ولا يكاد يوجد بينهم من خلف أثراً يشيد بإنجازات هامة له.

أضفى ملوك الكاشيين الأوائل (جانداش وآجوم وكاشتيلياش الأول) على أنفسهم اللقب الملكي القديم: «ملك جهات العالم الأربع، ملك سومر وأكاد، ملك بابل». حدث هذا في الوقت الذي وجب عليهم الكفاح حتى من أجل الاحتفاظ بعرشهم. ولقد كان هذا الكفاح ليس ضد البابليين الذين بدوا وقد استنفذت كافة قواهم الحربية، وإنما ضد حكام السلالة الحاكمة لبلاد البحر في بلاد ما بين النهرين. ولذا فقد ظل الكاشيون في نزاع مستمر مع هؤلاء، إلى أن استطاع الملك الكاشي الثاني عشر أولام بورياش التغلب على آخر ملوك بلاد البحر أيا جميل وطرده إلا بلاد عيلام. وعند ذلك بالذات استتب الأمر للكاشيين، فأصبحوا وكأنهم السكان الأصليون في بلاد بابل وأصحابها الشرعيون[2].

وهكذا نرى ملكاً يدعى كارايندااش عاش في منتصف القرن الخامس عشر ق.م يترك نطاق الظلمة فيدخل منطقة الضوء ليصبح أكثر وضوحاً،حسب ما أظهرته لنا التنقيبات الأثرية في العاصمة السومرية أوروك (الوركاء) التي كشفت عن معبد صغير

1- أنطون مورتكارت: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص 190-191.

2- المرجع السابق، ص 191.

كان قد بناه هذا الملك هبة منه إلى الربة إنانا. ورغم أن هذا المعبد ليس بذلك المبنى الكبير الجبار، إذا ما قيس بأبعاد تلك الأبنية الكبيرة السومرية والأكادية في أوروك، إلا أنه يرينا بأسسه وارتفاع جدرانه صفات خاصة تميزه عن فن البناء الأقدم عهداً في بلاد بابل.

يتألف المخطط العام للبناء من غرفة طولانية الشكل مع ضالة أمامية. ويحيط بالأولى قاعات جانبية صغيرة. وإضافة إلى ذلك يتميز المعبد بارتفاع واجهته الأمامية المبنية من آجر يؤلف صفوفاً متناوبة بأشكال بارزة تمثل آلهة الجبال والمياه، التي تستقبل الناظر إليها وجهاً لوجه. ولتبلغ مكانة هذا المعبد مهما بلغت من البساطة، فإنه يبقى كبرهان حي جلي للحضارة الكاشية الخاصة وعلاقتها مع حضارة الشعوب الجبلية[1].

وإذا ما تفحصنا عن كثب مستوى الحكام الكاشيين على الصعيد السياسي، بالشكل الذي نقلته إلينا مراسلات «تل العمارنة»، نجده ليس بأحسن حظاً من مستواهم الحضاري. فرغم وجود عدد من رسائل وجهت من الملوك الكاشيين للحكام المصريين التي تبين لنا تساوي الملكين منزلة، مخاطباً كل منهما الآخر بتعبير «أخ»، تبقى الحقيقة المحزنة واضحة، وهي أن الملوك الكاشيين كانوا يرسلون بناتهم إلى دار حرم فرعون مصر.

كان يحدث ذلك ولو كانت تمضي سنون عديدة على وجودهن في مصر دون أن يتلقى آباؤهن منهن أي خبر عن مصيرهن. أما الواقع فكان الشاغل الرئيس للملوك البابليين، وهو كيف تصل يدهم إلى الذهب المصري، كي يستطيعوا تثبيت أقدامهم في الحكم، وبالتالي تبوئهم مرتبة الملوك الكبار إذا ما حظوا بشرف الزواج من أميرة مصرية. ولما كان الحاكم المصري لم يقتنع بفكرة زواج إحدى بناته من ملك كاشي، نرى هذا الأخير يضطر لاجئاً لمحاولة إقناع فرعون مصر بأن يرسل على الأقل مصرية جميلة إلى بابل، ليصار إلى جعلها أميرة شرعية يفتخر بها البيت الكاشي وكأنها أميرة من البيت المصري المالك. وهنا يلمس المرء الفارق الشاسع بين عظمة حضارة عريقة في القدم يمثلها الملك المصري، وبين بيت مالك لا يزال يعيش على ضوء وتحت ضغط الحضارة البابلية القديمة يسعى جاهداً للاعتراف به بشكل تام.

1- نفس المرجع، ص 192.

وقد برهنت آخر الحفريات التي أجريت في خرائب عقرقوف، التي تبعد بعض كيلو مترات إلى الشمال من بغداد، في المكان الذي كانت ترى دوماً زقورة عالية الارتفاع، أن الملوك الكاشيين اتخذوا سنة لهم كالملوك الآشوريين بتأسيس مقر جديد لملكهم، يجب أن يكون المؤسس الأول لهذه المدينة الملك كوريجا لزو أحد ملوك القرن الخامس عشر وسلف الملك كار ينداش. أما المحدد والمتمم لبناء المدينة فقد كان ملك آخر يحمل اسم الباني الأول وأحد خلفائه وهو كوريجا لزو الثالث. ورغم ذلك فقد بقيت المدينة تحتفظ بلقب ابنها الأول فسميت «دور كوريجالز». وهنا نرى أن الطابع المعماري البابلي القديم في فن العمارة يتجلى في الكثير من معالم هذه المدينة. بيد أن هناك بعض الميزات الفنية الخاصة بالكاشيين كالرسوم الملونة على الجدران مثلاً، التي تذكرنا بفن الشعوب الجبلية الأخرى المعاصرة والغازية أيضاً لأرض الشرق الأدنى[1].

ولقد قدر لما يسمى بالـ «كودورو»، أي علامات من الحجر لتحديد الأراضي الزراعية، أن تنير لنا بعض الشيء جانباً آخر من الحضارة الكاشية وذلك في المجالين الاقتصادي وتاريخ الفن. إنها أنصاب تعد من أقدم ما عرف أولاً عن هذه الحقبة التاريخية. عثر على العديد منها في مدينة سورا، عاصمة عيلام (في جنوب إيران)، حيث نقلت من بلاد بابل كغنائم لتلك الحرب التي شنها أحد ملوك عيلام على بلاد ما بين النهرين فيما بعد. تتميز هذه القطع بشكلها الطولاني المخروطي الذي يتسم أغلب الأحيان بعدم الإتقان في نحت جوانبه، ولقد وضعت هذه الحجارة في الأصل خصيصاً لتكون علامات مقدسة تفصل بين تلك الحقول الزراعية، التي قام الملك بإقطاعها لموظفين كبار أو كهنة أو وقفها للمعابد. وكثيراً ما وضعت هذه الحجارة إلى جانب الحقول الزراعية التي تحددها.

تحمل هذه الحجارة بلا استثناء نص إقطاع الأرض وبجانبه نقش يمثل صفاً طويلاً من رموز الآلهة أو شعارات لها كشهود على صحة نص الوثيقة. إن ميل الكاشيين إلى طريقة إبراز آلهتهم بالرموز المجردة بدلاً من الشكل البشري، دفع بهذا القسم الضئيل المتبقي لدينا من الرسم في هذا العصر لأن يفقد أيضاً جانباً من وضوح محتواه.

1- المرجع السابق، ص 193.

أما فيما يتعلق بالأختام الأسطوانية الكاشية، فإنها لا تستطيع أن تكون بديلاً عن الفن التشكيلي من الأحجام الكبيرة التي يفتقر إليها هذا العصر، وذلك لأنها لا تخصص سطحاً كافياً للصورة المرسومة عليها بالقدر نفسه الذي تتركه على الأسطورة الكتابية المرفقة إلى جانب الصورة.

وعلى العكس من العصور السابقة، أصبحت الأسطورة تتصف الآن بالطول لتعرضها إلى ذكر صلوات تفصيلية. ورغم أن الآلهة في عصور أخرى من تاريخ الشرق الأدنى، سواء كانت سابقة لعصرنا هذا كفجر التاريخ أو لاحقة به كالعصر الآشوري الحديث، قد جسمت بإشارات ورسوم مجردة، نجد أن الابتعاد الواضح عن تخيل الآلهة ورسمها على صورة إنسان في فن الرسم والنحت للعصر الكاشي لأكثر من أن يكون بادرة ظهرت بطريقة الصدفة. إذ من الممكن أن يكون لهذه الظاهرة ارتباط بتلك العلاقات القديمة للطبقة الحاكمة الكاشية بالديانة الهندية الغربية، وفي ذلك الظرف العام الذي أخذ في تحول ديني شامل مهد له ليشق طريقة الجديد في العصر الكاشي، والذي لا يمكن تفسيره سوى بتركيز هذا العصر على أهمية السلوك المثالي[1].

إن مجمع اللاهوت السومري - الأكادي وتلك الأساطير الدينية، التي حيكت حول بعض الآلهة على مر مئات السنين، لم تكن كلها سوى تشخيص لقوى الطبيعة ووصفاً لجوهر علاقات هذه القوى الخارقة، الطيبة منها والشريرة، في شكل صداقة وعداوة بشريتين: على شكل حب وكراهية أو مساعدة، وصراع خبث وقوة. كذلك لم تكن أساطير الآلهة السومرية والأكادية في الأصل، شأنها شأن الأساطير الهومرية، ذات ارتباط بالمبادئ الخلقية، كما لم يكن الصراع بين الجيل الجديد لآلهة الفضاء ضد الجيل القديم لآلهة دار الفناء في الحقيقة صراعاً ذا طابع أخلاقي، وإنما كان يدور حول مشكلة قيادة السلطة وأحقية كل منها في تنظيم الكون.

كان العلماء من الكهنة هم الذين أخذوا ينقحون الملاحم الدينية في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م أي في العصر الكاشي، والنتيجة أنه قد حذفت من الملاحم الدينية تلك الأساطير، التي تؤكد بصورة خاصة على الصفات البشرية للآلهة.

ولم يعد ذا أهمية هنا الأفكار التي تدور حول صراع الآلهة بعضهم ضد البعض في تلك المواقف التي تلعب فيها الآلهة دور حامية الخير ضد الشر.

1- نفس المرجع، ص 194-195.

لم يخلّف علماء اللاهوت لنا سوى تلك الأساطير الدينية التي ترتكز على معنى خلقي مثالي. ولم تشذ عن تلك القاعدة سوى ملحمة جلجامش، التي لم تحافظ على مستواها من الأهمية - رغم تجردها عن أي هدف مثالي - إلا تبعاً لعمق نظرتها العامة بتحليلها للمشاكل الإنسانية.

وكما هي الحال غالباً عند حكم الأجنبي، كان أيضاً عصر الحكم الكاشي الأجنبي بالنسبة إلى الشعب البابلي عصر اليقظة وعصر العراك مع مصيرهم المحزن - لقد وجب وجود تعليل أعمق وأبعد مدى لتلك الصدمة العنيفة التي ظهرت معالمها في تقييد الحرية السياسية وفي الانهيار الاقتصادي. ولم يستطع المرء إيجاد سبب ذلك وإدراك حقيقته، سوى في ابتعاد الآلهة عن أتباعها وغضبها عليهم. وفي المقابل لا بد إلا وأن يكون هناك من سبب لهذا التخلي من جانب الآلهة عن الشعب، والذي كان هو الإثم الذي اقترفه الشعب البابلي بحق آلهته. ولما كان مفهوم الآلهة قد تطور، حيث ارتفع ليتطرق إلى المبادئ الاجتماعية الخلقية العامة، لم يعد باستطاعة المرء التكفير عن الخطيئة المقترفة فقط باتباعه تطبيق سبل كيفية العبادات والطقوس الدينية المادية من إقامة الأفراح الدينية وغيرها من الأضاحي. إذ أخذت الآلهة، التي تجسد مبادئ السلوك المثالي الكامل للخليقة، منذ الآن ترسم وتحدد للفرد وللشعب بأجمعه أسساً لعلاقاته وطرقاً وأنظمة لسلوكه الاجتماعي العملي. ونتيجة لذلك لم يعد في الإمكان البحث عن علة هذا الانحطاط الشعبي سوى في ذنب واحد عام، وهو اقتراف الخطيئة المسلكية.

إن الآلهة لتطلب من البشر مقابل حمايتها التي تنعم بها عليهم، روابط مسلكية خلقية تحدد علاقاتهم مع بعضهم البعض. وإذا ما قدر للآلهة التخلي عن هؤلاء، فإن ذلك لبرهان أكيد على اقترافهم للخطيئة[1].

ولما كان شعور الإنسان البابلي بالذنب والخطيئة قد تيقظ لهذه الدرجة، فقد فتح بذلك الطريق للغلو والتطرف فيه، لدرجة بلغ فيها الإحساس المتواصل بالنقص والتعقيد النفسي البشري العام أمام الآلهة. ولقد قدر لهذا الشعور أن يبلغ بعد ذلك درجة من الأهمية عند سكان بلاد ما بين النهرين، لا تقل عما أصبحت عليه اليهودية والمسيحية. ونتيجة لذلك تولدت النظرة بأن كل عذاب ليس إلا عقوبة على خطيئة سواء اقترفت عمداً أم سهواً. وقد وردت بعض هذه المعاصي، في فهرس يعددها إثماً

1- نفس المرجع، ص 196.

إثماً، التي على الإنسان أن يقطع على نفسه عهداً مع الإله بعدم ارتكابها ويقضي بلوم مرتكبها في المجتمع، تبعاً لوصية الإله. وعلى سبيل المثال، فإن قطع مثل هذا العهد لا يقتصر على تحريم الفتنة بين أعضاء الأسرة الواحدة، بل كذلك بتحريم عدم الإخلاص للأصدقاء ونكران الجميل وكذلك بمنع الكذب والافتراء بشتى أنواعها والحرص على قول الحقيقة غير منقوصة، وحتى تحريم استخدام القوة ضد أسرى الحرب، أي معاملة الأعداء معاملة حسنة.

إن هذا التركيب المسلكي للعلاقات الإلهية - البشرية يتطلب في المقابل وجود مبدأ حتمي آخر معين معاكس هو: إذا ما كانت المصيبة بمثابة عقوبة لمعصية ارتكبها الإنسان، فيجب أن تكافأ البراءة والطهارة بإنقاذ البريء من المصيبة.

وفي الواقع لقد نشأ نوع من أدب الحكمة يشابه إلى حد ما الحكم والأمثال المصرية القديمة واليهودية، يبحث عن مسلك ينير للإنسان كيف عليه أن يعيش دون أن يصطدم مع وصايا الإله الاجتماعية كي يبقى بخير وسلام. وستجد كل هذه الأشياء منبعها الفكري في نفسية الشعب البابلي المعذبة تحت براثن الحكم الكاشي. بيد أنه لا يوجد في أدب الحكمة ما يستطيع أن يغير من الحقيقة - شأن الحال عند اليهود - أن الصالح يصاب بالكوارث في بلاد بابل، بينما ينعم الظالم بالسعادة وبخيرات هذه الدنيا. لقد شكل التناقض الرئيس بين العدالة والمجهود الإلهي من جهة ونكبة الإنسان البريء والصالح من جهة أخرى، المشكلة نفسها التي تتعرض لها قصة أيوب بعد ذلك، شكل مادة حية رئيسة لمزمور كبير، حتى في بلاد بابل لنهاية الألف الثانية ق.م. ولا يوجد هناك من مخرج لهذه الحيرة، سوى في الإيمان بعجز التفكير البشري أمام الإرادة النهائية المسلكية للإله الأكبر. أما الشيء الذي لا يمكن فهمه فهو سبب تلك الآلام الكثيرة التي يعانيها في الوقت الذي بدت فيه قوته وكأنها قريبت من الزوال. ولذا فقد بدأ أحد أناشيد التظلم بالكلمات الآتية:

أريد تقديس سيد الحكمة
نظرت خلفي فإذا بالصعاب
تطاردني
وكأن ما من قربان قد قدم لإلهي
مني

أولم يسمَّ باسم إلهي عند الطعام،

وكأني لم أخر على وجهي راكعاً	وكأن سجودي لم يكن للعيان واضحاً
أو كامرئٍ خرس لسانه	وسد فوه عن الترجي والصلاة
وأبطل الأعياد	وأهمل التضحيات
ذلك الذي لم يناج ربه	ملتهماً حتى طعامه
تاركاً ربته	دون أن يقدم رقيماً طينياً لها
مقسماً بإلهه المقدس	بكل خفة وبساطة

هكذا ظهرت أنا

ولكني لم أفكر إلا بالتوسل والصلاة

لقد كانت الصلاة إحساسي	والقربان واجبي الأول في الحياة
كان يوم تقديس الإله	رغبتي القلبية
وعرس الربة لي	ربح وغنى (وحمية)
كانت الصلاة من أجل الملك	لي فرحة
والعزف على الأوتار	لي رغبة
فالذي يعيش ليلاً	قد يصبح في النهار ميتاً صريعاً
لقد أظلم فجأة	فيسحق سريعاً
في لحظة ما تراه	يغني ويلعب
لتجده بعدها في الـ «نو»	يولول كالأم الثكلى
وكما يتبدل الضياء والظلمة	تتغير الإرادة

إن خاتمة هذه الحكمة ليست في الواقع إلا استسلام الإنسان للإله الأعظم وإرادته، التي لا يحيط بها علم، ومن ثم عجزه عن التمييز بين الخير والشر.

ولهذا يجوز لنا الاعتقاد أن تطور التفكير الديني الخلقي للشعب البابلي، قد بلغ هذه النقطة في نهاية الحكم الكاشي وأي طريق ومسافة قطعها هذا التفكير منذ أن

اعتقد الإنسان في العصر السومري، أن المرض والمصيبة ليسا سوى نتيجة هجوم الجن الشرير على إنسان معين دون أن يكون في ذلك أي صدى للموقف الخلقي[1].

وصلنا شعر آخر على شكل حوار بين صديقين، أعاد العلماء تاريخه إلى العصر البابلي المتأخر، وذلك انطلاقاً من أسلوبه البليغ. إلا أنه من الممكن أيضاً أن يرقى زمن هذا الشعر إلى أقدم من ذلك؛ بحيث قد يعود إلى العصر الكاشي. إن هذا السفر الواسع والمفصل، كقصة أيوب، يؤكد كنشيد مديح حكمة مردوخ على العجز الجذري للمقاييس البشرية الخلقية، وكذلك على عدم استطاعة البشر معرفة الإلهي للعدالة.

رغم أن درجة السلوك الديني التي وصلها المرء في هذين الشعرين قد تجاوزت حقاً تلك القمة التي تنسجم عملياً والاعتقاد الديني للشعب، إذ لم تعد تلك الدرجة من هذا السلوك تتفق ومصالح الشعب في نظرية العجز البشري التام لمعرفة خبايا القدر، إلا أنها تبقى تشكل نقطة انطلاق لتقييم السلوك والورع الدينيين في الشرق الأدنى القديم. كما أنها ترينا أيضاً بشكل عام أن التطور الفكري يجب ألا يرتبط أبداً بالانهيار السياسي والاقتصادي.

غير أن الذي لا يمكن إدراكه حالياً هو ما إذا كان الكاشيون، الذين لم يشكلوا في الواقع سوى طبقة حاكمة بسيطة، قد أثروا فعلاً في الربط بين الدين والسلوك الاجتماعي. إننا نعلم بكل تأكيد أن الكاشيين قد احتفظوا بآلهتهم الخاصة التي أتوا بها من موطنهم الأصلي كونهم استشهدوا بها أول الآلهة عند إبرامهم للعقود. ورغم ذلك فإننا لا نستطيع الظن بأي شيء حول الماهية الخاصة لهذه الآلهة أو حتى شكل كيفية عبادتها أو دورها الخلقي.

ومن الممكن أن يكون قد انبثق عن الاعتقاد الديني الشعبي نوع آخر من الاتجاه الديني، الذي وإن لم يكن قد أدى إلى تغيير جوهري في الاعتقاد البابلي الديني، غير أنه قاد إلى توسع في أحد فروعه: كالاعتقاد بعالم الجن والشياطين والسحر والشعوذة وكيفية طرد الشياطين بالتعاويذ وأخيراً قراءة وتنبؤ المستقبل.

وقد اتجه الكهنوت الرسمي الآن بالذات إلى هذا الفرع حتى لا يفقد علاقاته وأواصر ارتباطاته مع الشعب. نعم لقد وجدت الأرواح الشريرة والخيرة بكل تأكيد منذ آلاف السنين في بلاد بابل وبلاد أخرى من العالم أيضاً. إلا أنه لم يكن قد مر قبلاً

1- نفس المرجع، ص 197-199.

على الشعب البابلي مثل هذا القدر من الشعور، بأنه محاط بالشياطين في كل وقت من النهار والليل كالشعور الذي نشأ أثر التغيرات الجذرية الفظيعة في العصر الحثي.

ونتيجة لذلك فقد وجد الكهنة أنفسهم مضطرين أيضاً للقيام بتنظيم عالم الظلمة للأرواح الشريرة بشكل يستطيعون فيه مكافحتها، وذلك في الوقت نفسه الذي وضعوا فيه تنظيماً معيناً لعالم النور الخاص بالآلهة المحلية القديمة.

وقد ربط المرء عناصر الشر اللامتناهية العدد التي لم يتمكن المرء من الإحاطة بها، بلا استثناء، بقوة عليا هي قوة آلهة السبع الشريرة مجتمعة، التي إليها يعود سبب بلية الخليقة. وقد حاول البعض أحياناً تفسير هذه السبع الشريرة بالآلهة السبع الرئيسة لبلاد عيلام.

ثم قام الإنسان بجمع نصوص السحر ونصوص ردع أذى الشياطين في سلاسل من النصوص، سميت بسلاسل مقلو وشوربو الشهيرة، التي تجمعت فيها الحلول العملية لدفع الأذى المفاجئ بألف شكل من أشكاله.

وقد توسع ذلك حتى شمل دخيلة النفس البشرية إذا ما حلَّ بها الشر، بعد اضطرار إلهها الخاص للتخلي عنها غاضباً عليها لاقترافها عمداً أو سهواً إثماً مسلكياً ما. ولقد انتقلت الصبغة الخلقية للورع الديني البابلي في جوهرها من العجز عن التنبؤ بإرادة الآلهة ومن عجز الإنسان أيضاً عن الحكم على المقاييس الخلقية إلى التطرف والغلو. فتشابكت وتناقضت بذلك تحاليلها للخطيئة وللعدالة الإلهية.

ولهذا لم تستطع هذه الديانة الكهنوتية الرسمية من خلال ذلك إيجاد مخرج تعرف به الإرادة الإلهية أن تؤثر عليها بواسطة الصلاة مثلاً وتقديم القرابين والاحتفالات الدينية والتنبؤ بواسطة القرابين، وكتمان الأسرار الدينية والسحر ودفع أذى الشر، ولكننا نجد، رغم ذلك، أن ديانة الكهنة قد بقيت في الحياة اليومية متفوقة على الخلق الاجتماعي المنحسر. ذلك أن أحوج ما يحتاجه الشعب البسيط هو نقطة انطلاق واضحة ومفهومة لطريق حياته لا أن يبقى يتخبط محتاراً أي طريق عليه أن يسلكه. وهنا تتجسم العلة بالذات: كيف قدر للشعوذة في بلاد بابل خلال القرون الزمنية اللاحقة أن تشهد توسعاً في محتواها ومداها بشكل لم يعهد له مثيل في أية حقبة من عصور التاريخ[1].

1- المرجع السابق، ص 198-201.

الحوريون: دولة ميتاني

لا يزال معنى اسم «الحوريين» حتى الآن غير معروف. إن محاولات التفسير العديدة التي أجريت تفتقر إلى برهان مقبول. من تلك التفسيرات مثلاً هو صلة الاسم بكلمة: خروي huradi التي تعني «الجندي اليقظ» إذا ما سلمنا بأن هذه الكلمة - ترد في النصوص الحورية والأورارتية، وكذلك في الأكادية المتأخرة (ولا سيما في اللهجة الأشورية) وفي الأوغاريتية.

وقد كشفت الحفريات الأثرية التي في عام 1906 في العاصمة الحثية حاتوشا hattusa حالياً بوغازكوي bogazkoy عن وجود اتفاقيات دولية مكتوبة باللغة الأكادية. وقد تمكن الباحثون، الذين درسوا هذه الوثائق، من معرفة وجود أرض أو بلاد تسمى «أرض حوري» و«أناس من حوري».

يعدُ الحوريون من أهم شعوب الشرق القديم، ويشكل تاريخهم صفحات أساسية من تاريخ سورية خلال الألف الثاني ق.م، ولكن المصادر غير الكافية هي سبب قلة معارفنا عن لغتهم وتاريخهم وحضارتهم، قياساً إلى ما نعرفه عن شعوب أخرى، مثل السومريين والبابليين والآشوريين... الخ.

ويرى الدكتور فيليب أنه من الجماعات التي تألف منها خليط الهكسوس كانت جماعة الحوريين[1]. وهم شعب لا سامي ولا هندي أوروبي ولا يزال أصله مجهولاً. وكانت حضارتهم من أكثر العناصر حيوية في أواخر عصر الهكسوس والفترات التالية مباشرة. وقد أتى الحوريون في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد من المناطق الجبلية الواقعة إلى الشمال الشرقي من بلاد الرافدين، ووقعوا تحت تأثير كبير للثقافة السومرية - الأكادية، ولعبوا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد دوراً مهماً في نقل

1- دكتور فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج، ترجمة د. جورج حداد و د. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1982، ص 161.

هذه الثقافة إلى سورية وآسيا الصغرى. وقد يكون ظهور الحوريين في بلاد الهلال الخصيب متصلاً بالحركة العامة التي أتت بالهنود الإيرانيين إلى فارس، والتي فرضت نزول الكاشيين من زاغروس إلى بابل.

أتى الحوريون من المرتفعات الجبلية الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب بين بحيرة أورمية وجبال زاغروس، وفي أواخر القرن الثامن عشر غزوا شمال بلاد الرافدين وسكنوها، ومنها اتجهوا إلى شمال سورية؛ حيث أسسوا إحدى الممالك القوية في الشرق الأدنى. وكان الأموريون قبل ذلك قد سكنوا ذلك القسم من سورية.

مملكة ميتاني:

وقد نجح الحوريون حوالي 1500ق.م في تأسيس مملكتهم هناك، وتسمى مملكة ميتاني، التي بلغت قوتها حداً كبيراً، وامتد حكمها من البحر المتوسط إلى مرتفعات ميديا وتضم بلاد آشور. وكانت عاصمتها (واشوكاني) ويظن أن موقعها هو الفخارية على الخابور شرقي تل وحران. وكان مركزها الرئيس في بلاد الرافدين أريخا arrapkha (كركوك الحديثة). وقد جرت الحفريات في ضاحيتها (نوزو)، وهي اليوم يورغان تبه على بعد عشرة أميال شرقي كركوك. وكان المصريون يعرفون ميتاني باسم نهارين[1]. وقد تم العثور في نوزو أو نوزي وفي ألالاخ التابعة لمقاطعة موكيش أيضاً على وثائق مكتوبة، كان قد ذيلها الملك شاوشتار بخاتمه الخاص أو بخاتم سلفه شوتارنا الأول الذي يعتبر أقدم ملك ميتاني معروف لدينا حتى الآن. وتبعاً لذلك فقد كانت المملكة الميتانية بكل تأكيد مركز الدولة الحورية في شمال ما بين النهرين، إذ انضمت تحت لوائها الدويلات الصغيرة الأخرى في الشرق والغرب. وبصورة خاصة فقد خضعت بلاد آشور إلى سلطة الملك الميتاني في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حيث لم يكن ملوك آشور أكثر من ملوك اسميين تابعين، وذلك إن صح ما تذكره تلك المعاهدة التي عقدت بين الحاكم الميتاني المتأخر متي - وازا والملك الحثي شو بيلو ليوما: إن شاو شتار قد أحضر من مدينة آشور باباً من الذهب والفضة ليضعه في قصره في عاصمة بلاد الميتانيين المسماة بـ «واشوكاني».

وإذا استثنينا شاوشتار نجد ملوكاً ميتانيين عديدين لا نعرف عنهم شيئاً سوى أسمائهم. يدلنا أرشيف تل العمارنة أن علاقات ودية ومصاهرة قد أقيمت بين البيوت

1- المرجع السابق، ص 162.

الملكية المصرية والميتانية في عهد تحوتمس الرابع وأمينوفيس الثالث. كما ونجد أيضاً أن شوتارنا الثاني، الخلف الثاني لـ«شاوشتار» يبعث الربة الكبرى عشتار إلهة نينوى إلى فرعون مصر ليتبارك هذا ولتجلب له الصحة والعافية. وهذا ما يثبت لنا أيضاً أن بلاد آشور كانت تتبع المملكة الميتانية[1].

دور الميتانيين وسياستهم في سورية:

كانت ميتاني تشمل على الأقل طور عابدين وربما السهول الواقعة حول ديار بكر، وتمتد في الشمال حتى بلاد إشووا ISUWA (حالياً منطقة بحيرة كيبان في تركيا) وألشي alse شمال نهر دجلة. وفي عام 1470 وسعت مملكة ميتاني منطقة نفوذها نحو الغرب باتجاه سواحل البحر المتوسط، واحتلت مملكة حلب التي كانت قد استعادت استقلالها بعد احتلال الملك الحثي مورشيلي الأول لها، وحكمت من قبل ملوكها شارا - إل sarra - el وأبا - إل abba - el وإليم - إلما ilimilimma وبسطت نفوذها على الدويلات الصغيرة الواقعة إلى الغرب منها مثل نيا niya وأما amau وموكيش mukis. وقد حدث تمرد في حلب، كان بالتأكيد بدعم من ميتاني، أجبر إدريمي idrimi بن اليم - إليما آخر ملوك حلب المستقلين على الفرار مع أخوته إلى مدينة إيمار emar (مسكنة حالياً) على الفرات. وهكذا استطاع الملك الحوري باراتانا parrattarna مدَّ نفوذ مملكته حتى سواحل البحر المتوسط. فيما بعد حدثت مصالحة بين باراتارنا وإدريمي ونصب إدريمي ملكاً على ألالاخ.

وشملت منطقة نفوذه عدا موكيش نيا وأماؤ، بينما بقيت حلب خاضعة لملك ميتاني.

يصف إدريمي كل هذه الأحداث في سيرته الذاتية التي كتبها على تمثال له اكتشف في مدينة ألالاخ عاصمته. ويذكر إدريمي باراتارنا في هذه السيرة كملك للحوريين ويصفه بالملك القوي. وهذا يدل على أن مملكة ميتاني كانت تتمتع بقوة كبيرة في ذلك الوقت.

كان إدريمي خاضعاً لملك ميتاني وعليه دفع جزية له، ولكنه احتفظ بحق عقد معاهدات مع الملوك الآخرين، وذلك في إطار خضوعه لملك ميتاني وبما يتناسب مع مصلحة إمبراطورية ميتاني. ويتضح هذا من خلال معاهدة عقدها إدريمي مع ملك

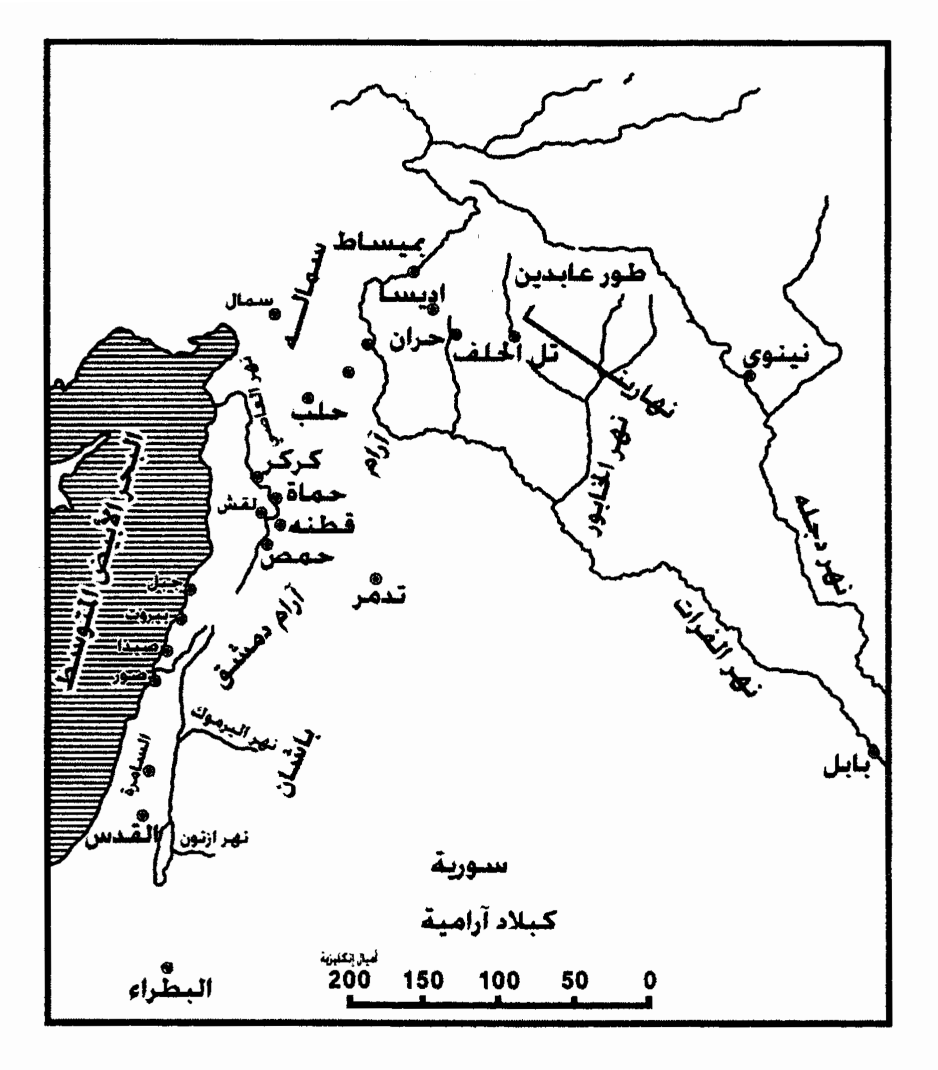
1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص 204-205.

كيزو واتنا، وذلك بعد أن خاض ضده معركة مظفرة. تغير الوضع في سورية فيما بعد نتيجة سياسة التوسع التي اتبعها الفراعنة المصريون في سورية. ففي عام 1458ق.م حقق تحوتمس الثالث نصراً عند مجدو (موقع تل المتسلم في شمال فلسطين) ضد تحالف سوري تحت قيادة ملك قادش. ومن المحتمل أن تكون إمبراطورية ميتاني قد دعمت هذا التحالف لإيقاف التوسع المصري في سورية[1]. وفي حملة تالية استطاع تحوتمس الثالث احتلال قلعة قادش، ووجه حملاته التالية ضد منطقة نفوذ ميتاني غرب الفرات.

وفي عام 1447 وصل تحوتمس الثالث إلى منطقة كركميش، وعبر الفرات دون أن نسمع عن أي إجراءات ميتانية ضده. ولكن رغم انتصاراته العسكرية، لم يستطع الفرعون المصري أن يحول سورية إلى جزء مستقر من إمبراطوريته. وكانت حملته الأخيرة عام 1438 موجهة ضد تمرد مدن تونيب tunip وقادش والذي دعم من قبل مملكة ميتاني.

أهم ملك ميتاني كان على الأرجح شاوشتتار، الذي حكم بعد حملات تحوتمس الثالث ضد سورية. وأصبحت منطقة نفوذ مملكة ميتاني في عهده تمتد من جبال زاغروس في الشرق وحتى سواحل البحر المتوسط في الغرب.

1- د. عيد مرعي ود. محمد حرب فرزات: دول وحضارات في الشرق العربي القديم، ص 165.



وكان موقع شاوشتتار مدينة واشكوكاني wassukkani التي كانت عاصمة (إمبراطورية) ميتاني.

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها علماء الآثار، فإنهم لم يوفقوا حتى الآن في تحديد موقع هذه المدينة بدقة. ولكن من المعتقد أن واشوكاني ترقد تحت (تل الفخارية) بالقرب من رأس العين. لذلك فإن معظم معلوماتنا عن تاريخ مملكة ميتاني نستقيه من مراسلات تل العمارنة ومن مصادر حثية.

من الجدير بالذكر أنه كان للعناصر الهندو أوروبية دور بارز في تاريخ إمبراطورية ميتاني. وقد امتزجت هذه الجماعات الهندو أوروبية بالحوريين منذ عصر مبكر، وأسهمت فيما بعد في إنشاء دولة ميتاني وتطوير مقدرتهم العسكرية، وبخاصة

استخدام العربات الحربية التي تجرها الخيول، لذلك فإن تأثيرهم يبدو واضحاً في مجالات مختلفة. وكان ملوك إمبراطورية ميتاني يحملون جميعاً أسماء غير حورية، وكان بعضهم يحمل أسماء هندو أوروبية. كذلك فإن اللغة الحورية تتضمن العديد من الكلمات الهندو أوروبية.

توجد في نصوص نوزي إشارات عديدة إلى الخيول، وهي بالتأكيد هندو أوروبية. كان لدى الآريين خبرة كبيرة في تربية الخيول وتدريبها، وكان الحصول على الخيول والعربات الحربية واقتناؤها عملية مكلفة جداً، لذلك اقتصر ذلك على طبقة غنية كانت تعرف من خلال ذلك في أرابخا. واستمر الصراع ما بين مملكة ميتاني ومصر من أجل السيطرة على سورية حتى عهد تحوتمس الرابع (1400–1390) الذي خلف لنا خبراً عن حملة له ضد نهارينا أي ميتاني. بيد أن تغييراً جذرياً طرأ على العلاقات ما بين القوتين الكبيرتين في عهد هذا الفرعون. بعد أن كانت هناك اتصالات دبلوماسية في عهد أمنحوتب الثاني (1428–1400) عقد اتفاق للسلام ختم بزواج ربط بين العائلتين الحاكمتين. فملك ميتاني أرتاتاما الأول artatama I، ربما ابن شاوشتتار، أرسل إلى الفرعون المصري ابنته لتكون زوجة له.

وضع الاتفاق بين القوتين أسساً للعلاقات بينهما وحدد مناطق نفوذهما. وصل النفوذ المصري إلى الساحل السوري (أوغاريت)، بينما كانت الحدود في الداخل تمر في سهول حمص، وكانت مدينتا تونيب وقطنه (المشرفة حالياً) تابعتين لمملكة ميتاني، أما أمورو وقادش فكانتا تحت النفوذ المصري[1].

وقد هوجم توشراتا، الصديق الموالي لمصر قبل انتهاء حكمه، من قبل الفاتح الحثي العظيم شو بيلو ليوما الذي تابع فتوحاته أثناء حكم ماتيو زا ابن توشراتا. وقد نصت معاهدة بين شوبيلو ليوما وماتيو زا على احتفاظ الفاتح الحثي بشمالي سورية، على أن تكون حدودها الفرات في الشرق ولبنان في الجنوب.

أما القسم الباقي من المملكة، فقد أصبح قسماً من الإمبراطورية الآشورية المتوسعة في عهد وريثة شلمناصر الأول. وهكذا زالت دولة كانت في أحد العصور تشارك مصر والدولة الحثية السلطة العالمية[2].

1- المرجع السابق، ص 166-167.

2- د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ص 163.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

تظهر الأساطير والطقوس الدينية الحورية أن الصيد كان وسيلة أساسية لتأمين الغذاء لدى الحوريين في عصور ما قبل التاريخ، كما نجد أن شهرة القوس الميتاني خلال القرن الرابع عشر ق.م تجاوزت حدود البلاد. ولكن هذا لا يعني أن الحوريين لم يكونوا ماهرين في الزراعة خلال العصور السابقة لظهورهم في تاريخ آسيا الغربية الموثق في المصادر الكتابية. ويتضح من بواكير الحضارة - خلال الألف الثالث ق.م - في مناطق القفقاس، التي كانت أجزاؤها الجنوبية الشرقية موطناً للحوريين قبل انتقالهم إلى بلاد الهلال الخصيب، أن الاعتماد الرئيس كان على الزراعة وتربية الحيوان.

استقرت المجموعات البشرية الحورية التي هجرت إلى الهلال الخصيب - نتيجة توافر ظروف سياسة مناسبة وزيادة الضغط السكاني - بشكل أساس في تلك المناطق التي يصل فيها المعدل السنوي لكمية الهطل المطري إلى أكثر من 200مم، والتي تتميز بخصوبة أراضيها. ولم يكن للسقاية هناك سوى دور ثانوي في زراعة الشعير الذي كان أهم مصدر غذائي، وذلك لأن السقاية لم تكن ضرورية وإنما كنت مجرد مساعدة على زيادة الإنتاج. أما الواحات النهرية الموجودة في مناطق الفرات الأوسط والأجزاء السفلية من نهري البليخ والخابور، فقد بقيت خارج إطار مناطق الاستقرار الحوري[1].

- منطقة جوكوروفا (الجزء الجنوبي من بلاد كيزفتنا).
- سهل العمق في مناطق العاصي الأسفل (ألالاخ).
- منطقة حلب (خلب).
- المناطق المحيطة بمدينتي حماة وحمص في العاصي الأعلى (قطنه، قادش).
- سهل الفرات شمالي مسكنة (إيمار).
- السهول الزراعية في شمال شرقي سورية (ميتاني - خاني جلبت).
- بلاد آشور ومناطق كركوك (أريخا).

كانت قرى هذه المناطق - على خلاف مناطق جنوبي بلاد الرافدين المعمدة على السقاية - خالية من المشاريع التي تتجاوز الإطار المحلي، ومنعزلة نسبياً. ومن

1- جرنوت فيلهلم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ترجمة وتعليق د. فاروق إسماعيل، دار جدل، حلب - سورية 1999، ص 87.

ناحية ثانية كانت تتميز عن المناطق الرافدية بانتشار ظاهرة التجمعات المتضامنة (الجمعيات) التي كانت تقوم جزئياً على صلات القربى، وتعكس وجود علاقة بين الأسرة وملكية الأرض. ويتضح من تلك العلاقة أنه كان يتم التصرف بالأراضي كأي ملك منقول.

وكانت الطبقة العليا، التي نشأت من خلال أعمال الاحتلال الحربية، تسعى إلى تحقيق حصة من الإنتاج الزراعي في البلاد لنفسها، وتعامل القرى ككيانات عليها واجبات لهذه الطبقة العليا. وكان هذا النمط من قوة التصرف والسيادة على كل القرى مقتصراً على نخبة صغيرة عددياً، وتتألف بشكل خاص من أفراد الأسرة الملكية في الدول الحورية المختلفة.

أما طبقة الـ «مري يني نا» العليا الأكبر عدداً والمتميزة بوظيفتها العسكرية، فقد صارت معنية بشكل أقوى بأنظمة الإنتاج الزراعي، وذلك من خلال تخصيصها بقطع من الأراضي كانت تستثمرها لنفسها بواسطة أسر كبيرة أو صغيرة عدداً، وغالباً ما كانت تشاركها مجموعة من العبيد. وقد أسهمت هذه الطبقة - بشكل أو بآخر - في عملية التطور التي أدت إلى تغير النظام الزراعي بشكل عام - أو على الأقل في المناطق الشرقية - ويتمثل ذلك في بروز نهضة في مجال امتلاك الأراضي الزراعية.

وبذلك فقد تحول قسم من الـ «مري يني نا» إلى ملاكين كبار على حساب آخرين صاروا فقراء. وبينما بقي الانتماء إلى هذه الطبقة في مناطق أربخا (كركوك) مرتبطاً بامتلاك عربة حربية، كانت المناطق الحورية قد تحررت من هذا الشرط، وصار الانتماء فيها صفة اجتماعية وراثية[1].

إن مصادر دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والمؤسسات الإدارية والأنظمة القانونية المتوافرة - للأسف - جزئية غير شاملة للمناطق كلها، كما هي الحال بالنسبة إلى مصادر الحياة الدينية.

إن عدداً من مدن بلاد أربخا كانت تحتوي على قصور، ولا تتوافر لدينا حقائق واضحة عن مساحات الحقول التي كان يستثمرها القصر الملكي.

كان القصر يؤمن حاجاته من الشعير من القرى التي تتميز بأنها من أملاك القصر. وتبقى صيغة العلاقة القانونية بين القصر وتلك القرى غير واضحة، وكذلك

1- المرجع السابق، ص 88.

التسمية الدالة على ملكية كل من الطرفين في هذه الحالة، وكيفية توزيع المحاصيل بينهما[1].

ويبدو أن محاصيل الحبوب الواردة إلى القصر كانت توزع داخلياً، ومن أبرز مستهلكيها المجموعات الآتية:

1- الملك والموظفون الكبار والمندوبون الأجانب وخيولهم.

2- الملكات والأمراء القاصرون سناً والأميرات اللواتي كن يقيمن في أجنحة النساء (الحرملك) ضمن القصور الملكية. إضافة إلى النساء المغنيات.

3- العبيد الذين كان قسم كبير منهم يعمل في مجال تصنيع الصوف.

ويبدو أن صناعة النسيج كانت من أهم الأعمال الإنتاجية في القصر. وكان القصر يربي قطعاناً من المواشي، ويقوم برعايتها عبيد القصر، وكذلك عدد كبير من الأحرار الذين كانوا يعملون لدى القصر كرعاة. وكان لكل قصر حصة ضريبية محددة تفرض على قطع الثياب المنتجة التي كانت بلا شك أهم مادة تصديرية في أريحا.

أما فيما يتعلق ببيع المنتجات فقد كان هناك تجار مسؤولون عن ذلك، ونلاحظ أنهم يذكرون ضمن عبيد القصر. وكان هؤلاء التجار يقومون بجولات تجارية خارج البلاد، وينجزون خلالها طلبات شراء معينة، ورغم ارتباطهم بالقصر، فقد كانوا في الوقت نفسه يؤمنون طلبات الأفراد أيضاً. وكانت الصادرات هي المنتجات النسيجية وكذلك العبيد. أما أهم المواد المستوردة فكانت المواد المستخلصة من النباتات والصوف.

كان القصر معنياً - إلى جانب الأمور الاقتصادية - بالمسائل العسكرية المرتبطة بدوره التجاري المركزي، فيقوم بتنظيم عمليات استيراد المعادن (المعادن النفيسة، النحاس، القصدير)، ثم يتم تصنيعها من قبل الحرفيين التابعين للقصر بهدف تأمين المعدات العسكرية. وكان في القصر مصنع تصنع فيه الدروع للمحاربين وأسلحة متنوعة[2].

الحياة الدينية:

إن الديانة الحورية هي بلا شك كالتركيب العضوي ذات طبقات كثيرة، نشأت من عناصر متعددة قامت على مر السنين. لقد اقتبست بعض هذه العناصر من

1- نفس المرجع، ص 90-91.

2- المرجع السابق، ص 92-93.

العالم السومري - الأكادي، بينما تسرب إليها القسم الآخر من منابع جديدة ذات صفة سامية غريبة. يضاف إلى ذلك القسم الذي اصطحبه الشعب الحوري معه وما أتت به الطبقة الهندية الغربية الحاكمة.

أما فيما يخص التأثر بالبابليين، فلدينا نصوص حورية وجدت في ماري في قصر زيمريليم، الملك المعاصر لحمورابي، والتي تتألف من نصوص لتعاويذ بابلية الصفة، ترجمت إلى الحورية لهدف الاستعمال الخاص بالحوريين.

ولم تكن تلك الكسر من الرقم الطينية لملحمة جلجامش باللغة الحورية التي عثر عليها في عاصمة الحثيين حاتوشا، سوى البرهان القاطع على أن الحوريين لم يكونوا دؤوبين على اقتباس الحضارة البابلية وحسب، بل قاموا أيضاً في كثير من المجالات الأخرى بدور الوسيط في نقل هذه الحضارة إلى شمال - غرب وغرب الشرق الأدنى.

لم تقتصر الديانة الحورية بتأثيرها من خلال الشخصيتين الرئيستين في مجمعها اللاهوتي وهما إله الطقس تيشوب وزوجته شيبات فقط على شمال بلاد الشام، بل تعدته بصورة خاصة وبشدة على الحثيين أنفسهم، وخاصة في الحقبة الأخيرة من حياة المملكة الحثية. كذلك لم يعد هناك مجال للشك، في أن رسمي الإلهين الرئيسين لرتل الآلهة الاحتفالي في باتسيليكايا، بالقرب من العاصمة حاتوشا، هما «تيشوب» و «شيبات»، وذلك اعتماداً على الاسم المنقوش بالكتابة الحثية الهيروغليفية إلى جانب كل إله في هذا الرتل. كذلك لا بد أن تكون الربة عشتار أيضاً (إلهة نينوى) قد اصطبغت بالصبغة الحورية، خاصة إذا علمنا بأن حتى فراعنة مصر قد مجدوا فعالية بركتها، وبالتالي أثرت بمفهومها الحوري على الديانة الآشورية، طالما أنها على صلة بالربة الحورية شاوشكا التي هي بمنزلة عشتار[1].

وهكذا يمكن تمييز ثلاثة عناصر أساسية في تركيب البناء الذي يمكن أن نصفه بالديانة الحورية، وهي:

1- التقاليد الدينية الموروثة التي جلبها الحوريون معهم من أقدم مواطنهم المعروفة لدينا في كردستان.

2- التأثيرات السومرية - الأكادية.

3- التأثيرات السلبية الغربية - السورية.

1- انطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص 209-211.

واستناداً إلى مجموعة من بقايا نصوص كتابية وجدت في حاتوشا وعلى التراجم الحثية من الحورية التي وصلتنا، يبدو أن تأثيرات أبي الآلهة الحورية كوماربي كانت أكثر بعداً وأشد عمقاً، حيث وصل به المطاف ليكون المحور الرئيس لأسطورة حورية. كما وتوجد أوجه شبه قوية بين كوماربي هذا وبين كرونوس اليوناني أبي الآلهة أيضاً بالشكل الذي وصف به الأخير من قبل هيزيود؛ بحيث يجب أن يكون هناك ارتباط بين الاثنين. ففي حين اعتقد سابقاً أن نقل عناصر الأساطير الدينية الحورية إلى المدن اليونانية في آسيا الصغرى إنما قد تم عن طريق الترجمات الحثية، أصبح من المؤكد الآن، أن مثل هذا الاتصال بين الحوريين واليونانيين إنما قد حصل عن طريق الساحل الفينيقي ومنطقة كيليكيا. وترجيحاً لذلك فقد ثبت مثلاً أن نصوص الأساطير الدينية الفينيقية التي وجدت في رأس شمرا على ساحل بلاد الشام والتي كتب بعضها بالخط المسماري الأبجدي الخاص برأس شمرا، كثيراً ما تتعرض لذكر اسم جبل صافون. ومن جهة أخرى فليس هذا الجبل في الواقع سوى جبل هزى الذي نجد ذكره في مزمور أو لليكومي لأسطورة كوماربي، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فهو جبل مونس كاسيوس (الأقرع) الذي تذكره قصة تيفون اليونانية. لم يكن هذا الجسر الواصل بين الحوريين واليونانيين عن طريق الساحل الفينيقي، كما استطعنا هنا بالتأكيد إعادة تركيبه، على الأرجح، إلا واحداً من صلات وصل متعددة. ولو استطعنا الكشف عن عدد مشابه له، لبانت لنا على الأرجح جوانب أخرى من فجر الحضارة اليونانية أكثر وضوحاً بتسليطنا أضواء كشافة أخرى عليها[1].

وإلى جانب القوى العليا، أي الآلهة الحورية المذكورة أعلاه، التي شكلت في الوقت نفسه ركائز الطقوس الدينية للدولة وجوهر الأساطير المنظمة من قبل الكهنوت، يعود فيظهر في فن الاعتقاد الشعبي القديم قوى إلهية أخرى اعتقد بها الإنسان، والتي تجدد بعث استمرار الحياة من الموت وفوق الموت متخطية حدوده.

إن دائرة الآلهة الحورية الغربية التي تتكشف أمامنا في ضوء قوائم النذور الحثية - الحورية التي وصلتنا من بلاد كيزفتنا، ومن خلال المعبد الصخري الحثي المكتشف في يازيلي كايا، هي في الواقع نتاج تركيب خالص بين التقاليد الحورية والمعتقدات التي تعرف عليها الحوريون في شمال سورية. وقد قدمت لنا النصوص المكتشفة في إبلا - التي تعرفنا من خلالها إلى مجمع الآلهة في شمالي سورية خلال

1- المرجع السابق، ص 211-212.

العصر ما قبل السرجوني - الدليل المنتظر على ان تلك الآلهة المعروفة في الإطار الحوري الغربي والمجهولة في الوقت ذاته - في الإطار الشرقي، تعود إلى أساس حضاري سابق للحوريين. ونذكر منها في الدرجة الأولى إله الحرب اشتابي astabi الذي عد اسمه حورياً، كما يعود إلى مجموعة الآلهة الشمالية السابقة للحوريين الإله أدما adamma والإلهة إشخارا ishara التي صارت فيما بعد في بلاد آسيا الصغرى إلهة للقسم والمرض.

ومن الآلهة المعروفة في الغرب فقط الإلهة آلاني allani إلهة العالم السفلي التي لا يمكن فصلها عن الإلهة ألا تم المعروفة من قبل في عصر سلالة أور الثالثة. ولا شك في أن اسم آلاني ذو صلة بالكلمة الحورية آلاي «سيدة»، أما الاسم ألا تم فلم يقدم له تفسير أكادي مقنع حتى الآن. وبذلك فإن هذا الربط بين آلاتم وآلاني يشكل القرينة الأولى والوحيدة - حتى الآن - الدالة على وجود الحوريين في شمال سورية منذ نحو 2200ق.م.

تذكر الأساطير والشعائر الدينية والمعاهدات الدولية الحثية مراراً مجموعة متنوعة التركيب من آلهة العالم السفلي، لا نجدها إلا في نصوص ختوشا. وهي آلهة يمكن إرجاعها بوضوح إلى المعتقدات الدينية الحورية. إنها الآلهة المسماة بـ «الآلهة بالغة القدم» المنتمية إلى أجيال الآلهة المبكرة التي أبعدها إله الطقس إلى العالم السفلي.

ونجد في المقابلة السحرية بين «الطهارة» و «النجاسة» أن آلهة العالم السفلي «بالغة القدم» تمثل الوجه السلبي للآلهة السماوية الحاكمة، لأنها افتقدت نصيبها من السيادة الإلهية فلا تتوافر فيها الصفة النوعية الأساسية للآلهة العليا وهي أن تكون طاهرة بالدلالة السحرية لهذه الصفة. وهذه الطهارة شرط للتأثير الإلهي، وافتقادها - بسبب خطايا دينية مثلاً - يسبب توقف الفعالية الإلهية، ما يؤدي إلى نتائج تؤثر بشكل سلبي على سعادة البشر.

إن آلهة العالم السفلي - من هذا المنظور - هي الصورة النقيضة تماماً للآلهة العليا، «والنجاسة» لا تؤثر فيها، بل هي بالأحرى عالمها الحقيقي. ولذلك يتوسل البشر إليها لإبعاد نجاسات قد تتكشف في صيغة موسم حصاد سيء أو اغتيال أو وباء أو يمين كاذب عن وجه الأرض وإيداعها في العالم السفلي[1].

1- جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص 107-108.

إن الأعداد الضخمة من الأختام الاسطوانية المعروفة والمصنوعة من الخرف وكذلك طبعاتها على الرقم الطينية التي وجدت في جميع أنحاء المحيط الحوري الميتاني، تقدم لنا رصيداً ضخماً من رسوم تخص إلى حد ما تصوير آلهة الدولة، فتعرضها لنا في وضع الصلاة أو رتل قيادي. أما من ناحية أخرى، فنجد أن جميعها تقريباً يعود فيعتمد الاعتقاد السومري القديم وتعابيره التصويرية الرمزية المجردة، مذهب أنيسن - تموز.

يشكل المشهد القديم للاعتقاد ببعث الحياة بعد الموت أي الشجرة التي تقع بين حيوانين أليفين المواضيع التي تطرقها الأختام الحورية. ولقد عاش هذا النمط من الاتجاه الديني كما رأيناه تطوراً طويلاً إلى أن تجسد في ممثله الأول مردوك الإله الأكبر والأعظم لمملكة حمورابي.

وكما نرى فإن صلة الوصل المعنوية بين إله الشمس وبين إله يموت ويبعث تتجسم نظرياً بالإله مردوك للعصر البابلي، ونجد في أكثر الأحيان أن هذه الفكرة تجسده على الأختام الحورية، بالشكل المحور أو الطبيعي لشجرة الحياة المرتبطة بقرص مجنح للشمس لتنشأ منهما وحدة تامة متراصة. ولتكن جهة مصدر الشمس المجنحة في الفن الحوري أيا كانت، فإن معناها كرمز لإله الشمس يبقى واضحاً لا يداخله الشك. ولذا فإذا ما وجدنا الشعار القديم للشجرة بين حيوانين، الشعار الذي هو رمز الإله الحي للعالم السفلي، متصلاً اتصالاً وثيقاً برمز لأحد آلهة الشمس، فيكون بذلك وجه الشبه بين هذه الفكرة التصويرية وإله بمنزلة مردوك واضحاً لا يحتاج إلى نقاش.

ولا يصادفنا فقط على الأختام الحورية مشهد تلك الشجرة بين حيوانين والشمس المجنحة ترفرف فوق الجميع، بل إننا لنجد أيضاً الكثير من العناصر الجانبية التي تشكل كلها مجموعة من الصور لذلك الاعتقاد القديم للعالم السفلي. إنها تعود الآن إلى الظهور بشكل رئيس بعد أن قدر لها أن تلعب فقط دوراً ثانوياً لمدة طويلة خلال عصر السلالة السومرية الثالثة والسلالات السامية الغربية. فعلى الخاتم الأسطواني لـ «شاوشتتار» نجد شجرة الحياة وكأنها كالعلم تُتوِّجه شمس مجنحة. وليس على جانبيها كما في العادة حيوانات أليفة، بل أعداءها التقليديين ألا وهم الأسود، الذين نعرفهم منذ العهود القديمة رمزاً للموت والفناء. وعلى مكان آخر من الختم نجد أيضاً المشهد القديم الثاني لمذهب أنين - تموز ألا وهو صراع البطل

مع الأسد. كما لا تخلو أكثر الأختام الحورية العادية من مشاهد الصراع بين الأسد والثور ولا من العناصر التصويرية للحيوانات الخرافية المجنحة كأبي الهول مثلاً والطير الخرافي والأسد المجنح، التي كثيراً ما نرى استخدام رسومها يزداد في الفن منذ عصر الساميين الغربيين في شمال ما بين النهرين.

أضف إلى ذلك استخدام مشهد الحراس الآدميين الذين يقفون على جانبي الشجرة المقدسة، كما نراهم يرسمون أحياناً مزودين بأجنحة، ومثلهما أيضاً ذلك البطل المصارع الذي يهم بقهر أسدين معاً. أما تموز فقد انحطت مرتبته هنا ليصبح جنياً مجنحاً من الدرجة الثانية. وبهذا نعثر هنا على كافة جوانب عالم الأرواح الخيرة والشريرة التي تحمي وتهدد الحياة هنا في دار الفناء وهناك في دار الخلود، حيث تظهر الآن بكثرة وبوضوح في أشكال صور هذه الحيوانات الخرافية. وبالإضافة إلى هذا نصادف كذلك أحياناً على الأختام الحورية رسوم منظر المدامة أي المشهد القديم للحفلات كاختصار رمزي تصويري لأعراس الآلهة المقدسة، التي كانت تشكل إحدى المواضيع الهامة في الفن التصويري الديني القديم عند السومريين. ومن ناحية أخرى فإذا ما ارتبط مشهد الصراع على العربة مع مشهد شجرة الحياة، فيجوز لنا الظن نتيجة ذلك، أن نرى في القتال على العربات حتى عند الحوريين صراعاً رمزياً للملك ضد قوى الظلام والفوضى وضد الموت، تماماً كما أصبح عليه الحال مؤخراً عند الملوك الآشوريين. وعلى ما يبدو فقد أثر هنا نمط الحياة الخاص للفروسية الحورية - الميتانية بإعادة رسم مشاهد لتخيلات دينية قديمة عندهم[1].

الأدب:

أسهم حوريو بلاد الهلال الخصيب منذ زمن مبكر في التراث الحضاري السومري - الأكادي المدون، ويتمثل ذلك في أشكال من النصوص يصعب تمييزها عن بعضها، ونصفها كلها بالنصوص الأدبية.

ليس المهم وصفها اعتماداً على معيار المضمون أو الشكل الشعري، بل الأهم هو إدراك حقيقة أن تلك النصوص نسخت مراراً - لأغراض تدريبية غالباً - وأنها في مجموعها تعكس تيار التراث والتواتر الحضاري لتقاليد الكتابة. وتضم مجموعة النصوص هذه قوائم بالعلامات الكتابية ومعجمات لغوية وقوائم بالمترادفات من

1- انطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص 213-214.

الكلمات، إضافة إلى مجموعة النبوءات والتعويذات والأساطير والملاحم والحكايات الخرافية والأمثال وغيرها.

لقد أسهم الكتاب الحوريون في الحضارة الرافدية وأغنوها بأشكال شتى، نذكر منها:

- أخذوا أعمالاً معينة شائعة، وأعادوا صياغة موضوعاتها بأسلوبهم الكتابي الخاص.
- ترجموا نصوصاً إلى لغتهم.
- أخذوا أحداث مرويات شفاهية أو كتابية، وصاغوها بلغتهم صياغة جديدة.
- وسعوا نطاق المجموعة الكاملة للنصوص الأدبية بأن أضافوا إليها نصوصاً (أساطير وتعويذات) من تراثهم الخاص.

إن الفضل في ما نعرفه عن اقتباسات الكتاب الحوريين وعنايتهم بالأدب السومري والأكادي يعود - بشكل أساسي - إلى النصوص المكتشفة في حاتوشا وأوغاريت وإيمار. كما كشفت في العمارنة بمصر النصوص الأدبية المتفرقة التي ترجع إلى تقاليد الكتاب الحوريين.

لقد تم التأكيد مراراً على دور الحوريين في عملية انتقال الأدب الأكادي إلى المشرق المتوسطي، ولكن يتوجب بالطبع عدم المبالغة في ذلك، إذ يمكن أن نستخلص من قرائن كثيرة أن مدارس تعليم فن الكتابة كانت مزدهرة في شمالي سورية خلال العصر البابلي القديم، وكانت هذه المدارس ترجع إلى موروث قديم طويل العهد، كما كان لها تواصل مع التطور الأدبي في بلاد بابل. ووجدت خلال العصر البرونزي المتأخر صلات بين المدارس الحثية والسورية والبابلية والأشورية، وتلقي نصوص المكتبة المكتشفة مؤخراً في مدينة إيمار أضواءً على ذلك[1].

يمكن القول إن الكتّاب الحوريين شاركوا في صياغة ثقافة كتابية مدونة تجاوزت الحدود اللغوية والسياسية والدينية. وتركز ملاحظاتنا الآتية على تلك

1- كشفت البعثة الفرنسية التي كانت تنقب في إيمار (تل مسكنة، نحو 90كم شرقي حلب) بإدارة مارغون خلال 1972-1974 عن أكثر من ألف وخمسمائة رقيم عليها نصوص سومرية وأكادية وحورية وحثية، تعود معظمها إلى القرن 13ق. م، ويشكل القسم الأكبر منها تكهنات أحد العرافين. وقد نشر الباحث د. آرنو ARNAUD النصوص السومرية والأكادية منها (نحو 800 نص)، ولم تنشر الحورية والحثية بعد. (جرنوت فيلهلم، الحوريون، ص 137).

الأعمال ذات الأصل السومري - الأكادي التي تميزت خلال استخدام اللغة الحورية في صياغتها.

اكتشفت في أوغاريت نسخة من الرقيم الثاني من سلسلة HAR-RA-HUBULLU المعجمية المصنفة وفق الموضوعات. ونجد فيها، إلى جانب العمود الذي يتضمن الكلمات السومرية، عموداً تعرض فيه الترجمات الحورية للكلمات. وتظهر في اللغة الحورية المستخدمة فيها فروق واضحة - من حيث الصيغ - تميزها عن المستخدمة في نصوص أخرى من النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، وتبلغ تلك الفروق درجة دفعت بعض الباحثين إلى القول بأنها تمثل لهجة خاصة.

كما عثر في أوغاريت أيضاً على كسر عدة دُونت عليها قوائم مفردات مرتبة وفق أشكال العلامات المسمارية التي تبدأ بها. وهي مقسمة إلى أعمدة، عمود للمفردات السومرية وآخر للأكادية وثالث للحورية ورابع للأوغاريتية. وموقع العمود الحوري يدعو إلى استنتاج أنها انتقلت إلى أوغاريت عبر مدرسة كتابية حورية.

وهناك قائمة بأسماء آلهة في أوغاريت مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

سومري، حوري، أوغاريتي.

وهناك بعض الكسر التي تتضمن ترجمات حورية لنبوءات بابلية. وثمة رقيم يتضمن نص نبوءة بحدوث هزة أرضية، وهو يدل على انتشار مجموعات النبوءات الأكادية في المناطق الحورية الشرقية أيضاً، ويعد من أصول سلسلة النبوءات البابلية التنجيمية الضخمة المعروفة باسم «إنوم آن انليل».

أما الجنس الأدبي «أدب الحكمة» فمن نماذجه نص عثر عليه في أوغاريت، ويتألف من ثمانية سطور باللغة الأكادية وترجمة حورية لها.

ومن الملاحم الرافدية وصلتنا حتى الآن صياغة وحيدة باللغة الحورية لملحمة جلجامش ملك أوروك في عهد السلالات الباكرة. والكسر التي تتضمن النسخة الحورية - وكلها مكتشفة في حاتوشا موجزة جداً.

ويرجح أن الصياغة الحثية لبطولات جلجامش تعتمد على تقليد النماذج الحورية. ومما يشير إلى قدم نص ملحمة جلجامش الحورية ورود اسم جلجامش فيها بالصيغة القديمة له «بيلجامس» التي استخدمت في كتابات العصر الأكادي القديم وعصر سلالتي أيسن - لارسا[1].

1- جرنوت فيلهلم: الحوريون، ترجمة: د. فاروق إسماعيل، دار جدل، حلب، سورية، ص 136-139.

لاحظ عدد من الباحثين وجود صلة قرابة بين اللغة الحورية واللغة الأورارتية التي دونت بها نقوش تعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والسادس ق. م، وقد أكد فريدريش تلك الصلة، ولا سيما في المجال المعجمي، في عدد من دراساته. وقد حققت دراسات الباحث الروسي دياكونوف وغيره خطوات مهمة في هذه المسألة، وتم الوصول إلى تحديد دقيق لدرجة القرابة بين اللغتين. وفي ضوء تلك النتائج واعتماداً على وضوح التطورات اللغوية ضمن اللغة الحورية ولهجاتها، يمكن للمرء أن يقول الآن، وبكل تأكيد، إن اللغة الأورارتية ليست متطورة عن اللغة الحورية، وإنما تشكل اللغتان فرعين منفصلين من لغة أم (اللغة الحورية - الأورارتية المبكرة)، وقد استقلت الواحدة عن الأخرى خلال الألف الثالث ق.م[1].

تتحدث المراسلات ما بين توشراتا ملك ميتاني والفرعون المصري أمنحوتب الثالث عن مشروع زواج الفرعون المصري من إحدى بنات توشراتا.

واستمرت المحادثات حول هذا الموضوع، وبشكل خاص حول المهر عدة سنوات.

عن رسالة من توشراتا إلى الفرعون والتي تعد من أهم الوثائق الحورية المسماة: «رسالة ميتاني» أمكن معرفة الكثير عن اللغة الحورية. ربما أرسلت هذه الرسالة مع الأميرة تاتوخيبا TATU - HEPA (نفرتيتي) في رحلتها إلى الفرعون المصري. وفيما يلي مقاطع من الرسالة التي تمثل نموذجاً من المراسلات الدبلوماسية في ذلك العصر: «إلى نيموريا nimmuriya» (المقصود أمنحوتب الثالث) ملك مصري، أخي، صهري الذي أحبه والذي يحبني أقول:

هكذا يتكلم توشراتا ملك بلاد ميتاني، عمك الذي يحبك، أخوك. حالي جيدة. أرجو أن تكون حالك جيدة، أرجو أن تكون أحوال زواج ابنتي، وأحوال نسائك، أولادك، أعيانك، خيولك، عربات قتالك، قواتك، بلادك وممتلكاتك بخير.

أخي تمنى زوجة له وهاأنذا أرسلها إليه. وهي قد ذهبت إلى أخي. عندما تأتي سيراها أخي وسيرى مهرها. عندما تصل زوجة أخي سيراها وأرجو أن يجمع كل بلده والبلدان الأخرى وأن يكون النبلاء السفراء حاضرين.

أرجو أن يجعلني أخي غنياً في عيون سكان دولتي. وأرجو ألا يحزن أخي قلبي. لقد تمنيت من أخي تمثالاً من الذهب لابنتي. أنا أعرف بأن أخي يحبني كثيراً وأعرف أيضاً بأن الذهب موجود بكثرة في بلد أخي: كما أريد من أخي تمثالاً من العاج.

1- نفس المرجع، ص 22.

في بلادنا يسود السلاح. الآن لا يوجد عدو لأخي. ولكن إذا هاجم عدو أخي ودخل بلاده فعلى أخي أن يعلمني وستكون بلاد الحوريين (حورو) بأسلحتها وجيوشها تحت تصرفه. من ناحية أخرى إذا وجد عدو ضدي فسأخبر أخي وستكون مصر وجيوشها وأسلحتها إلى جانبي».

هذه الرسالة تبين لنا بوضوح العلاقات القوية التي كانت قائمة ما بين مملكة ميتاني من جهة ومصر من جهة أخرى في أيام الأسرة الثامنة عشرة. وبعد بضع سنوات من زواج /تاتو خيبا/ توفي الفرعون المصري أمنحوتب الثالث وخلفه على العرش أمنحوتب الرابع (أخناتون). وفي عهد هذا الفرعون ساءت العلاقات ما بين ميتاني ومصر. وربما كان السبب في ذلك هو ضعف موقف الحوريين أمام الحثيين الذين كانت قوتهم في تصاعد مستمر. يضاف إلى ذلك أن أمنحوتب الرابع كان منشغلاً بالإصلاح الديني في مصر وبفكرة الإله الواحد[1].

فن مملكة ميتاني:

لا يمكن عرض وصف عام شامل للفنون التشكيلية في مناطق اللغة الحورية، وذلك لأننا لا نجد فيها تماثيل تذكارية إطلاقاً، ولا تتعدى الشواهد الفنية المتوافرة بكثرة نوعين من الفنون التطبيقية هما: فن صناعة الفخار وتزينه، وفن نقش الأختام الأسطوانية. ويظهر كلاهما أن الوحدة السياسية لمملكة ميتاني فسحت المجال أمام الانتشار السريع للإبداعات الفنية، ولذلك فمن المبرر حقاً الحديث عن فن مملكة ميتاني.

عثر في مدينة أوركيش الرافدية الشمالية على تمثالين لأسدين من البرونز، وعلى كل منهما نقش كتابي يوضح أنهما يمثلان «حجر الأساس» لبناء معبد للإله نرجال في عهد الملك تيش - أتل، وهما الشاهدان الوحيدان - حتى الآن - على الإبداع الفني في مركز حوري خلال أواخر الألف الثالث ق. م. وهما مصنوعان بتقنية نوعية بارعة، ويعكسان تأثراً كبيراً بالأسلوب الرافدي في تصوير الأسود.

من أهم الأعمال التشكيلية المجسمة في مناطق السيادة الميتانية خلال القرن الخامس عشر ق.م تمثال إدريمي ملك ألالاخ الجالس على عرشه. وينسجم هذا التمثال مع تقاليد الفن السوري القديم، ولكنه يفتقر إلى ما عرف عنه من دقة التشكيل ورشاقة الخطوط.

1- د. عيد مرعي ود. محمد حرب فرزات: دول وحضارات في المشرق العربي القديم 168-169.

وعثر في بئر ضمن معبد الإله آشور في مدينة آشور على عمل من النحت النافر يصور إلهة جبلية مع عنزتين، وقد أرخ في القرن الخامس عشر ق.م اعتماداً على معطيات تاريخية وعلى طبيعة الأشكال المصورة فيه، وعد أنموذجاً مميزاً للفن التذكاري الحوري خلال عصر مملكة ميتاني. ولكن ثمة باحثين اقترحوا مؤخراً تأريخه في العصر الأشوري القديم.

بشكل عام يمكن القول إن الفن التذكاري كان خاضعاً لتقاليد محلية، بينما كان النشاط في مجال أعمال الفنون الدقيقة والتطبيقية يساعد على انتشار تقنيات وأساليب فنية وموضوعات فكرية معينة في إطار جغرافي واسع.

ظهرت في الشرق القديم، خلال القرن الخامس عشر ق.م، نماذج جديدة من القطع الفخارية، وانتشرت في مناطق مملكة ميتاني بدلالتها الواسعة، أي في المناطق المركزية وكذلك التابعة لها في الشرق والغرب. وهي تتميز بأسلوب تشكيلها وبزخارفها، والغالب بينها كؤوس رفيعة ذات قواعد صغيرة، تكون في هيئة أزرار أحياناً وعلى سطوحها ذات الألوان الغامقة (بني محمر، أسود) رسوم باللون الأبيض تصور أشكالاً هندسية (حلزونية، مثلثية، أشرطة مضفورة، خطوط متعرجة) وكائنات من الطبيعة (طيور، عنزات، سعف النخيل).

وتسمى هذه النماذج بـ «فخار نوزي»، وقد ظهرت أول مرة في مدينة نوزي ثم في الطبقة الرابعة من ألالاخ، واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م، أي بعد نهاية مملكة ميتاني بزمن طويل.

وفي المرحلة الأخيرة من زمن انتشارها تطور عنها نوع جديد يسمى بفخار عطشانة نسبة إلى الاسم الحديث لموقع ألالاخ. ويتميز هذا النوع بزخارفه النباتية الأنيقة، ويركز تركيب ألوانه والأشكال المصورة عليه بالأشكال الفنية في قصور جزيرة كريت التي تعود جذورها إلى حقبة بعيدة سابقة لظهور فخار نوزي.

إن الأختام الأسطوانية المطبوعة على الرقم الطينية المكتشفة في مدينة أريخا ذات أسلوب متميز، وقد أطلق الاسم الحديث للموقع «أختام كركوك» عليها وعلى نماذج الأسلوب نفسه التي وجدت منتشرة في كل مناطق مملكة ميتاني وفي مناطق أخرى خارج نطاقها. والقسم الأكبر من هذه الأختام مصنوع من مادة متكلسة - يصنع منها الزجاج - أو من الخزف المزخرف، ويظهر فيها التسرع في صناعتها، ونقشت عليها زخارف بوساطة مثقب كروي الرأس ويصطلح على وصفها بـ «النموذج الشائع».

وإلى جانب هذه الأختام البسيطة التي كانت متوافرة للطبقة الفقيرة، وجدت أختام مصنوعة بدقة من مواد قاسية، ولا سيما من الحجر الأحمر (حجر الدم: هيماتيت) ويصطلح على وصفها بـ «النوع المتقن». ومن أروع أمثلة هذا النوع عدد من الأختام الملكية، ولا سيما ختم سوشتتار ملك ميتاني حوالي 1420ق.م، وختم إتخي - تشوب ملك أريخا الأحدث زمناً بقليل.

ومن الموضوعات المتميزة فيها: الكائنات المركبة (الإنسانية - الحيوانية) المجنحة، والشجرة التي تدعى «شجرة الحياة» وتكون قمتها في هيئة شجر النخيل، وقرص الشمس المجنح الذي غالباً ما يكون محمولاً من قبل كائنات مركبة، والأقنعة التي تدعى أقنعة حتحور، والكائنات الخرافية التي يصطلح على تسميتها بـ أبي الهول وغيرها[1].

وغالباً ما تكون الأشكال مبعثرة في المساحة التصويرية دون خطوط تحديدية، ويحرص على ملء المساحة بالأشكال، وليس من النادر أن يقسم جزء من المساحة بخط مستقيم أو منحن إلى مكانين[2].

وفي الختام تبقى تلك الصورة التي استطعنا رسمها للحضارة الحورية - الميتانية شاحبة متداخلة الألوان متعددة المشاكل لاضطرارنا إلى الاقتصار، عند انطلاقنا في البحث حول التاريخ الحوري - الميتاني، على تلك النتف الصغيرة والكسر المبعثرة من هذا الفن التي انبعثت من جوانب المنطقة الحورية.

ورغم أن الحفريات لم تستطع أن تقدم لنا حتى الآن شيئاً أثرياً من قلب هذه المنطقة، فإننا نلمس في كل خطوة نخطوها، على عكس العالم الكاشي، قوة الحياة الديناميكية الجبارة التي يتمتع بها هذا الشعب وطبقته الحاكمة لتغيير معالم الحياة الحضارية لكافة مناطق شمال ما بين النهرين بما في ذلك بلاد آشور وشمال بلاد الشام، وذلك من خلال الكنز الحضاري الذي خلفوه لشعوب الشرق الأدنى في كافة المجالات الحضارية الخصبة الغزيرة.

1- حتحور: إلهة مصرية قديمة، نسبت إليها وظائف متعددة: (حاكمة السماء والروح الحية للأشجار وإلهة السعادة والرقص والموسيقا). وظهرت في صور مختلفة: بقرة، لبوة. أما أبي الهول فهو تمثال لأسد مجنح مصري قديم.

2- جرنوت فيلهلم: الحوريون، مرجع سابق، ص 142-144.

الإمبراطورية الحثية

ترجع أصول الحثيين إلى شعوب هندو أوروبية، كانت انطلقت منذ أواخر الألف الثالث ق.م من السواحل الشمالية للبحر الأسود نحو البلقان والأناضول. وقد استقرت بعض هذه القبائل ما بين 2300-2000ق.م وسط الهضبة الأناضولية شرقي نهر الهاليس (قيزيل إرمق حالياً). وقد أطلق اسم الحثيين على هذه الشعوب وهو الاسم الذي كان يطلق أصلاً على الشعوب والقبائل المحلية المقيمة في الأناضول قبل قدوم الأوروبيين، وكانوا يدعون بالحاتيين وبلادهم بلاد حاتي. ولا يعرف شيء عن لغتهم التي بقي بعض شواهد قليلة منها في اللغة الحثية التي تكلمها القادمون. وينبغي البحث عن حضارة الحاتيين في آثار عصر البرونز القديم في مواقع ألجة هريوك وكانيش وغيرهما. ويظن أن الحثيين الذين قدموا إلى الأناضول قد اكتسبوا كثيراً من خبرات السكان الأصليين في التعدين وتبنوا بعض معتقداتهم الدينية. إننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن هذه المراحل الأولى من تاريخ الحثيين. ولكن تاريخ هذا الشعب بدأ يتضح بصورة أفضل بعد أن أخذ يحتل موقعه بين القوى الجديدة منذ القرن السابع عشر ق.م عند تأسيس المملكة الحثية القديمة وبخاصة في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. ويمكن تتبع بدايات الدولة القديمة من النصوص الأكادية والآشورية القديمة، ثم من الوثائق الحثية نفسها بعد الكشف عنها في العاصمة حاتوشا وبعد تفسيرها على يدي العالم اللغوي التشيكي هروزني (1971). وكان الحثيون يدعون لغتهم «ناشيلي» أي لغة نيشا (nesa)، وهي مدينة لما يتم التعرف عليها بعد. ويظن بعضهم أنها ربما كانت مدينة كانيش، وهناك احتمال بأن تكون في موقع من نيسه على نهر قيزيل إرمق.

ويستنتج من الشواهد المتوافرة أن أسرة حاكمة بدأت تتكون نحو القرن العشرين ق.م في كوسار. ومن المؤكد أن أول اسم معروف تاريخياً من ملوك هذه

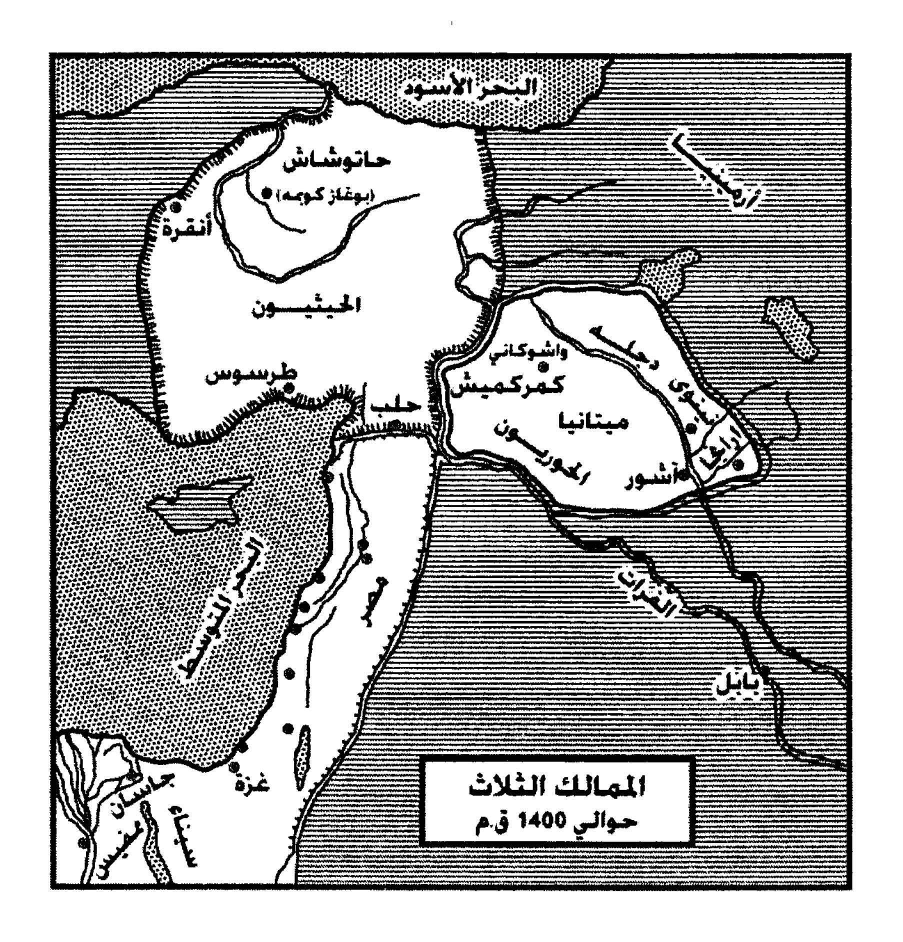
الأسرة هو: لا بارنا. وقد وسع ابنه حاتوشيلي مملكته إلى شمال سورية، وقاد الابن المتبنى لهذا الأخير وهو مورشيليش (مورسيل) حملة صاعقة على سورية وبلاد الرافدين وصل فيها إلى بابل نحو 1595. وبعد دخول الجيش الحثي إلى بابل في نحو ذلك العام انطلقت بداية عصر من القلاقل والاضطرابات زعزعت أركان بلاد الرافدين والشرق الأدنى القديم، وأدت إلى تغييرات جذرية فيه.

كانت الإمبراطورية الحثية التي تكونت بعد ذلك دولة إقطاعية تسودها روح كهنوتية وعسكرية، وللنبلاء فيها مكانة محترمة جداً إلى جانب الملك وأسرته الحاكمة. ورغم محاولة الملك تليبينو الحد من سيطرة هذه الطبقة باستصدار مرسوم نظم فيه وراثة العرش (نحو 1525)، فإن سلطتها بقيت مع ذلك كبيرة ومؤثرة.

وكان النبلاء هم الذين يتولون الإدارة في الولايات ويتسلمون المسؤوليات في البلاد المفتوحة كإقطاعيات حلب وكركميش. أما الملك فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيوش وبترؤس الاحتفالات الدينية. ومن الصعب التعرف على أحوال الطبقات الدنيا، لأن الوثائق التي عثر عليها في حاتوشا هي من طبيعة سياسية - إدارية ودينية. ومع ذلك فإن غالبية المجتمع الحثي تتكون من الفلاحين والصناع، وللتجار نشاط خارجي أيضاً كما توضح لنا نصوص أوغاريت. ولكن عدم توافر نصوص اقتصادية في المحفوظات الحثية لا يتيح لنا الفرصة الكافية للتعرف على التركيب الاقتصادي للبلاد. وإننا نتعرف على بعض جوانب النظام الاقتصادي والحياة الاقتصادية في الدولة الحثية مما نستطيع تكوينه من معلومات من حياة الطبقة الحاكمة ومن سياسة الملوك الحثيين والوثائق التي خلفوها وراءهم.

وبعد فترة مجهولة، سادت فيها اضطرابات متصلة، صعد العرش تود خاليا (توداليا) الثاني (نحو 1460) وهو مؤسس الإمبراطورية الحثية الجديدة. وكان للإمبراطورية الحثية نشاط كبير على المسرح الدولي في المنطقة، فقد تولى الحكم فيها شو بيلو ليوما، (1385) الذي اشتهر بفعاليته وحيويته ومقدرته الفائقة في السياسة والحرب، وما إن تحرك هذا العاهل في ميدان الأحداث، حتى اختل ميزان القوى الذي كانت موازينه قد ضبطت بدقة بسلسلة من الاتفاقات والمعاهدات الدولية بين الإمبراطورية الحثية والدول المجاورة وبخاصة سورية ومصر. وقد اتجه العاهل الحثي إلى وسط سورية، واحتل قطنة (تل المشرفة) القريبة من حماة وحمص (قادش) وسيطر على معظم وادي العاصي، تاركاً وراءه خطوط الدفاع الميتانية مهلهلة لا تقوى

على أي حركة. أما مصر، التي كان يحكمها أمنحوتب الثالث، فلم تستطع بدورها القيام بأي عمل لمواجهة الموقف، بينما تضعضعت مواقف حلفائها من الأمراء السوريين حيالها بصورة واضحة[1].



وبعد سنوات قليلة قتل ملك ميتاني توشراتا في ظروف داخلية وقعت في بلاده، فاغتنم الفرصة ملك آشور (آشور أباليط الأول 1365-1330) لكي يلغي ارتباطه بالتبعية لملك ميتاني، وليقدم على احتلال جزء من أراضي مملكة ميتاني نفسها في منطقة الجزيرة. أما النتيجة الأخرى لهذا التصرف الآشوري، فهو إقدام الإمبراطورية الحثية على ضمّ الجزء الباقي من ميتاني إليها.

1- د. محمد حرب فرزات ود. عيد مرعي: دول وحضارات في الشرق العربي القديم، مرجع سابق، ص 174-175.

وإذا كان من غير الممكن سرد تطور الأحداث بالتفصيل، فمن المفيد تسجيل أبرز التطورات التي وقعت بعد ذلك:

لقد جوبه التوسع الحثي بتحرك مصري كثيف. وكان على الإمبراطورية الحثية أن تتصدى كذلك لأعدائها الكثيرين من شعوب الأناضول أيام مورشيلي الثاني ثم مواتا للي، الذي استطاع إيقاف زحف رعمسيس الثاني الفرعون المصري عند قادش على العاصي وسط سورية. وفي هذه الظروف العصيبة التي كانت تمر بها المنطقة، كانت قوة جديدة في طريقها لاحتلال موقع بارز على مسرح الأحداث هي آشور التي تحركت في اتجاهين: نحو الفرات غرباً ونحو بابل جنوباً. وقد أضحى هذا التحرك في هذين الاتجاهين سياسة استراتيجية للدولة الأشورية طوال تاريخها.

وفي هذه الأثناء طرأ تغيير جديد على العلاقات الدولية في المشرق القديم لم يسبق له مثيل من قبل، ذلك أنه بعد استنفدت قوى كل من المصريين والحثيين في الحروب الطاحنة المتواصلة طوال قرن، توصل الطرفان إلى قرار حاسم بعقد معاهدة عام 1267ق.م، تضمنت بنودها إنهاء القتال والتفاهم على بنود توازن دولي جديد يقوم على اقتسام النفوذ بين الجانبين بخط يمتد على الأرجح بين ميناء جبيل على المتوسط غرباً والفرات شرقاً، وتكون المناطق الواقعة شمال هذا الخط منطقة نفوذ للإمبراطورية الحثية والمنطقة الواقعة جنوبه ضمن نفوذ الفرعون المصري. ويعدُ هذا الاتفاق الأول من نوعه في تاريخ العلاقات الدولية أيام الفرعون المصري رعمسيس الثاني (1290-1224)، والملك الحثي حاتوشيلي الثالث (1285-1260 تقريباً).

غزوات شعوب البحر:

كانت سواحل أوروبا الواقعة على البحر المتوسط تمور بحركات الشعوب التي عرفت في الوثائق المصرية باسم «شعوب البحر». إننا لا نعرف تفاصيل هذه الحركة بشكل واضح، ولكننا نعرف تحركها من خلال آثارها في المنطقة: ففي أثناء هذه التحركات انهارت طروادة، ثم الإمبراطورية الحثية التي دمرت عاصمتها حاتوشا. ثم جاء دور كركميش، وبعدها مدن الساحل السوري وخاصة أوغاريت. ولكن الموجة الأخيرة لهذه الغزوات توقفت عند الحدود المصرية، عندما نجح الفرعون رعمسيس الثالث في إقامة سد في وجه الغزاة نحو 1190ق.م[1].

1- المرجع السابق، ص 176-177.

الدولة الحثية والمجتمع الحثي:

قدم الحثيون، كبقية القبائل الغربية الأخرى، إلى منطقة الشرق الأدنى، نازحين من الشمال عبر المنطقة ما بين البونتوس وبحر قزوين؛ حيث يبدو أن الانشقاق الذي حدث بين اليهود الغربيين والشرقيين لا بد وأنه قد تم فعلاً قبل هذا الزمن بمدة طويلة.

كما يجب أن يكون هؤلاء قد احتكوا خلال استيطانهم لهذه البلاد حتى في بداية الألف الثانية ق.م مع الساميين الغربيين الذين استوطنوا شمال بلاد الشام وشمال بلاد ما بين النهرين، وكذلك مع الحوريين الذين دفعوا من قبلهم إلى الجنوب. ولقد قدر لهم أيضاً في ذلك الزمن الاحتكاك لأول مرة مع الحضارة واللغة البابليتين، فاقتبسوا على الأرجح خلال ذلك الكتابة المسمارية من الساميين الغربيين من «كيل - تبه» حتى قبل وصولهم آسيا الصغرى. وإذا ما أردنا أن نعتبر بأن فجر بناء الإمبراطورية الحثية الكبيرة لم ينبثق على أساس وحدة تامة بل نشأ بالتدريج عن اتحاد دويلات عديدة، فإن انقسامهم آنذاك إلى قبائل مختلفة يشبه أيضاً الحالة نفسها التي كانوا عليها في الحقبة المعاصرة للمستعمرات التجارية الآشورية في الأناضول حتى عهد الملك سارجون الأول الآشوري[1].

كانت الإمبراطورية الحثية دولة إقطاعية، يأتي في القمة الملك الأكبر سيد البلاد قاطبة، ويليه في التسلسل الملوك الصغار. وكان الملك الأكبر ينتقيهم من أفراد أسرته أو أنسابها، ويعينهم على المناطق التابعة له. وقد تضاءل عدد هؤلاء الملوك الصغار في دور الإمبراطورية الحديثة، فاستبدلوا بالحكام.

الملك الأكبر:

كان نظام الملكية انتخاباً في عهد الإمبراطورية القديمة، وللملك حق تعيين خلفه. وقد حكمت البلاد سلالة واحدة في ظل هذه الإمبراطورية. وهذا لم يمنع وقوع خلافات بين الملك والأمراء والطبقة النبيلة. ولم يكن «الملك الأكبر» يحكم البلاد سيداً مطلقاً، فلا بد له من رضى مجلس النبلاء «البانكو» عنه. وعليه أن يقسم اليمين بين يدي هذا المجلس، ويأخذ على نفسه تعهداً بحسن إدارة البلاد. وكان هذا المجلس يعدُ

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق القديم، مرجع سابق، ص 216-217.

بمثابة محكمة عليا يحاكم فيها أعضاء الأسرة الملكية أو الطبقة النبيلة. وكان ملوك الإمبراطورية القديمة يحملون لقب «تابارنا» ولقب «بطل». وفي عهد الملك شو بيلو ليوما صار اسم «الشمس». وتدلنا رسائل تل العمارنة ورسائل الأمراء الكنعانيين على هذه التسمية المأخوذة عن مصر، لأن ابن رع هو الإله الشمس.

غير أن ملك الحثيين لا يؤله في حياته كفرعون مصر وملوك بابل، بل يصبح إلهاً بعد وفاته، ولا يقال عنه إنه «مات» بل أصبح «إلهاً»، وتقام له عبادة خاصة، وهي من نوع عبادة الأسلاف. وكان حرسه «مشيدي» يعزله عن العالم الخارجي. وله في قصره موظفون وخدم وأتباع يهيئون له ما يحتاجه.

وعندما يتولى العرش، تقام له حفلة مباركة ويسمى باسم جديد. وكما هي الحال في بلاد الشرق الأخرى، كان ملك الحثيين وسيطاً بين الله وشعبه، فعليه أن يؤمن لنفسه ولبلاده: الصحة في الأجسام، والنصر على الأعداء، والخير والبركة على الأرض. وكانت أدعية الصلوات والحفلات الدينية تنطق عن هذه الأماني والرغائب، لأن الحثيين يعتبرون السنوات العجاف والأمراض والأوبئة إنما هي غضب من الله، وعلى الملك أن يدفع عن رعاياه غائلة الجوع والفقر والمرض والحر والبرد.

ولقد أوضحت وفرة النصوص في عهد الإمبراطورية الحديثة واجبات الملك تجاه رعاياه ككاهن أكبر، ووسيط بين الله وبين الشعب، ودافع للضر، وله وحدة أن يحتفل بالأعياد الكبرى للآلهة، تاركاً أمر العبادة اليومية إلى الكهان لينوبوا عنه في أدائها.

ففي الحفلات الدينية الكبرى، كان الملك الأكبر يرتدي رداءً خاصاً ولباس رأس خاصاً، وقد وصلنا شكل هذا اللباس، ويمسك بيده الصولجان ويترأس الحفلة بحضور الملكة وولي العهد، ويدعو الكهنة إلى إراقة الخمور وتقديم الخبز. وقد جرت العادة، قبل حلول فصل الشتاء، أن يقوم بزيارة رسمية إلى المعابد الكبرى في أنحاء البلاد[1].

وكان الملك قائداً أعلى للجيش في الحرب، لأن الحثيين أمة محاربة، وقد قامت دولتهم على الحرب ولا يمكنها البقاء والحياة إلا بالحرب، ولا يخلو عام من الحرب... وكثيراً ما تستلزم الحروب بقاء الملك زمناً طويلاً خارج بلاده. فقد بقي الملك شو بيلو ليوما عشرين عاماً في سورية بعيداً عن قصره. وكثيراً ما كانت الدسائس تحاك في

1- د. نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، مرجع سابق، ص 262-263.

البلاط أثناء غيابه... وقد تحدث أمور أخرى، كالثورات مثلاً، مما ينتج عنها خسائر وأضرار في الدوائر المدنية والدينية.

وكان الملك قاضياً أعلى، وهو الذي يسن القوانين ويترك تنفيذها إلى موظفي الدولة، وله أن ينظر في القضايا الكبرى دون غيره، كجريمة الإعدام بالموت، والدعاوى المقامة على أصحاب المناصب العليا في الدولة، والمنازعات التي تقوم بين أتباعه، وفي التظلمات التي ترفع إليه ضدهم.

الملكة:

لم يؤثر عن الحثيين أن اعتلت عرشهم امرأة، غير أنه كان في استطاعة الملكة أن تكون وصية، وأن تقوم إلى جانب زوجها بقسط رسمي في الحفلات الدينية، بل وأن تترأس هذه الحفلات. وقد لعبت بعض الملكات دوراً أساسياً هاماً، كالدور الذي لعبته بودو هيبا زوجة حاتوشيل الثالث. فقد كانت كاهنة بنت كاهن، وقد تزوجها حاتوشيل بأمر من الإلهة سموحة. وإن أكثر الوثائق التي تحمل اسم حاتوشيل كانت تحمل في الوقت نفسه اسم الملكة.

نساء الملك:

ولم تكن الملكة هي المرأة الوحيدة في حياة الملك، فقد كان له محظيات عديدات. ولكن الملكة كانت تحتل المكانة الممتازة في البلاط الملكي، ولها وحدها أن تظهر في الحفلات العامة، فهي المرأة والزوجة الحق، وتأتي بعدها زوجته من الدرجة الثانية، ويحق لأبنائها أن يرثوا العرش، إذا لم يكن للملك المتوفى وارث من زوجته الأولى. ويليها في التسلسل نساء أخريات، ليس لأولادهن حق في الملك. ولم يعرف عن ملوك الحثيين أن تعاطوا الزواج بقريباتهم بالدم كما في مصر.

ولي العهد:

واجتناباً لحدوث الفوضى والاضطرابات، كان على الملك، وهو على قيد الحياة، أن يعين ولي عهده ووارثه. ويوافق على هذا التعيين كبار رجال المملكة، ويبايعون الملك المرشح، وعندئذ يشارك أباه في إدارة الشؤون العامة، ويساهم في حفلات العبادة إلى جانب أبيه وأمه[1].

1- المرجع السابق، ص 264-265.

الملوك الصغار:

وكان الملك الأكبر يخول إدارة بعض الأراضي في داخل البلاد إلى أمير من أسرته ويمنحه لقب ملك. وهذه المملكة الصغيرة المتشكلة على هذا النحو لصالح الأمير الحثي، تبقى جزءاً متمماً لا يتجزأ من مملكة الملك الأكبر، فله فيها السيادة المدنية والدينية والزعامة العسكرية العليا، وعلى الملك الصغير أن يقسم يمين الولاء بين يدي الملك الأكبر الذي يخوله إدارتها ويعطيه الضمانات الكفيلة بسلامتها وتأمين وراثتها إلى أنساله من بعده.

الحكام:

كان النظام الإقطاعي في ظل الإمبراطورية القديمة، يكفل للملوك الصغار دوام وضعهم. وكذا الحال في الإمبراطورية الحديثة في البلاد المفتوحة. غير أن تطوراً حدث في بلاد الحثيين الأصلية، وتم تبديل نظام الإقطاعيين بحكام يمكن عزلهم في أي وقت ويخولهم سلطات عسكرية ومدنية.

إن أهم واجبات الملك الأكبر أن يؤمن لبلاده رضى الآلهة. أما واجب الحاكم، وهو نائب الملك في إقليمه، فهو تأمين ممارسة العبادة. وتضم هذه الأخيرة العناية بالمعابد وضبط أموالها، وتسمية كهنتها والإشراف على تقديم القرابين بشكل لائق، والاحتفال بأعياد الآلهة، في الوقت المناسب.

وعلى الحاكم أن يؤمن رضى الآلهة واحترام الأكليروس، وأن يمارس سلطته القضائية بطريق الضابطة ومجلس الشيوخ. وله أن يحاكم أي فرد، مهما كان وضعه، وفقاً لقواعد الحق والعدل.

وكانت للحاكم اليد العليا على قصور الملك وأملاكه وهيئاتها. فله أن يتدخل للحيلولة دون أي اضطرابات أو اعتداء على أموال الملك أو نهبها، وأن يعنى بالزراعة، ويسلف المزارع البذار، ويشرف على رجال الضابطة في الأرياف، ويحمي المزروعات من الحيوانات السائمة.

المدن المقدسة:

وإلى جانب هذه الممالك الصغيرة المقامة لصالح الأمراء من أسرة الملك الأكبر، كان في بلاد الحثيين ثلاث مدن مقدسة وهي: عرينا، ونيريق، وزيبا لاندا. وكان زعيم الأكليروس في هذه المدن يمارس السلطة المدنية، بالإضافة إلى وظائفه الدينية.

الأمراء والشعب:

وتحت صغار الملوك والحكام وكبار الكهان في المدن المقدسة والأمراء، يأتي رؤساء البلاط والأقاليم، ولكل منهم وظائف خاصة. وعلى كل منهم أن يقسم يمين الولاء، أثناء توليه منصبه، بأن يعمل حسب النظم الموضوعة، وأن يكون مخلصاً للملك ولخلفائه الشرعيين من بعده، وعليهم أن يكونوا إلى جانب سيدهم في الحرب، وأن يسلحوا على نفقتهم الخاصة سائقي العربات الحربية والمشاة، على أن تعوض الغنائم ما أنفقوه من مال لهذا الغرض.

وكانت الطبقة الوسطى عند الحثيين تتألف من المحاربين والزراع والصناع وعمال الحقول. وكان المحاربون يؤلفون قوام الجيش الحثي، ويتقاضون جزاء الخدمات التي يؤدونها للملك أراضي يزرعونها لصالحهم، ويلتحق بكل محارب «تابع» يعنى بالحقول عند غياب سيده. وباستطاعة هؤلاء المحاربين أن يكونوا أمراء إقطاعيين مقابل أتاوة يؤدونها للملك.

العمال اليدويون والأرقاء:

وتحت المحاربين يأتي العمال اليدويون والمشتغلون بالحقول. وكان لهؤلاء العمال اليدويين، من بنائين وحائكين وخياطين ودباغين وخرافين وحدادين، أنظمة وتعاليم خاصة، وهم يرتبطون بالأرض مع عائلاتهم، كالعمال الزراعيين. ومثل هذا النظام كان يفرض على النبلاء ممن يتآمرون على سلامة الملك ويُردون إلى شرط العمال في الريف.

وعندما تنتهي الحرب مع الأعداء، يأتي الملك الأكبر بالأسلاب والغنائم من الرجال والقطعان والأشياء الثمينة. ثم يوزع الأسرى على المدن الحثية والمناطق قليلة السكان وعلى المعابد، ولهم أنظمة خاصة. كما يدخل قسم منهم في الجيش، وآخرون يُرسلون أرقاء في خدمة الأمراء والمحاربين.

وكان هؤلاء الأرقاء يؤلفون أدنى طبقة في المجتمع الحثي. ولم يكونوا سواسية، بل إن حال بعضهم تتعلق بالوضع الاجتماعي لسيدهم. فعبيد الإدارة والأمراء يتمتعون بامتيازات. أما الرعاة والعطارون وسقاة الماء، فمنبوذون محتقرون، لأن حالتهم هذه نتيجة لعقاب حلَّ بهم.

وكان القانون يخول هؤلاء الأرقاء حق الزواج بامرأة حرة دون أن تخسر الفوائد المترتبة على وضعها الاجتماعي. والشرط الوحيد في هذه الحالة هو أن يكون الزوج

قادراً على دفع ثمن شراء المرأة. وإذا فسخ الزواج فإن توزيع الأطفال والأولاد يكون حسب القواعد الموضوعة للأحرار. أما النساء المتزوجات برعاة أو عطارين، فإنهن يفقدن حريتهن خلال مدة تتراوح بين السنتين والأربع سنوات[1].

السخرة:

لقد وضعت السخرة للقيام ببعض الأعمال كصيانة الطرق أو إصلاح المعابد. وكان رجال الدين معفين منها، وكذلك سلطات المدن المقدسة الثلاث. وللملك أن يعفي من السخرة من يشاء من الناس. وكان بعض المحاربين معفين من السخرة كالكهان. وقد حاول أصحاب الإقطاعات أن يعاملوا كهؤلاء ويعفوا من السخرة، إلا أن جهودهم كانت عبثاً.

وكان المعدنيون ملزمين بالعمل في الترسانات عندما يكون الملك في حملة من الحملات العسكرية، وذلك لإصلاح الأسلحة والعناية بها. ولا يمكنهم الانفكاك عن هذا العمل إلا لقطاف العنب.

وأخيراً، كانت بعض الأتاوات تدفع عيناً إلى الملك. وكان لها في عهد الإمبراطورية القديمة جباة يجمعونها في دور خاصة تسمى «الدور المختومة» أي في مخازن الدولة. وعلى هؤلاء الموظفين تهيئة إقامة الموكب الملكي وإعاشته أثناء الحجج السنوي إلى المعابد الكبرى.

الأسرة:

إن التشريع الحثي لا يبحث في حقوق العائلة، بل في الزواج فقط. وليس لدينا معلومات واضحة عن نظام تعدد الزوجات ووضع الأولاد والتبني وتوزيع الإرث. وكان للطبقات العليا أحكام شرعية خاصة لا تطبق على رعايا الملك الأكبر جميعهم.

ومن التعابير التي كان يدل بها على علاقات الزوجية، يرى أن وضع الزوج كان متفوقاً بالنسبة إلى المرأة. وفي الواقع كان الزواج جانبياً كما في بابل وآشور، ويتلخص في أن الرجل يتخذ امرأة زوجة له، أو أن أباً يسلمه ابنته لتكون زوجة له. وفي هذه الحال تصبح مُلكاً خاصاً به. وكان الزواج يتم بين شخصين من وضع اجتماعي واحد أو بين شخصين من وضعين مختلفين. وهذا الزواج يحدث شراء أو خطفاً. ويتم زواج

1- نفس المرجع، ص 266-267.

الشراء بين الناس الأحرار بعد اتفاق مسبق، ويحتفل بالخطبة. وفي الحفلة يقدم الخطيب هديته إلى الفتاة، فتصبح خطيبته. على أن الأهل في استطاعتهم فسخ الخطبة لتزويج ابنتهم، وربما سلمت إلى الشخص الذي خطبها أولاً.

هذا وتستطيع الزوجة أن تسكن مع زوجها، إما في داره أو في دار أبيها، وهذه هي عادة الآشوريين في العصر نفسه.

ويلزم الزواج المرأة بالأمانة الزوجية. فإذا أمسك رجل بامرأة في الجبل أو في الريف، اعتبر هذا العمل منه جرماً وأعدم، ولا جناح عليها إذا كانت الشروط، التي ألمت بها، لا تسمح بطلب النجدة أو الاستغاثة. أما إذا أمسك الرجل بها وهي في الدار اعتبر هذا العمل جرماً شائناً وأعدمت. وإذا وجد الزوج زوجته مع آخر متلبسين بالجرم وقتلهما فلا قصاص عليه... وكان الحثيون يتزوجون امرأة أخيهم المتوفى إذا لم يكن له وارث، كما كانت عادة الأشوريين والعبرانيين. ونكاد لا نعرف شيئاً عن حقوق الأب على أولاده أو عن التبني أو عن طرد الأم الأرملة أو المهجورة لابنها إذا كان فاسداً سيء السلوك[1].

قانون العقوبات:

إن الجرائم والجنح التي ترتكب ضد الأشخاص هي القتل والضرب والجروح والإجهاض والخطف (إلا إذا كان في سبيل الزواج) والاعتداء على الأخلاق، والأعمال المخالفة للطبيعة، كقتل الابن أباه مثلاً، والثورة على الملك، وأذى السحر. وتختلف العقوبة حسب ظروف المجرم وظروف الضحية، وحسب المكان الذي ارتكب فيه الفعل الإجرامي، وتكون مشددة إذا كان الجرم عن سابق تصور وتصميم، وتكون بالإعدام أو بدفع غرامة نقدية أو رقيق أو أراضٍ.

وقد حدد القانون المسؤولية الجماعية، التي تقع على عاتق الأسرة ومسؤولية القرية في حال الخطف أو الثورة على الملك، ومسؤوليتها حال ارتكاب جرم القتل من مجهول على أرضها.

أما الجرائم التي ترتكب ضد الملكية، كالسرقة والحريق والضرار المختلفة، فتعوض عادة بعدد من الحيوانات، وبمبلغ من المال، وبكمية من الشعير أو الصوف، أو إصلاح الضرر أو التعويض عن الشيء المتلوف بمثله. ويبدو أن قانون العقوبات الحثي،

1- المرجع السابق، ص 268-269.

في مجموعه، أقل صرامة من القانون البابلي. وقد جرت عليه خلال العصور عدة تعديلات خففت فيه العقوبات، وأزالت الأضاحي البشرية، واستعاضت عنها بأضاحي حيوانية. أما الموظفون المدنيون وسدنة المعابد، فقد كانت لهم تشريعات خاصة مشددة، لأن أخطاءهم تعتبر كبائر، نظراً لصفة الشخص المتضرر ملكاً أو إلهاً[1].

الحكومة:

كان النظام المدني التقليدي للقطر في جوهره محلياً محدوداً، فكان لكل من دويلات المدن المتناثرة - ومجتمعات الأودية - مجلس محلي من الشيوخ. وهو يشرف عادة على الإدارة المحلية، وعلى الأخص تسوية المنازعات. وكان للمراكز الدينية الهامة فقط نظام مختلف. ونحن نعرف من رواية أسترابون عن المدينة المقدسة «كومانا» في عهد الإمبراطور الروماني تبيروس، كيف أن مثل هذه المدن كانت تعتمد اعتماداً كلياً على المعبد منذ العهود الموغلة في القدم، وكان الكاهن الأعظم في الوقت نفسه هو الحاكم المدني. وتوجد إشارات غير مباشرة إلى تلك المدن المقدسة في النصوص الحثية، ولكننا على ثقة من أن هذا النمط من النظام يرجع إلى أصل قديم جداً.

وقد احتفظ ملوك حاتوشا (بوغازكوي) في بداية الأمر لأنفسهم بالإشراف المباشر على الأقاليم الجديدة التي استولوا عليها بالفتح، وذلك بأن عهدوا بإدارتها إلى أبنائهم أنفسهم. وقد كان أولاد «لابارناس» قد اعتادوا أن يخرجوا لإدارة المقاطعات التي خصصت لهم بعد عودتهم من الحملات السنوية. ثم نقرأ فيما بعد، عن مناصب مماثلة أنعم بها على القواعد، الذين كانوا عادة من أقرباء الملك. وتشتمل إدارة المقاطعة هذه على واجبات منها: إصلاح الطرق والمباني العامة، والمعابد، وتنصيب الكهنة، والاحتفال بالشعائر الدينية وإقامة العدالة. ويظهر أن تعيين مثل هؤلاء المديرين كان غير رسمي كما كان مؤقتاً، ولم يكن من المحتم أن يكون للوظيفة لقب خاص. وقد أصبح مثل هذا النظام غير صالح حين اتسعت رقعة الإمبراطورية، فامتدت إلى خارج حدود هضبة «كبادوليا». وحتى قبل ذلك، يمكننا أن نلاحظ بداية نظام مختلف في إقطاعيات أمراء البيت المالك، الذين أطلق عليهم في النصوص الأولى لقب «أمير» مدينة كذا مثل زالبا، هوبيسنا، أوسا، سوجزيبا، ونيناسا. ولكن صعوبات سرعة الاتصال خلال الممرات الجبلية قد استلزمت تعيين حكام من نوع أكثر دواماً

1- نفس المرجع، ص 270.

واستقلالاً، يرتبطون بالسلطة المالكة بإيمان الولاء المقدسة الصريحة. وبالإضافة إلى ذلك أثبتت هذه الإمبراطورية الحثية، التي أخذت تزداد اتساعاً، أنها قادرة على اجتذاب الممالك الصغيرة الضعيفة المحيطة بها. وقد أضحت ممالك سورية على الأخص في موقف حرج بين الإمبراطوريتين الطموحتين الحثية والمصرية. ولذا سعى حكامها للاحتفاظ بعروشهم، من خلال اتباع سياسة مرنة، آيتها الانحياز إلى الدولة التي تبدو في أي وقت أنها أقوى. وقد اجتذبت كل من أمورو (مملكة الأموريين في لبنان - وكيزوواتنا في كيليكيا) إلى مدار الإمبراطورية الحثية، واعتبرتا مملكتين تابعتين إلى جانب تلك التي استولى عليها الملك الحثي فعلاً بقوة السلاح[1].

ويتوقف مركز المقاطعات التي استولى عليها بهذه الطرق على عوامل عدة. فالمراكز الرئيسية مثل حلب وكركميش وداتاسا قد ضمت إلى المملكة واحتفظ بها لأمراء البيت المالك الذين حكموا هناك أتباعاً من نوع خاص مخلص. وفي الطريق الآخر المقابل كانت توجد المحميات، وهي ممالك كانت تتمتع بمكانة كبيرة في عهد قريب جداً، وكان من الضروري استرضاؤها بإعطائها على الأقل مظهر الاستقلال.

وكان يحكم معظم الممالك التابعة ولاة من أبناء الأقاليم، ولكنهم كانوا إما لاجئين وإما زعماء أحزاب موالية للحثيين، وكانوا مخلصين للرئيس الحثي الأعلى. وكان الملك التابع هو الحاكم ذو السيادة داخل إقليمه، ولكن كان محظوراً عليه عادة أن يمدّ الجيش الحثي بفرقة في كل وقت توجه فيه الحملات ضد إحدى الدول العظمى أو ضد دول تقع في جوار ممتلكاته. وكان عليه أن يؤدي يمين الولاء الدائم للملك وخلفائه. وفي مقابل ذلك كان الملك يضمن تولية الوارث الشرعي للعرش.

وكان إخلاص الولاة يتمثل عادة في تقديم الأتاوة سنوياً. وتمثل هذه الشروط إجمالاً مصالح السيد الأعلى، وتعكس حقيقة الأواصر التي تربط بين سلطانه وسلطان تابعه. وكان الزواج الدبلوماسي طريقة جيدة في اجتذاب التابع إلى جانب مصلحة الأسرة المركزية.

ولكن هذا النظام الذي شيد بإحكام، لم يكتب له البقاء. فهجوم آشور إلى الشرق، ومؤامرات أرزاوا في الغرب، وغزوات المغامرين أمثال مادو وأتاس وميتاس

1- أ. ر. جرني: الحثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، مراجعة د. فيصل الوائلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997، ص 98-99.

كانت سبباً في فقدان مقاطعات الحدود. وفي الواقع لم تكن هناك أية وسيلة أخرى للمحافظة على الحدود غير الاستمرار في الحرب[1].

السياسة الخارجية:

لم يَرَ الملوك الحثيون الأوائل خارج حدود بلادهم إلا أعداء. ومن عصر شوبيلوليوما جمع عالم غرب آسيا صفوفه، وأصبحت تحكمه ثلاث قوى عظمى: مصر وبابل وميتاني (المملكة الحورية التي كانت تحكمها طبقة أرستقراطية من أصل هندي - إيراني). وقد حققت هذه القوى درجة من التوازن. وتدل المراسلات الدبلوماسية التي وجدت في تل العمارنة على أنهم كانوا على علاقات طيبة جداً فيما بينهم، إذ كانت بعثات دبلوماسية تروح وتغدو حاملة أفخم الهدايا. كما كان الملوك الثلاثة يخاطبون بعضهم البعض كأخوة، كما كانت تتوطد الصداقة بينهم بعقد زيجات دبلوماسية بانتظام. ولما قضت حملات شو بيلو ليوما على قوة ميتاني، قبلت حاتوشا بعد ذلك بحكم قوتها كإحدى الدول الثلاث الكبرى في المجتمع الدولي القديم.

وعندما يعقد ملكان عظيمان معاهدة بينهما، فإنها كانت تقوم على أسس من المساواة التامة والمصالح المتبادلة. والنموذج الوحيد الباقي لمعاهدة كهذه هو تلك المعاهدة التي عقدت بين حاتوشليش الثالث ورعمسيس الثاني، حوالي 1269ق.م.

والمبدأ الأساسي في مثل هذه المعاهدات هو إنشاء علاقات أخوية. ويتضمن هذا استحالة نشوب حرب بين القوتين وقيام تحالف هجومي ودفاعي. وكانت هذه الموضوعات تتناولها المعاهدات بإسهاب، كما يتعهد الطرفان المتعاقدان أيضاً بأنه في حالة وفاة أحدهما، فإن على الثاني أن يضمن للوارث الشرعي ولاية العرش. وكان هذا الضمان العائلي المتبادل، كما رأينا، شرطاً ذا قيمة جوهرية مماثلة في المعاهدات مع الولاة التابعين، لأنه عندما تكون الأسرة هي الدولة، فالثورة معناها دمار المملكة نفسها، مهما كان مركزها في العالم الدولي.

وهكذا وجدت نسختان من معاهدة رعمسيس - حاتوشليش إحداهما مكتوبة بالهيروغليفية المصرية على جدران كوي (عاصمة الدولة الحثية). وكان يمنح هذا الامتياز (أحياناً) نفسه للولاة التابعين ترضية وتكريماً.

1- المرجع السابق، ص 102-103.

وكانت الشعوب في مناوراتها السياسية تحرص على تجنب الإساءة لجارتها القوية[1].

الحياة الاقتصادية:

هضبة آسيا الصغرى هي إلى حد ما امتداد للسهوب الروسية، ومناخها قاس. وتسبب الرياح العاتية التي تهب من الشمال سقوط الثلوج بكثرة خلال أشهر الشتاء، وبعد ربيع قصير، وإن كان مبهجاً، تلتهب البلاد خلال الصيف من قسوة الشمس، وتفرغ السحب أمطارها عادة على منحدرات طوروس أو على سفوح التلال المحاذية للبحر الأسود. وعليه فالهضبة الوسطى هي بلاد سهوبية تكتسحها الرياح، ولا يوجد فيها ماء كاف، ولا مأوى لاستقرار الإنسان إلا في أودية الأنهار فحسب. وقد يسافر المرء ساعات عديدة في السهل المتموج القاحل ثم فجأة يرى وادياً مليئاً بالمياه على مسافة بضع مئات من الأقدام أسفل منه، بينما يوجد وراء ذلك منظر بعيد لتلال مستديرة كتلك التي خلفها. وفي موطن الحثيين في شمال نهر كبادوكس (دليجي ارمك)، تكثر القنوات والأودية وتصير البلاد إلى حد ما أقل كآبة. ويكاد يقع كل فدان على مقربة من قرية، ويبذل في زراعته مجهود كبير. وما يسترعي الأنظار خلو الأراضي المرتفعة من الأشجار، ولا يوجد ما يحتمى به من الرياح الشتوية القارصة.

لا يمكن أن تكون الأحوال مختلفة عن ذلك كثيراً في العصر الحثي. ومصدرنا الرئيس عن طبيعة المجتمع الحثي، هو القانون، الذي يفترض اقتصاداً معتمداً على الزراعة في كل شيء. ولدينا أيضاً قوائم بالحقول وصكوك تملّك مفصلة تحتوي على قوائم العقارات ذات المساحات الكبيرة. وفيما يلي بعض فقرات من القانون تبين الأساس الزراعي للمدينة الحثية:

75- إذا اقترض امرؤ ثوراً وشده إلى نير، أو اقترض حصاناً أو بغلاً أو حماراً ومات أو أكله الذئب، أو ضل، فعليه أن يرد آخر في حالة جيدة. ولكن إذا قال: «نفق بأمر الله» حينئذٍ عليه أن يحلف اليمين.

86- وإذا دخل خنزير إلى مرج أو حقل أو حديقة ثم ضربة صاحب المرج أو الحقل أو الحديقة حتى مات، فعليه أن يعيده إلى صاحبه، ولكن إذا لم يعده يصبح لصاً.

1- نفس المرجع، ص 104.

105- إذا أشعل امرؤ النار في (أغصان مقطوعة؟)، وتركها حيث هي، وأمسكت النار بحديقة كرم، فإذا احترق الكرم وشجر التفاح، والرمان، وشجر الكمثرى، فعن كل شجرة واحدة يدفع (ستة) أشقال من الفضة، ويعيد زراعة المزرعة. فإذا كان عبداً يدفع ثلاثة أشقال من الفضة.

151- إذا استأجر امرؤ ثوراً للحرث، فإيجاره في الشهر الواحد شقل واحد من الفضة.

159- إذا أسرج امرؤ ثورين تحت نير واحد، فإيجارهما نصف مكيال من الشعير.

91- إذا سرق امرؤ نحلاً في ثول، كان من المعتاد في الماضي دفع مينا واحد من الفضة (ولكنه) الآن سيدفع خمسة أشقال من الفضة.

وقد عرفنا من هذه المقتبسات أكثر الحيوانات المستأنسة التي يحتفظ بها الحثيون: النعاج، الكباش، الخنازير، الثيران. وكثيراً من أشجار الفواكة التي يزرعونها: التفاح، الكمثرى، الرمان.. الخ، ونرى أنها تتفق في معظمها مع حيوانات وأشجار اليوم.

وكانت المحصولات الغذائية الرئيسة هي الشعير والقمح، اللذين لم يقتصر استعمالها على إنتاج الدقيق والخبز فقط، بل استخدما في صناعة الجعة أيضاً. والمعتقد أن الكرمة كانت أصيلة في الأناضول، ومن المؤكد أنها كانت تزرع بكثرة في العصر الحثي. وزرع الزيتون في العصر الروماني بكثرة في (ملطية) وعلى ساحل بحر مرمرة، ولكنه لم يزدهر في المرتفعات، وربما استخرج الزيت من شجر اللوز. وقد ذكرت أحياناً البازلاء والبقول في النصوص ، وربما كان الكتان يزرع محلياً كما هو الحال اليوم.

وسلاسل جبال الأناضول الضخمة غنية بمعادنها، ولا بد أنها استغلت منذ أقدم العصور. وكان النحاس أهم مواد التصدير عند التجار الآشوريين في كبادوكيا قبل تأسيس مملكة حاتي بقليل. ومن الواضح أن الفضة كانت متوافرة منذ ذلك العصر والعصور التالية لأنها استعملت كعملة.

وتعطي النصوص الحثية والآشورية في كبادوكيا الأسماء الحقيقية للجبال والمدن التي استخرجت منها هذه المعادن، ولكن لم يسعفنا الحظ في التعرف على هذه الأماكن.

وكان النحاس والبرونز معدنان شائعان يستعملان بكثرة في صناعة الأسلحة والأدوات من جميع الأنواع. ولم يوجد إلا بعض أدوات قليلة مصنوعة من الحديد من

العصر الحثي، ومع أن السيوف الحديدية، وألواح الكتابة الحديدية، وحتى تماثيل الآلهة، والحيوانات الحديدية قد ذكرت في النصوص الحثية، فقد كانت جميعها أدوات خاصة، فهي إما كانت مكرسة للمعابد، وإما قصد بها أن تكون هدايا ملكية[1].

وواسطة التبادل في المملكة الحثية، بل بالأحرى في جميع أنحاء الشرق الأوسط في ذلك الوقت، كانت الفضة، (أو الرصاص للقيم الصغيرة) في قضبان أو حلقات، تحسب بالوزن، رغم أن طريقة الحساب البدائية على أساس مكيال الشعير كانت توجد أيضاً أحياناً. وكانت وحدة الوزن الشقل، و 60 منها تساوي مينا واحداً، كما في بلاد بابل.

ووجود هذه العملات الفضية واستعمال الأسماء البابلية لوحدات الوزن هو دليل آخر على ما تدين به المدينة الحثية لجاراتها الشرقيات. فقد ذكر في القانون أن التجار الحثيين يرحلون إلى مقاطعات لوويا luwiya، وبالا، ولا يوجد ما يدعو إلى الشك في أنهم كانوا يتاجرون ببضاعتهم عبر الحدود مع الأقطار المجاورة[2].

الملكية:

ترينا القوانين شكلاً لنظام اجتماعي لا ينحصر فيه حق التملك فقط بالمعبد والملك والأشراف، بل إن الأمر لأكثر من هذا، إذ أنه نظام يسمح لكل فرد فيه حق الحصول على ملك خاص به. فيجوز لكل إنسان في هذا المجتمع الحصول على أرض إما عن طريق استصلاح الأراضي الزراعية، أو عن طريق الشراء، حتى وعن طريق تملك قطعة أرض زراعية أهملت فأصبحت بوراً. كما أن لكل فرد حق اقتناء العبيد عن طريق الشراء، وكذلك شراء حيوانات وأدوات مختلفة ومنتجات زراعية. وقد بلغ الأمر درجة أن سمح هذا القانون حتى للعبيد باقتناء مُلك عن طريق الشراء وحتى شراء امرأة حرة. إنها لثورة اجتماعية جارية في طريق التطور: فالعبيد ينتقلون إلى حياة الحرية تدريجياً بمساعدة ما في حوزتهم من ملك خاص، وصاحب الحرفة الذي ما زال نصف مرتبط بالأعمال الزراعية التي يعيش عليها، يشرئب بعنقه إلى الاستقلال بفك نفسه من الأواصر التي تربطه بحياته القروية الزراعية. وعدا عن ذلك نرى بين طبقتي الأحرار والعبيد طبقة انتقالية، هي طبقة نصف الأحرار التي

1- المرجع السابق، ص 108-109.

2- نفس المرجع، ص 113-114.

تقابل «مشكينو» في العالم البابلي. وقد كان غالب أفراد هذه الطبقة من الجنود ومقتطعي الأراضي الذين حصلوا بناء على أمر الملك من سكان القرية منزلاً وقطعة أرض مقابل قيامهم بالأعمال الحربية. وإلى جانب هؤلاء جميعاً نجد أولئك من يسمون بأناس «نام – را» المرتبطين بالمنطقة التي يعيشون فيها. ومن الممكن أن يكون هؤلاء من أسرى الحرب، فهجروا إلى هذه المناطق الجديدة ليرتبط مصيرهم بها. كان هذا التركيب الاجتماعي بصورة عامة نظاماً إقطاعياً: من العبيد إلى المحاربين نصف الأحرار، إلى المزارعين وأصحاب الحرف، وكذلك إلى الأحرار التجار المالكين والكهنة وإلى الأشراف الإقطاعيين الكبار وحاملي ألقاب الشرف الملكية. لقد ارتكز هذا النظام على أسلوب إقطاع الأراضي، وهي الطريقة نفسها التي حددت أيضاً صبغة تبعية البلدان الأجنبية للإمبراطورية الحثية. إلا أن هناك دلائل تشير إلى تحول في دولة الإقطاع هذه في طريقها لتصبح دولة الحكام والموظفين. إن هذا الشكل الاجتماعي، الذي توضحه لنا مخلفات الحثيين من وثائق كتابية تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، يجب أن يكون هو النظام نفسه الذي ساد عند الكاشيين في بلاد بابل وكذلك في الإمبراطورية الحورية – الميتانية أيضاً. لقد ساد هذا الهيكل الاجتماعي عالم الشرق الأدنى، بعد أن تغيرت معالم وجهه على يد نظام فروسية الشعوب الجبلية، وذلك بالدرجة نفسها التي اصطبغت بها أيضاً مجتمعات أوروبا إثر هجرة الشعوب الكبيرة إليها[1].

الجيش:

تتوقف قوة الإمبراطورية الحثية، كما هو الحال مع غيرها من الممالك المعاصرة، على التقدم الكبير في سلاح جديد، ظهر في كل غرب آسيا بعد عام 1600ق.م بقليل – وهي المركبة الخفيفة التي تجرها الخيول.

ومركبة القتال كما هي لم تكن جديدة، فقد كان للسومريين نوعان من المركبات، إحداهما بعجلتين، والأخرى بأربع عجلات، وكانت العجلات صلدة، ثقيلة، ويبدو أن الحيوانات التي كانت تجرها هي الحمير الوحشية. وكان السومريون يعتمدون دائماً على فيلق المشاة بصورة رئيسة. ومع أن الحصان كان معروفاً، إلا أنه لم يستعمل في أي غرض حربي. وأغلب الظن أن تجار كبادوكيا استعملوا الخيول لجر

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص 223-224.

الأثقال، ولكن مركباتهم كانت لا تزال من النوع السومري القديم ذي العجلات الأربع. والمركبة الخفيفة التي تجرها الخيل والتي عجلاتها ذات برامق ترجع إلى عالم ما بعد سقوط الأموريين. وقد ظهرت في الوقت نفسه في بابل الكاشية وفي مصر في الأسرة الثامنة عشرة، وفي الدولة الحديثة التي أقامتها ميتاني في الشمال، وقد خلقت ثورة في عالم الحرب، فمنذ ذلك الوقت أصبحت السرعة هي العامل الحاسم في المعركة.

ويمدنا أرشيف بوغازكوي بالسر الذي يوضح هذا التقدم المفاجئ، إذ أنه يحتوي على دراسة مستفيضة مدونة في أربع ألواح عن تدريب الخيل وأقلمتها بمعرفة شخص يدعى كيكولي من ميتاني. وقد تعلم الحثيون معرفة تربية الخيل من العشائر الآرية التي اتجهت نحو الغرب، وعنها تعلمت شعوب غرب آسيا هذا الفن.

وقد صور لنا الجيش الحثي في ذلك الوقت بصورة حية في النقوش المصرية التي تصور معركة قادش الكبيرة. ومن الواضح أن فرقة مركباته كانت لا تفوقها فرقة أخرى. فقد وضع ملك الحثيين في خطوط القتال 1700 جندي من المشاة و 5300 عربة. وتؤمن إعاشة الجيوش من مخازن التموين الملكية ومن الغنائم في الحروب.

وأسلحة الهجوم هي الرمح والقوس، والدرع. وفي النقوش المصرية نرى المشاة الحثيون مجتمعين حول قلعة قادش للدفاع عن الملك ومهماته. كان الملك يقيم الجيوش في المعسكرات أو الحصون وخاصة في عواصم (ثغور) المملكة. وكانت السلطة في هذه المواقع بيد الحكام المدنيين ورجال الدين والعسكريين. وإذا قرر الملك القيام بحملة ألقى الأوامر بالنفير العام، وعندئذ يتقدم الأمراء والمدن المقدسة بجيوشهم إلى مراكز الحشد، كما يرسل الأتباع الجنود التي تلزمهم بها المعاهدات المبرمة من قبل. وكان الملك يتقدم الجيوش ويتولى القيادة بنفسه. ويتألف جيش الحثيين من نوعين من المحاربين: محاربي العربات، والمشاة. وقد قوي جيش الحثيين بإدخال العربات.

واستخدم الحثيون الجنود المرتزقة من البدو الرحل أو ممن لا وطن لهم على أن يؤمن لهم الغذاء والكساء. وكانوا يسوقون في أعمال الهجوم الكبرى جنوداً من جميع بلاد آسيا الصغرى.

كان الحثيون يعتبرون الحرب حكماً من الله يلفظ به للفصل في المنازعات الدولية. ويسبق الحرب توجيه إنذار إلى الخصم يذكر فيه الأعمال المرتكبة التي كانت سبباً للحرب والتعويضات المطلوبة، فإذا لم توف المطاليب بدأت الحرب. وقد جرت العادة أن تشاور الآلهة بشأن الحرب. وطرق الحرب على أشكال: كالهجوم المفاجئ

الجري، أو القتال في الأرياف المكشوفة في العراء، أو الاعتصام في المعاقل، أو الجبال وعرة المسالك وصعبة التسلق، أو في المكامن، أو الزحف ليلاً. ويسمح حق الحرب بالنهب والسلب والحريق والسبي. ويقبل الملك الأكبر خضوع الخصم إذا أبدى استعداداً للاعتراف بسلطته. ولم يعرف الحثيون بالفظاعة التي اشتهر بها الأشوريين، فقد كان هؤلاء يجدون لذة خاصة بتعذيب أسراهم وقتلهم[1].

اللغة:

كان الحثيون يكتبون لغتهم بواسطة رموز مسمارية مقتبسة عن الأكاديين، ويرى في النصوص كلمات وتعابير بابلية، ولكن يجب ألا تُقرأ بالبابلية بل بالحثية.

غير أن الكتابة الهيروغليفية التي استخدمها الحثيون حتى القرن الثامن في سورية وآسيا الصغرى، لم تستعمل إلا للغة هندية أوروبية لم تعرف جيداً وما زلنا نجهل اسمها. وكانت تستعمل مئات من الرموز، يعرف منها كائنات بشرية وأجزاء مختلفة من الجسم البشري، كالرأس، والذراع واليدين والرجلين، وعصافير ورؤوس ذوات الأربع، وأشياء أخرى[2].

الآداب:

إن وثائق حاتوشا المنشورة حديثاً لا تسمح بالإحاطة بمجموع العلوم والآداب الحثية. وهذه الآداب تختلف عن سائر آداب الشرق الأدنى الآسيوي باهتمامها بالصفة الأدبية: فكل أثر يحمل اسم مؤلفه سواء أكان نصاً تاريخياً أم كتاباً يبحث في موضوع من الموضوعات.

أما النصوص التاريخية فمتنوعة. من ذلك أن ملوك الإمبراطورية الحديثة سجلوا حوليات ذكروا فيها الحوادث سنة بعد سنة، مثل حوليات الملك مورسيل الثاني. وربما كان هذا الملك قد اخترع هذا النوع التاريخي. وقد تبنى ملوك الآشوريين هذا النموذج من القصة. ولكن الاختلاف يظهر في عرض الحوادث:

فالأمراء الحثيون لا يتباهون بالفظاعات ولا ينسبون لأنفسهم كل الصفات المجيدة ويعترفون بفضل معاونيهم.

1- د. نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، ص 270-271.

2- نفس المرجع، ص 276.

وأحياناً تظهر القصة التاريخية بشكل آخر، كاللوحة التي يذكر فيها أنيتا كيف وسع مملكته.

وهناك بعض الوثائق التاريخية، التي لم تكتب للحفاظ على ذكرى الحوادث، بل لتفيد كتوطئة لأحكام شرعية جديدة.

ثم إن رسائل ملك حثي مع ملوك آشور وبابل أو مصر، ورسائل الملكة والمدن والأتباع، والتحكيم بين المدن المتنافسة، والاتهامات ضد الأتباع المتمردين، تضيف إلى المعلومات التاريخية معطيات عن العلاقات مع الشعوب الأجنبية ومع الأتباع، وتعكس الأنوار على التنظيم الإقطاعي في الإمبراطورية. وهذا التنظيم يعتمد على تعليمات وأنظمة خاصة لمختلف الموظفين والرعايا، ومثلها للأمراء والإقطاعيين، والرؤساء وخدم المعابد، والعسكريين.

كان الأمراء والإقطاعيون وأتباعهم والموظفون يرتبطون بالملك الأكبر بيمين الولاء. وقد حفظت قوائم لهذه الأيمان، وصلوات الملوك وطقوس الأعياد، ونصوص العبادة تؤلف في مجموعها مصدراً منقطع النظير لدراسة الدين، رغم نقصان الوثائق، وذلك لأنها تتعلق بكل ما يهم شخص الملك.

ونجد في الملاحم والأساطير: جلجامش البطل السومري، والثور السماوي، والآلهة الأسماك، والأخ الصالح والطالح، والصراع ضد الثعبان ايللو حانكا أو البحث عن تيليبينو إله النبات المختفي.

وتتعلق بالدين نصوص تدل على التطير والتفاؤل والتشاؤم، والرقى والتنجيم والتعاويذ ضد السحرة والساحرين.

أما النصوص المتعلقة بالاقتصاد الاجتماعي فقليلة، ويكفي أن تشير إلى كتاب تدريب الخيول، واستعمال المعادن الثمينة ومصر أسرى الحرب.

إن هذه اللوحة التي أتينا على ذكرها، تعطينا أنواع الوثائق المكتشفة خلال حفريات قصر حاتوشا، وقد جهزتنا وحدها بجميع الوثائق الحثية الأصل المكتوبة، ويضاف إلى ذلك بعض النصوص الهيروغليفية التي حررت في عهد الإمبراطورية الحديثة، وهي أقل عدداً من النصوص التي يرجع تاريخها إلى ما بعد تداعي سلطة الحثيين في آسيا الصغرى[1].

1- نفس المرجع، ص 276-278

1- الأدب الديواني:

تبدأ الوثيقة الرسمية الحثية النموذجية بصيغة موجزة:

«هكذا يقول الملك ن، الملك العظيم، ملك حاتي، البطل، ابن ن، الملك العظيم، ملك حاتي، البطل» (مع اختلاف الألقاب والحذف أحياناً، أو الزيادة أحياناً، سلسلة الأنساب). وما يلي ذلك قد يكون إما مرسوماً ملكياً في شأن خاص ذي أهمية، أو حوليات حملات الملك الحربية، أو «معاهدة» تحتوي على يمين الولاء المفروضة على ملك موالٍ. وكل هذه فروع من جذع واحد، يمكن تتبع جذوره إلى أقدم العهود.

وأقدم النصوص الملكية هو مرسوم أنيتاس، الذي نوقشت أصالته فيما سبق. ولكن هذا النص يعتبر شاذاً من حيث الشكل كما في أشياء أخرى كثيرة وتدل القصة التي تشغل معظم اللوح على أنها نقلت من نصب أقيم في بوابة مدينة الملك، وتنتهي بلعنة تنزل على أي أمير أو شرير يأتي في المستقبل ويدمرها أو يغيرها. وإلى هذا المدى ينتمي النص إلى نوع من الأدب كان شائعاً في بلاد بابل وآشور. وهذه حقيقة تؤكد الرأي القائل بأن النص الأصلي للنصب كان مكتوباً باللغة الأكادية. ولم يعرف هذا النوع من النصوص في الأناضول إلا بعد سقوط مملكة حاتوشا، ولذلك تختلف الوثيقة اختلافاً تاماً عن التقليد الحثي الرئيسي.

وما يسمى «الوصية السياسية» لخاتوشيليش هي مثل هام من أمثلة التقارير الحرفية، إذ هي تسجيل لخطبة الملك التي ألقاها عند تعيينه الشاب الصغير مورشيليش ورثياً للعرش، وقد تحدث الملك بحرية وبلا تصنع إلى شعبه، ودون تعمد اصطناع أسلوب أدبي. وفيما يلي بعض المقتطفات التي توضح ما في هذه الخطبة من تلقائية وقوة أسلوب: «تحدث الملك لابارناس[1]. العظيم إلى رجال المجلس المحاربين وأصحاب المقامات العالية قائلاً: انظروا، لقد أصابني المرض. وقد سبق وأعلنت لكم أن لابارناس ابني، هو الذي سيجلس على العرش «أنا، الملك دعوته ابني، واحتضنته، ورفعت مكانته، ورعيته دائماً. ولكن أثبت نفسه شاباً غير جدير بأن يرى: فلم يسكب دمعاً يظهر رحمة، وكان بارداً قاسياً. فاستدعيته، أنا، الملك، إلى مضجعي وقلت: «وبعد؟ فلن يربي أحد (في المستقبل) ابن شقيقته على أنه ابنه بالتبني. فكلمة الملك لم يضعها في قلبه، ولكن وضع كلمة أمه الأفعى، في قلبه». وحسبي هذا فهو لم يعد ابني؟

1- كان هذا، فيما يبدو اسم الملك الأصلي، ثم اتحذ اسم خاتوشيليش فيما بعد أثناء حكمه.

وحينئذ خارت أمه مثل الثور: «لقد مزقوا إرباً الرحم الذي هو في جسدي وأنا على قيد الحياة، لقد أهلكوه، وأنت ستقتله»؟ ولكن هل أنا أسأت إليه؟

انظروا لقد أعطيت ابني لابارناس بيتاً، لقد أعطيت له (أرضاً زراعية) بوفرة، وأعطيت له أغناماً كثيرة، فليأكل الآن وليشرب. وطالما هو صالح، يستطيع أن يأتي إلى المدينة، ولكن إذا جاء مثيراً للفتن، عندئذ لن يأتي، سيبقى في بيته.

انظروا، إن مورشيليش هو الآن ابني... في مكان الأسد (سيقيم) الله أسداً (آخر). وفي تلك الساعة عندما تنطلق الدعوة إلى السلاح... أنتم، خدمي والقادة من المواطنين، يجب أن تكونوا (جاهزين لمساعدة ابني). فإذا انقضت ثلاث سنوات سيذهب في... وإذا أخذتموه (وهو لا يزال طفلاً) معكم في حملة، فأرجعوه سالماً.

وحتى الآن لم يطع أمري أحد (من أسرتي)، ولكن أنت يا بني مورشيليش، يجب أن تطيعني. حافظ على كلمة أبيك، فإذا حافظت على كلمة أبيك، فستأكل عيشاً، وتشرب ماء. وعندما يتم النضج (بداخلك) فكل مرتين أو ثلاث مرات في اليوم تفعل بنفسك خيراً. وعندما تدركك الشيخوخة فاشرب حتى تشبع؟.. وعندئذ يمكنك أن تضع جانباً كلمة أبيك. الآن، أنتم يا من هم رؤساء خدمي يجب عليكم أيضاً أن تحافظوا على كلماتي. كلمات الملك. أنتم ستأكلون فقط الخبز وتشربون الماء، وهكذا ستبقى حاتوشاش شامخة وستكون بلادي في سلام. ولكن إذا لم تحافظوا على كلمة الملك، فلن تبقوا أحياء بل سوف تهلكون».

وتحت حكم مورشيليش الثاني نجد لأول مرة تاريخ الحكم الملكي مسجلاً تسجيلاً مستقلاً في صورة حوليات. ولكن حتى هنا لم يكن القصص مجرد سرد للحوادث، بل كان لا يزال يدور حول موضوع ديني عادة، فكل السجل الذي يحتوي على ما أحرزه الملك من نجاح، يقدم بخشوع أمام الإله الحامي كقربان شكر. ويمكن توضيح ذلك بالفقرة الآتية من مقدمة حوليات مورشليش:

«عندما جلست أنا، الشمس[1]، نفسي على عرش أبي، وقبل أن أتحرك ضد أي قطر من أعدائي الذين أعلنوا علي الحرب، وجهت همي إلى الاحتفالات المتكررة الخاصة بآلهة شمس أرينا، سيدتي، واحتفلت بها، وإلى آلهة الشمس أرينا، سيدتي، رفعت يدي وقلت الآتي: «إلهة شمس أرينا، سيدتي، الدول المحيطة المعادية التي دعتني طفلاً، واستخفت بي، وحاولت دائماً اغتصاب أقاليمك، يا آلهة الشمس أرينا، سيدتي

1- لاحظ ها اللقب الجديد، الذي حل محل «أنا الملك» في العصر القديم.

– انزلي، يا آلهة الشمس أرينا، يا سيدتي، واضربي لي هذه البلاد المعادية «فاستجابت آلهة الشمس أرينا إلى صلاتي وخفت لمساعدتي، وفي مدى عشر سنوات منذ الوقت الذي جلست فيه على عرش أبي، فتحت هذه البلاد المعادية ودمرتها»[1].

ولا يسمح لنا المجال هنا بإعطاء وصف شامل لأنواع الوثائق الرسمية قليلة الأهمية المحفوظة في الأرشيف الحثي. ويرى مما سبق أن الحثيين، لأغراض الحكم وإدارة شؤون الدولة، خلقوا صيغهم وأسلوبهم الأدبي الخاص بهم، والذي يختلف عن تلك التي كانت للشعوب الأخرى المعاصرة.

2- الأسطورة والخرافة والقصة الرومانتيكية:

إن عدد النصوص في هذه الأنواع ليس كبيراً، وهي من ناحية الأسلوب ليست ذات قيمة كبيرة. وقد نسجت القصة في أبسط صور النثر وأقله تنميقاً، ولا توجد أية محاولة للنظم. ومع ذلك تتكرر اللمسات التي تحتوي على تفصيلات شديدة الوضوح. ومع أن القصص نفسها بدائية، إلا أن لها أهمية كبيرة.

ويوجد عدد قليل من الأساطير المتعلقة بالمعبودات الحثية، ولكن المؤلفات الأكثر نضجاً من هذا النوع لا تنتمي، إذا تحرينا الدقة، إلى الديانة الحورية. وتوجد خرافات مستندة إلى تاريخ المملكة الحثية القديم، كما توجد روايات حثية للخرافات والملاحم البابلية.

ويبدو مرة أخرى أن القصص القصيرة المتنوعة من أصل حوري. ويمكن تفسير وجود هذه الأساطير والخرافات والقصص القصيرة الأجنبية في المحفوظات الحثية بما كان للحوريين من سيادة سياسية وثقافية في الفترة بين الدولة القديمة والدولة الحديثة. وحتى الخرافات البابلية من المحتمل أنها قد وجدت طريقها إلى المحفوظات عن طريق الحوريين الذين كانوا متشبعين بالتقاليد البابلية.

أ) الخرافة:

لا يوجد من الخرافات الحثية الأصلية إلا واحدة فقط قد وصلت إلينا في حالة لا بأس بها، هي قصة حصار أورشو. والنص مكتوب باللغة الأكادية، ولكنه بدون شك مأخوذ من التراث الحثي. والمكان الذي حدثت فيه القصة يقع خارج مدينة أورشو (في مكان ما بشمال سورية)، التي كان يحاصرها الجيش الحثي بينما كان الملك نفسه

1- آ. ر. حربي: الحثيون، مرجع سابق، ص 205-210.

يقود المعركة من بلدة لوهوزا نتييا وكانت أورشو على اتصال، وربما كانت متحالفة مع الدولة الحورية، ومدينة حلب، ومدينة زاروار.

وبعد فقرات غير واضحة نقرأ:

«كسروا المنجنيق المحطم، فتملك الملك الغضب وقال عابس الوجه: «هم يجيئونني دائماً بالأخبار السيئة، ليأخذكم إله الطقس عني في فيضان».

واستطرد الملك قائلاً: «لا تقفوا دون عمل اصنعوا منجنيقاً على الطريقة الجورية وليؤت به ليوضع في مكانه». اصنعوا جبلاً وضعوه أيضاً في مكانه. وانحتوا منجنيقاً كبيراً من جبال هاسو، وليؤت به إلى مكانه. وابدأوا بتكويم التراب. وعندما تنتهون، ليقف كل فرد في موضع. وعليكم فقط أن تدعوا العدو يبدأ الهجوم، عندئذٍ ستفشل خططه».

أما ما حدث بعد ذلك، فقد ضاع بسبب كسر في النص. عندما قدم القائد سانتاس ليقدم تقريراً للمرة الثانية إلى الملك وجده غاضباً من التأخير المستمر:

«لماذا لم تبدأ القتال؟ إنكم تركبون عربات الماء، بل كدتم تتحولون إلى ماء؟... ما كان عليك إلا أن تركع أمامه فقط إذاً لكنت قتلته، أو على الأقل أرعبته. ولكن بدلاً من ذلك تصرفت كامرأة... وهكذا أجابوه: «ثماني مرات (أي في ثماني جبهات) سنحارب. سنقلب خططهم وندمر المدينة» فأجاب الملك «حسناً».

إن بقية النص قد ضاع، وواضح أن القصة تحتوي على سلسلة من الأحداث التي تثير غضب الملك بسبب عدم كفاءة قواده، ولذا يبدو أنها من نوع المرسوم الموضح سابقاً الذي احتوى على قصص لوم وتوبيخ.

أما الخرافات التي من أصل بابلي فممثلة في الرواية الحثية بأجزاء منها فقط، ولا محل هنا لذكر أصولها البابلية كاملة.

وهناك قطع عديدة من ملحمة جلجامش التي لا توجد منها نسخة حثية فقط بل نسخة حورية أيضاً.

ولدينا روايات فيها تصرف لقصص نارام سين الخرافية. وهناك الكتب التي من أصل بابلي مثل الكتب المختصرة في تفسير الفأل بأنواعه المختلفة والطوالع ونماذج من الأكباد والمؤلفات الطبية وجدت أيضاً بكميات كبيرة في برغازكوي[1].

1- المرجع السابق، ص 214-217.

ب) الأسطورة:

تنقسم النصوص الأسطورية المتعلقة بالمعبودات الحثية إلى قسمين، يمكن أن يطلق عليهما: أسطورة ذبح التنين، وأسطورة الإله المفقود. وأسطورة ذبح التنين هي أسطورة نموذجية من أساطير أعياد رأس السنة من النوع الذي تمثله ملحمة الخليقة البابلية. وجوهرها هو كفاح طقسي بين بطل إلهي وخصم يمثل قوى الشر. وتوجد منها روايتان كلتاهما تبدأ بجرأة بتقرير أنه في أولى معاركهما هزم التنين الوبانكاس إله الطقس (وهو البطل). ولذلك استنجد إله الطقس، حسب الرواية الأولى، بكل الآلهة فدبرت الآلهة أناراس خدعه بسيطة. فأعدت حفلة كبيرة مزودة ببراميل من كل نوع من أنواع الشراب. ثم دعت رجلاً يدعى هوباسيياس لمساعدتها. فأجاب هوباسيياس: «إذا كان من الممكن أن أنام معك، فسآتي وأفعل ما تريدين». ولذلك نامت معه. ثم دعت التنين ليخرج من حجرة وليشارك في الطعام والشراب. «وهكذا صعد التنين الوبانكاس مع أطفاله، وأكلوا وشربوا وأفرغوا كل برميل، وأطفأوا عطشهم، ولم يستطيعوا العودة إلى حجرهم. وعلى ذلك أتى هوباسيياس وقيد التنين بجبل، ثم جاء إله الطقس وذبح التنين الوبانكاس، وكانت الآلهة معه»[1].

وبناء على الرواية الثانية للقصة، فإن التنين لم يكتف فقط بهزيمة إله الطقس، ولكن أعجزه باستيلائه على قلبه وعينيه. ولكي يسترجع قلبه وعينيه دبر إله الطقس نفسه حيلة. فقد أنجب ابناً من ابنة رجل فقير. وعندما كبر الابن، اتخذ أبيه التنين عروساً له، وأمره إله الطقس قائلاً: «عندما تدخل بيت عروسك، اطلب منهم قلبي وعيني». ففعل هذا، وأعطيت له الأعضاء المسروقة دون اعتراض. «ثم أحضرها إلى والده، إله الطقس، وأعاد إلى إله الطقس قلبه وعينيه. وعندما عاد الجسم بذلك إلى حالته السابقة ذهب إلى البحر ليقاتل، وعندما خرجوا لقتاله نجح في هزيمة التنين الوبانكاس». وهنا يتلو هذا أيضاً حادثة غريبة. فقد حدث أن ابن إله الطقس كان موجوداً في بيت التنين في ذاك الوقت، فنادى أباه: «اضربني أنا أيضاً! لا تبق علي!» وعلى ذلك فقد ذبح إله الطقس كلاً من التنين وابنه نفسه[2].

والسمة البدائية في كل من الروايتين واضحة. فالقصتان تنتميان إلى الأدب الشعبي، ولم تكن هناك أية محاولة لتهذيبهما والتسامي بها، سواء من الناحية الأدبية

1- نفس المرجع، ص 217-218.

2- نفس المرجع، ص 218-219.

أو الدينية. وقد أوضح النص بجلاء أن هذه الأسطورة كانت تتلى في احتفال بورولين، الذي ربما كان احتفالاً سنوياً بالربيع.

وتصف أسطورة الإله المفقود توقف الحياة على الأرض، بسبب اختفاء إله الطقس، ثم البحث عن الإله وإعادته إلى بيته.

وتوجد داخل هذا الإطار العام روايات عديدة يختلف بعضها عن بعض كبيراً[1].

الديانة:

كان الدين عند الحثيين، شأنه في جميع الحضارات المعاصرة، المقام الأول بين مهام رئيس الدولة ومهام رعاياه. وكان الحثيون يحلون عدداً عظيماً من الآلهة موزعين إلى فئات كثيرة. ويأتي في رأس الآلهة، الآلهة إرينا وزوجها إله العاصمة. وقد حاول إله الشمس في السماء أن ينتزع منها ما كانت عليه من تفوق في عصر الإمبراطورية الحديثة. وكانت هذه الآلهة تشارك مشاركة مباشرة في الأمور العامة، وتساعد الملك الأكبر في حروبه، لأنه كان نائبها وكاهنها الأعظم الذي يطلعها على أعماله. وللآلهة إرينا وزوجها إله العاصمة عدة أولاد، والمعروفان أكثر من غيرهم اثنان وهما إلها العاصفة في زيبالاندا. ونيريق، ويطلب إليهما التوسط لدى أبويهما، وهناك ابن ثالث وهو اينار، ويساعد أباه في الثأر من الثعبان ايلوجانكا، وتيليبينو telepinou إله الخصب.

وكان لهما بنت وهي ميزولا، وتتوسط لدى أبويها لمساعدة الملك مورسيل الثاني في الحروب، وحفيدته وهي الإلهة زنتوهي، وكانت موضع اهتمام جديها ولا يملان من النظر إليها والإعجاب بها في كل حين. ويدخل في دائرة الإله الشمس عرينا الثوران سيري وهورا والجبلان نانى وحزي. وقد أدخل الهنديون الأوروبيون الإله بيروا والإله آسكازيبا وإلهة الطب مامروزيبا وابنتها عاروتا إلهة البحر. هذا بالإضافة إلى آلهة البلاد التابعة. وكان يتم التمييز بين الآلهة من خلال لغة الصلوات الخاصة بكل منها. وكان الكهنة وهيئة المعابد يخضعون لنظام خاص. وتعتبر أخطاؤهم ذنوباً مكبرة وتعاقب بعقوبات مشددة.

وللآلهة حاجات ورغائب كالبشر؛ فهي بحاجة إلى الغذاء والكساء، وتماثيلها بحاجة إلى النظافة واللباس. ومن هنا يأتي دور الكهنة في المعابد، وكان يتم تمييز

1- نفس المرجع، ص 22.

الكهان الكبار والكهان الصغار أو الإكليروس الأعلى والإكليروس الأدنى، وعليهم أن يقيموا خارج الحرم المقدس في منازلهم مع نسائهم وأولادهم. واجتماع الرجل بالمرأة حدث أكبر. وهم لا يطهرهم إلا الاغتسال. ولا يفرض العذر على الكهان عند الحثيين، إلا أنه يلاحظ أن بعض الطقوس كان توكل إلى الشبان العاذرين. هذا فصلاً عن أن التشويه الجسدي لا يهيئ للوظائف المقدسة، لأن الآلهة تحب الجمال والنظافة وتشعر بالجوع والعطش، والحاجة إلى اللهو، ويتم ذلك بالخروج من المعبد وتقديم الأضاحي وحضور الألعاب ومشاهد القتال بتقسيم الجيوش إلى فريقين: فريق مع الحثيين بأسلحته البرونزية، وفريق ضدهم بأسلحته القصبية. ومن الطبيعي أن يكون النصر حليفاً لفريق الحثيين، وعندئذ يمسكون بأسير ويقدمونه إلى الآلهة.

وكان الحثيون ملزمين بدفع الضريبة إلى الآلهة. وبهذه الوسيلة تمول المعابد بالموارد من كل نوع، ويكون لها عقارات وأطيان. ولا يستثنى أحد من دفع الضريبة حتى الملك، وتأديتها تكون حسب قواعد موضوعة ومتعارفة، ويدخل فيها الحبوب والطحين والأشربة وصغار الحيوانات وكبارها. وللأفراد أن يقدموا للآلهة ما شاؤوا من قرابين وأضاحٍ، ويدخل في ذلك الحبوب والألبان والفواكة والشحوم والزيوت والعسل، والحيوانات من كل نوع، وحتى الخنزير والكلب وأجناس الطيور. ولتحرز هذه التقدمات رضى الآلهة، يجب أن تكون مقدسة، أي من النوع الممتاز، وكلما كانت الحيوانات جميلة المظهر فتية، كانت أقرب إلى رضى الآلهة[1].

علاقة الآلهة بالناس:

إن علاقة الآلهة بالناس هي علاقة السيد بمولاه. فالإنسان خادم، وعليه أن يبرهن على احترامه لله بالصلاة والزلفى والقربان والحفلات الدينية. وفي المقابل فإن الآلهة تحميه من كل شر. ولكن الإنسان بطبيعته كائن مذنب. و«الإنسانية سيئة» والآلهة مضطرة إلى معاقبة الإنسان عندما لا يؤدي واجباته حيالها، أو يثور على سلطانها.

وليس من الضروري أن يكون عقاب الذنب مباشراً، بل يمكن تأجيله، لأن الآلهة تمهل ولا تهمل وتستطيع أن تعاقب المذنب في أولاده من بعده. وإذا اقترف الملك ذنباً، فلا يتحمل نتائج هذا الذنب وحده، بل عائلته وبلاده برمتها.

1- د. نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، 273-274.

وهكذا، فإن أقدار الناس منوطة بالآلهة، إذ إنها هي التي تنظم سير الحوادث، ولكنها لا تظهر نواياها علناً في الأوقات العادية، بل إنها تتوجه إلى الإنسان وتنذره. وفي إمكان هذا الإنسان أن يستعمل بعض الوسائل ليعرف موقف الآلهة منه.

وتستطيع الآلهة أن تظهر إرادتها ونصحها ورغائبها بكل الوسائل، وتتصل بالناس عن طريق الأحلام خاصة، أو أفواه بعضهم، حتى أنها تتحد مؤقتاً بالإنسان، وتؤثر بواسطته. ولكن إظهار الفكر الإلهي لا يحدث عفوياً وفي كل الظروف، ولذا كان الحثيون، كسائر شعوب الشرق القديم الآسيوي، يستعملون وسائل صنعية يستدرون بها عطف الآلهة لإظهار نواياها. وهذه الوسائل الصنعية تلعب في الحياة الدينية دوراً هاماً جداً يفوق الظاهرات العفوية. وهناك العرافون والكهنة والقيام بالمعجزات والخوارق وما إلى ذلك[1].

طقوس دفن الموتى:

اختار الملوك الحثيين لأنفسهم لقب «شمسي» ورمز الشمس المجنحة على حد سواء وفق النموذج المصري، بعد أن أصبحوا يحكمون قسماً لا بأس به من الشرق الأدنى. إلا أن هذا الظن لا يمكنه على الأرجح أن يعكس إلا جزءاً من الحقيقة: إنه منذ منتصف الألف الثانية ق.م وقرص الشمس مع جناحي نسرين كبيرين يشكل عنصراً تصويرياً ذا معنى انتشر في جميع الأقطار من بلاد آشور شرقاً حتى النيل في الغرب. ففي المناطق الحورية وفي بلاد آشور نجد الشمس المجنحة على اتصال وثيق مع الشعار القديم لما يسمى «بشجرة الحياة»، التي تحاط أحياناً على الجانبين بحيوانين أليفين أو شخصين في وضعية الصلاة. أما من ناحية أخرى، فتشكل شجرة الحياة في البدء رمز إله النبات والحياة الذي هو تموز. كما وظلت معاني تموز مستمرة وحية في الملك السومري والبابلي والآشوري على حد سواء، حتى أن تموز نفسه كان أيضاً ملكاً نصف إله. ورأينا في الوقت نفسه كيف أن الأفكار الرئيسة للإيمان بالله في الشرق الأدنى، قد تجسمت بكاملها في شخص مردوخ، وكيف اندمج هناك إله الشمس مع إله العالم السفلي أي مع إله الحياة. ومن جهة أخرى لم تنقطع قط صلة الوصل بين إله الحياة وبين الملك. ولما كان الملك الحثي يضع تبعاً لذلك فوق رمز اسمه رسم شمس مجنحة، فإن هذا المفهوم للملكية في الشرق الأدنى القديم لم

1- نفس المرجع، ص 274-275.

يبقَ دون أن يتلقى إيحاءات من طقوس أوزيريس الدينية. أما إذا كان هذا لدى الملوك الحثيين يعود بكامله فقط إلى ظواهر شرقية أو أنه يعود إلى ذاتهم، فلا نستطيع البت في ذلك إلا بصعوبة فائقة. لم يكن الملك الحثي أصلاً - طالما هو على قيد الحياة - إلهاً ولا نصف إله ولا وكيلاً للإله، بل إنه يرتفع ليصبح إلهاً فقط بعد مماته.

يعود هذا المفهوم إلى طقوس عبادة الأجداد، أكثر مما له علاقة بالاعتقاد بإله يموت ويبعث، أو بصورة عامة بالإيمان بعودة الحياة من جديد.

وإذا ما أصبح ملك أو ملكة في بلاد حثي إلهاً أو ألهة، أي إذا مات، فهناك خطوات معينة تتبع في طقوس مراحل الدفن تذكرها لنا الكتابة التالية. إذ يضحى بثور ويصب الخمر من إبريق يُكسر بعد ذلك. ثم يؤرجح فوق المتوفى حيوان من الماعز، لينقل بعدها على عربة إلى الخارج إلى منطقة تنصب فيها خيمة، ويحرق الميت في الليل:

«وإذا ما أصبح اليوم التالي بضوئه تذهب النسوة إلى الـ«اكتوري» (أرض حرق الدفين) ليجمعن العظام ويطفئن النار بعشر من القدور الملأى بالبيرة وبعشر من قدور النبيذ وبعشر من قدور الـ«فالهي». وهناك وعاء الهوبار من الفضة الذي يزن نصف مينة وعشرة شقل مملوء بزيت مصفى، وتجمع النساء العظام في «لبا» فضية ويضعنها في الزيت المصفى في الـ«هوبار» الفضية، ثم ينتشلنها من الزيت المصفى، ويلقين بها على كزا النولي من الكتان، وتحت الكتان توجد قطعة قماش ناعمة.

وبعد أن يفرغن من جمع العظام يدمجنها مع كافة الكتان وكذلك مع قطعة القماش فيضعن الكل على كرسي ذي مسند. أما إذا كان المتوفى امرأة فيضعنها على كرسي ذي ثلاث قوائم (بلا مسند) وحول الاكتوري، حيث يُحرق الميت، يضعن اثنتي عشرة خبزة، ويضعن على الخبز دهناً سائلاً. ولما كانت النار قد أطفئت بالبيرة والنبيذ وأمام الكرسي الذي وضعت عليه العظام، يضع المرء خبز الكوك وخبز الـ(آل) ليكسر إلى أقسام. فالطباخون وخدام المائدة يضعون القدور في المقدمة ثم يسترجعونها أولاً وجميع اللواتي أتين ليجمعن العظام يحصلن على الطعام، ومن ثم يوزع المرء ثلاث مرات شراباً، وكذلك يستسقى المرء ثلاث مرات».

ومن الغرابة حقاً أنه بعد وليمة الدفن هذه يتم صنع صورة على هيئة إنسان من الزبيب والزيتون مضافاً إلى ذلك ثمار وصوف وأشياء أخرى، وأن تكون امرأة عجوز منهمكة بذلك. ويصب بعد ذلك شراب مسكر على الصورة، وتوضع أحجار

كريمة ومعادن أخرى في كفة ميزان، كما تقدم أضاحي أخرى يؤتى بعدها بالعظام إلى بيته الحجري؛ حيث تؤخذ من على المقعد وتوضع على فراش يوجد أمامه مصباح.

إن تفاصيل كثيرة لطقوس هذا المأتم للملوك الحثيين تذكرنا بحرق باتروكلوس وهيكتور في الإلياذة. وبغض النظر عن هذه المقارنة، فإن الحرق وطقوس جمع العظام يشيران في حد ذاتهما إلى الفروق الكبيرة التي تميزها عن سائر المعتقدات الأخرى المتعلقة بالعالم الآخر في الشرق الأدنى. وهكذا يصعب جداً النظر بذلك إلى تلك الصلة بين الملك وإله الشمس أو إله آخر يشبه تموز، على أنها صلة سطحية لا تتعدى الانسجام الصوري مع أشكال عالم الشرق القديم[1].

الأعياد:

كانت لكل إله من آلهة الحثيين أيام خاصة في السنة يحتفل فيها وتقدم على شرفها الأضاحي العظيمة. وهذه الأيام هي أيام الأعياد. ويبدو أن هذه الاحتفالات التي تجري في أيام الأعياد، تعود إلى توالي فصول السنة وأعمال الحقول. سواء أكانت ثابتة أم متحولة، فهي تدخل في التقويم الزراعي.

وأول هذه الأعياد «عيد رأس السنة». ويبدو أن هذا العيد يكون شتاءً، وفيه تقدم القرابين إلى الآلهة عن الملك والشعب. وهذا العيد هو العيد الكبير.

والعيد الثاني هو عيد النباتات ويحتفل به في الربيع عندما تتفتح البراعم ويخضر العشب. وهناك أعياد أخرى كعيد فلاحة الأرض وعيد الحصاد وغيرها. ويجب أن يحتفل بهذه الأعياد، كل في حينه ولا يسمح بتأجيله إلا لعذر قاهر يرجع إلى الدولة، على أن يؤخذ رأي الآلهة بالقبول.

وعدا هذه الأعياد الأساسية كانت هنالك أعياد استثنائية يقررها الملك، ونذكر منها خاصة عيد الحج إلى المعابد والمزارات، الذي يقوم به الملك عند حلول موسم الشتاء في كل عام وترافقه فيه الملكة والأمراء ورجال الحاشية وعدد من الناس لخدمة الآلهة. ويقتضي برنامج هذه الزيارات التنقل كل يوم والتوقف في المدن، وإقامة الاحتفالات الدينية طبقاً لمراسم خاصة لهذا الغرض. كما تعقد المجالس الكبرى التي يحضرها وجهاء البلاد والشعب. وأعظم الاحتفالات الدينية تلك التي كان يترأسها الملك.

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص 227-230.

الفنون - البناء:

كانت المدن الحثية تبنى على مقربة من الأنهار والجداول في السهول. ولم تكن هذه حال مدينة حاتوشاش عاصمة الإمبراطورية الحثية. إذ لم تكن مدينة سهلية، بل مدينة جبلية بيضوية الشكل، طول محورها الكبير كيلو متران، وتقوم على مرتفعات صخرية في داخلها وفي محيطها. ويبلغ عرض سورها 4.25م. واكتشف فيها ثلاثة أبواب، أحدها في الجنوب الشرقي وتزينه صورة إله، وآخر في الجنوب الغربي وهو باب الأسود، والثالث في الشمال الغربي خالٍ من كل نحت. وتبنى الجدران بالأحجار الكلسية. وفي داخل المدينة يوجد المعبد والقصر والمنازل والمخازن.

إن أجمل منحوتات الحثيين هو الإله المحارب الذي يزين أحد أبواب حاتوشاش، ويرى لابساً بزة ملتصقة بجسمه ومتمنطقاً بحزام علق فيه خنجر معكوف، وممسكاً بيده اليمنى بلطة يضمها إلى صدره، وجمع يده اليسرى مشدود وفي حالة توتر[1].

1- نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، ص 274-276.

ختام

كانت مدينة الحثيين أكثر المدنيات تقدماً في النواحي التي يمكن أن تختص بها الطبقة الحاكمة ولا سيما في العبقرية الحربية والتنظيم السياسي والتشريع وإدارة العدالة. أما الأدب والدين فرغم ظهورهما في أشكال هامة كثيرة، إلا إنهما بقيا بدائيين مشتقين من العناصر الحثية والحورية من السكان.

وفي المملكة القديمة، كان الملك هو القائد العسكري للشعب، ولم تظهر وظائفه الدينية إلا بعد ذلك. أما عن الفن فنستطيع أن نقول أن الشعب الحثي أظهر شيئاً من العبقرية فيه - وقد شجع الحكام فن النحت على الصخور في الإمبراطورية بعد ذلك.

ولا تزال هناك مشاكل في حاجة إلى حل، مثل تاريخ سير العناصر الهندو أوروبية من الهند إلى آسيا الصغرى الذي ساروا فيه، ومثل أصل الكتابة الهرمية الهيروغليفية وطريقة حل رموز الأخيرة، ومثل الصلة التاريخية بين قوانين الحثيين وبين قوانين الجزيرة العراقية، وأهم من ذلك كله مشكلة رسم خريطة تعبيرية لآسيا الصغرى في عهد الحثيين، بطريقة توضح بصفة كاملة حملات ملوك الحثيين العسكرية.

ويرجى أن تستأنف الحفريات في بوغاز كوي، وأن تكتشف فيها وفي غيرها لوحات كثيرة لغوية وفنية، قد تساعد على شرح هذه المشاكل الكبرى وتوضح تفاصيل أخرى لا حصر لها لا نعرف عنها إلا القليل إلى الآن.

شرح المصطلحات التاريخية والفنية

الأخمينيون:

سلالة فارسية قديمة نسبة إلى أخمينيا (700-330ق.م). ظهر الأخمينيون على المسرح الدولي في القرن السادس قبل الميلاد بزعامة ملكهم قورش الأخميني الذي استطاع توحيد بلاد إيران ومدّ سلطانها على جميع الأقطار الواقعة في شمال إيران. ثم جهز قورش حملة قوية على بابل التي كانت في حوزة الكلدانيين وفتحها عام 539ق.م، وجعلها مركزاً لفتوحاته شمالاً وغرباً. وفي زمن أخلافه امتد نفوذ الأخمينيين إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر.

سمح قورش لليهود الذين كانوا في الأسر في بابل، بالعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل. وقد دام حكم الفرس الأخمينيين في العراق 208 سنوات، وكانت بلاد الشرق الأدنى في هذه الفترة مسرحاً لحروب دامية مستمرة بين الفرس الأخمينيين والإغريق، انتهت باستيلاء الإسكندر على بابل عام 331ق.م والقضاء على الدولة الأخمينية في العراق.

اخناتون:

هو فرعون مصر الذي حكم من سنة 1375 إلى سنة 1358ق.م، كان يعرف أيضاً باسم امنحوتب أو أمنوفيس الرابع (الأسرة الثامنة عشرة). اشتهر بدعوته إلى دين التوحيد الخالص. وقد اضطر إلى نقل مقر عاصمته من طيبة إلى العمارنة بسبب ذلك. وقد سببت هذه الثورة الدينية ارتباكاً داخل مصر وضعفاً في أجزاء الإمبراطورية المصرية. وبعد أن مات اخناتون عادت مصر إلى ديانتها الوثنية. وقد ذهب البعض إلى أن النبي موسى وأتباعه قد أخذوا بعبادة اخناتون للإله الواحد وأن موسى نفسه مصري من أتباع هذه الديانة.

أرابخا:

هي التسمية القديمة لمدينة كركوك الحالية. كانت مركزاً للحوريين في العراق ضمن مملكة ميتاني. ويقوم القسم القديم من مدينة كركوك المسمى باسم «القلعة»

فوق تل أثري ورد اسمه في الألواح المستخرجة منه «أرابخا». وكانت الألواح المكتشفة فيه يرتقي تاريخها إلى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد. ويعتقد أن أقدم ذكر لاسم «أرابخا» يرتقي إلى عهد حمورابي. وقد ذكرت المدينة في المصادر الأشورية بأنها مركز لعبادة الإله «أدد» أو «حدد». ازدهرت أرابخا في العهد السلوقي في العراق (312-135ق.م)؛ حيث بنى فيها سلوقس سوراً وأنشأ فيها العمارات وجعلها مركز إقليم تابع إلى مملكته. واستمرت في العهد الفرثي والساساني. كما عثر في جوار كركوك على آثار مدينة من عهود وادي الرافدين القديمة هي مدينة (نوزي) التي كانت مركزاً للحوريين في الألف الثانية قبل الميلاد.

دولة أكاد:

أول دولة سامية كبرى بين 2350 و 2200ق.م وشملت بسيطرتها على كل من بلاد الرافدين وسورية الشمالية. وغزا ملوكها، أمثال سرجون الأول ونارام سين، بلاد الأناضول وقبرص. ولكن عاصمتهم أكاد ما تزال مجهولة الموقع.

ألالاخ:

اسم مملكة قديمة نالت أهمية كبيرة في الألف الثاني قبل الميلاد. وكانت خاضعة لنفوذ مملكة حلب (يمحاض).

الإسكندر الكبير:

اعتلى عرش مكدونيا في العشرين من عمره، وتحدى الدولة الفارسية القوية واستطاع فتحها بعد معركة غرانيكوس 334ق.م ثم تابع فتوحاته حتى الهند، وحاول فيما بعد خلق توازن بين اليونانيين والفرس، ولكنه توفي فجأة أثر إصابته بنوبة حمى في بابل في العام 323ق.م.

الآراميون:

مجموعة من القبائل العربية، بلغوا أوج اتساعهم السياسي في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد مغتنمين فرصة ضعف الإمبراطورية الآشورية في أعقاب حكم تجلات فلاصر الأول (1115-1077ق.م) من جهة، وبداية تقهقر النفوذ المصري في عهد رعمسيس الثالث (1198-1167ق.م) من الجهة الأخرى. ثم تبددت سيطرة الحثيين والميتانيين في شمال سورية، فأقاموا سلسلة من الممالك الصغيرة في سورية منها: «آرام النهرين» و«فدان آرام» و«آرام دمشق» و«آرامك صوبا» في البقاع، و«بيت أغوشي» في حماه وعاصمتها أرفاد و«بيت بخياني» ومركزها «جوزان» (تل حلف

حالياً) هذا عدا دولتي «حلب» و«كركميش» (جرابلسل حالياً). وفي الشمال الغربي من سورية أقام الآراميون دولة في كيليكيا هي دولة (سمأل) تقع أطلالها اليوم عند جبل أمانوس غربي عينتاب في تركيا وتعرف باسم «زنجزلي». ثم غزا الآراميون العراق وأسسوا فيه عدة دويلات منها دولة «بيت عديني» ومركزها في «بورسيبا»، وكان مركزهم في منطقة بابل.

آشور:

مدينة، عاصمة الدولة الآشورية، تقع أطلالها على الجانب الأيمن من نهر دجلة على بعد حوالي تسعة كيلومترات من جنوبي الشرقاط. وتعرف خرائبها محلياً باسم «قلعة الشرقاط». وفي هذه البقعة أقام الآشوريون إمارة صغيرة مؤلفة من مدينة آشور وأرياضاها على نسق الدويلات الأكادية في جنوب العراق. وكانوا على اتصال مستمر بهذه المدن التي أخذوا عنها صناعتي النقش والعمارة والكتابة وأسباب المعيشة التي توارفت فيها حينذاك. وكانت معظم زراعتهم تعتمد على الأمطار.

وكان الآشوريون يتكلمون فيما بينهم بلغة سامية قريبة من اللغة التي كان يتكلمها الأكاديون في منطقة أكاد الجنوبية، وكتبوا لغتهم الآشورية بالخط المسماري.

والآشوريون من الأقوام السامية القديمة التي نزحت من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب. استقروا في أواخر الألف الرابعة أو أوائل الألف الثالثة ق.م في المنطقة الشمالية من العراق في البقعة الممتدة على طول ضفة نهر دجلة اليمنى بين الموصل وشرقاط، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم «شوبارتو»، فأسست هذه الجماعات مدينة هناك صارت تعرف فيما بعد بمدينة آشور نسبة إلى الإله آشور إله القوم الذين سكنوا هذه الديار، كما صارت الجماعات التي استقرت في هذه المنطقة تسمى بالآشوريين، وأخيراً صارت المنطقة بأسرها تعرف باسم «آشور».

الأسد:

يشخص بكثرة في حالة مطاردة أو اصطياد، والغرض من ذلك حماية قطعان الماشية. كذلك يستخدم كرمز يرافق الربة المحاربة عشتار.

أبو الهول:

كائن مصري مركب من جسم أسد ورأس إنسان، دخل الفنون التشكيلية السورية ثم الرافدية منذ الألف الثاني ق.م.

أوغاريت:

موقع أثري هام، اسمه الحالي: تل رأس الشمرة، يقع غرب اللاذقية، وتقوم بعثة فرنسية بالتنقيب الأثري فيه منذ عام 1929. وأظهرت التنقيبات أن أوغاريت ظلت مسكونة منذ العصر الحجري الحديث ووصلت إلى ذروة الازدهار بين 1500 و 1200ق.م. وتم الكشف عن قصور ومبان هامة فضلاً عن العثور على وثائق هامة مكتوبة باللغة الأوغاريتية الأبجدية، وعثر فيها أيضاً على رقيم مسماري يحمل أقدم أبجدية في التاريخ. تهدمت المدينة على يد شعوب البحر حوالي 1200ق.م.

الأكاديون:

أقوام من الساميين العرب، نزحوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات، فاستقروا في بداية الأمر على ضفة نهر الفرات اليمنى في البقعة الممتدة بين عانة وهيت وهي اقرب موئل خصيب من موطنهم الصحراوي في بلاد الشام. وقد مارس هؤلاء النازحون إلى هذه المنطقة حرفة الزراعة التي تعتمد على الري، وكان لديهم الكثير من البقر والضأن والمعزى والحمير والخنازير.

أما الجماعات التي نزحت جنوباً، فقد استقرت على ضفتي مجرى الفرات القديم غربي وجنوبي منطقة بغداد الحالية، وامتدت مزارعها حتى مدينة كيش الكائنة على بعد 15كم شرقي مدينة بابل. ولم تكن هذه الجماعات عندما أسست مستوطناتها على ضفتي نهر الفرات في هذه البقعة الخصيبة، ليخطر ببالها أن قومها سيصبحون بناة أقدم وأعظم إمبراطورية في التاريخ القديم، أي الإمبراطورية الأكادية التي أسسها سرجون في القرن الرابع والعشرين ق.م والتي سميت بالأكادية نسبة إلى عاصمته أكاد التي أقامها، وقد دام حكمها زهاء قرن ونصف قرن من سنة 2371 إلى سنة 2230ق.م وكان انهيارها على يد القبائل الكوتية الجبلية التي انحدرت من جبال زاغروس فاحتلت بابل وقضت على الحكم الأكادي في البلاد.

شملت الإمبراطورية الأكادية معظم الهلال الخصيب وعيلام (جنوبي إيران) وقسماً من آسيا الصغرى إلى ساحل البحر المتوسط. وقد أصبحت اللغة الأكادية اللغة الرسمية في جميع العراق وفي أكثر ألقطار التي خضعت للحكم الأكادي. واللغة الأكادية ومعها البابلية والآشورية من اللغات السامية الشرقية تمييزاً لها عن اللغات السامية الغربية الشمالية (أي اللغات السامية في سورية). وقد استمرت الأكادية لغة التخاطب حتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، ثم زاحمتها اللغة الآرامية حتى إزالتها

من التداول. وقد اقتبس الأكاديون الخط المسماري الذي كان شائعاً استعماله في العراق، كما استعاروا كلمات كثيرة من اللغة السومرية بعد اختلاطهم بالسومريين.

أنطاكية:

هي المدينة التي أسسها الملك سلوقس الأول حوالي سنة 300ق.م في شمال سورية، وقد اتخذها عاصمة له ومركزاً رئيساً في آسيا الصغرى لنشر الثقافة الإغريقية، ومن ثم صارت من أهم المراكز التجارية في العالم لوقوعها عند ملتقى الطرق الممتدة من الفرات إلى البحر المتوسط، ومن البقاع إلى آسيا الصغرى. تقع اليوم في الجمهورية التركية على الضفة اليسرى لنهر العاصي عند سفح جبل سيلبيوس على بعد حوالي عشرين ميلاً من ساحل البحر.

بابل:

هي مدينة بابل الشهيرة، تقع أطلالها على مسافة خمسة كيلومترات شمال مدينة الحلة، كانت عاصمة الإمبراطورية البابلية القديمة التي اشتهر بها الملك حمورابي (1792–1750ق.م) ثم فقدت مكانتها السياسية بعد استيلاء الحثيين على بلاد بابل فخربوها، وكان ذلك سنة 1595ق.م. ثم استعادت بابل مكانتها في عهد السلالة البابلية الرابعة التي طردت العيلاميين ووحدت أكثر المدن تحت أمرتها. اشتهر من ملوكها نبوخذ نصر الأول (1124–1103ق.م). اضمحلت في العهد الآشوري إلا أنها عادت للمرة الثالثة فتبوأت مكانتها بعد تأسيس الدولة الكلدانية سنة 626ق.م. عظم شأنها في هذه الفترة حتى سقطت بيد كورش الفارسي سنة 539ق.م، فبقيت في العهد الفارسي محطاً كبيراً للتجارة حتى ظهر الإسكندر من الغرب وقهر دارا ملك الفرس في واقعة أربيل سنة 331ق.م. وبعد وفاة الإسكندر سنة 323ق.م اضمحلت بابل نهائياً عندما شيد سلوقس عاصمته الجديدة فحلت سلوقية محل بابل.

من أهم آثار بابل باب عشتار ونقوشه وبرج بابل الشهير ذو الطبقات السبع وأسد بابل الذي في القصر الرئيسي لنبوخذ نصر الثاني والحدائق المعلقة والطريقة المقدسة المؤدية إلى هيكل الإله مردوخ المسمى «أي ساجيلا» أهم هياكل بابل.

بعل:

أهم إله إلى جانب إيل في مجمع الآلهة السورية. انتشرت عبادته بين أهل المشرق في الزمن القديم، فعبده الفينيقيون والكنعانيون ومن جاروهم من السكان. وكان عندهم يمثل إله الشمس وإله الزوابع والبروق والأمطار وعشتروت إلهة القمر،

حتى أنهم كانوا يضحون الذبائح البشرية على مذابحهما . وتعني كلمة بعل (السيد) أو المالك وشعاره حزمة البرق والثور. تحدد نصوص أوغاريت مسكن بعل في جبل سابان أي الجبل الأقرع الذي يبعد حوالي 50كم إلى الشمال من اللاذقية.

حزمة البرق:

رمز إله الطقس بعل أوحدد .

بوغاز كوي:

هي عاصمة الحثيين في بلاد الأناضول، واسمها القديم حاتوشا، أو حاتوشاش وتقع على بعد حوالي 90 ميلاً شرقي أنقرة. عثر بين أنقاضها على ألواح مسمارية تمثل السجلات الملكية ويرجع تاريخ معظمها إلى القرن الثالث عشر ق.م وهي مكتوبة عموماً باللغة الحثية.

تحوتمس الثالث:

فرعون هام من فراعنة مصر (1490–1439ق.م) أخضع مدن الساحل السوري وداخل سورية ووصل حتى الفرات رغم مقاومة الحوريين والمتيانيين له.

تل العمارنة:

بقايا مدينة «آخيت – آتون» المدينة التي أسسها الفرعون المصري امنحوتب أو أمينوفيس الرابع الذي عرف باسم اخناتون (1375–1358ق.م) وهو الذي نادى بمبدأ الوحدانية. ودت في خرائب هذه المدينة حوالي 300 آجرة أو قرميدة تشتمل على السجلات الملكية الشهيرة ومن بينها الرسائل المرسلة إلى أخناتون وإلى أبيه امنحوتب الثالث (1412–1376ق.م) من ملوك الشرق الأدنى، ومن حكام بلاد الشام وهي مدونة بالخط المسماري وباللغة البابلية. وهذه من المصادر الأولية لدراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م. وتقع مدينة تل العمارنة على بعد 190 ميلاً شمال القاهرة، وقد اكتشف أرشيفها عام 1887م.

حلب:

ثاني أكبر مدن سورية، كانت عاصمة لمملكة يمحاض في الألف الثاني ق.م.

الحوريون:

من الأقوام الهندو أوروبية، انحدروا من المناطق الجبلية الشمالية والشرقية. وهم أقوام جبليون موطنهم الأصلي «أورارتو» (أرمينة الحالية) أو الإقليم الواقع إلى

الشمال والشرق من بحيرة وان، وكانت بداية تحركهم نحو بلاد آشور في حوالي القرن الثامن عشر ق.م. فكانت هجرتهم هذه تعاصر هجرة الكاشيين إلى العراق وهجرة الهكسوس إلى مصر. وقد تمكن الحوريون من قهر بلاد آشور والقضاء على حكم «شمسي حدد الأول وشمس داكان الأول» وأسسوا عدداً من الإمارات في أجزاء سورية وفلسطين وبعض أجزاء آسيا الصغرى. وقد أدخل الأمراء الحوريون إلى المناطق التي استولوا عليها استخدام الخيل والعربات الحربية التي تجرها الخيول. وقد تمكن الحوريون في منتصف الألف الثانية ق.م من تأسيس مركز مهم في شمال سورية خاصة في إقليم البليخ والخابور واتخذوا هناك بلدة «واشوكاني» عاصمة لهم. وكان مركزهم الرئيس في العراق في «أرانجا» (كركوك الحالية). وكانت لهم مدينة مهمة في جوار كركوك تسمى «نوزي» على بعد حوالي ثمانية أميال من جنوب شرقي كركوك. ولم يمض وقت طويل حتى تمكنوا من تكوين مملكة قوية عرفت باسم «ميتاني» تمتد من كركميش (جرابلس حالياً) على الفرات إلى جوار نهر دجلة تشمل أيضاً إقليم أرابخا المتقدم ذكره. وفيد ثبت وجود الحوريين في القرن الخامس عشر ق.م في فينيقية وفي فلسطين.

الحثيون:

من الشعوب الهندو أوروبية، انطلقت منذ أواخر الألف الثالث ق.م من السواحل الشمالية للبحر الأسود نحو الأناضول والبلقان. وقد استقرت هذه القبائل ما بين 2300 و 2000ق.م في وسط الهضبة الأناضولية شرقي نهر الهاليس.

كانت بلاد الحثيين مقسمة على دويلات من المدن المستقلة لكل منها ملكها الخاص بها . وكان أقدم ملوكها يسمون بملوك «كوسارا» ولعلها اسم مركز سلالتهم القديمة. ثم في عهد الملك (لابارنا) الذي كان يدعى بملك كوسارا أيضاً، نقل هذا الملك العاصمة إلى حاتوشاش شمالاً، وهي بلدة «بوغاز كوي» الحالية الواقعة على بعد حوالي تسعين ميلاً من شرقي أنقرة.

وتشير الكتابات التي عثر عليها إلى أن «لابارنا» اخترق جبال طوروس جنوباً وفتح شمال سورية فحمل على دولة «يمحاض» وعاصمتها حلب. ثم خلفه الملك «مورشيليش الأول» الذي احتل حلب، واتجه جنوباً فحارب الحوريين وشق طريقه في أراضيهم حتى وصل إلى مدينة ماري التي كان قد دمرها حمورابي من قبل، ثم انحدر نحو بابل ففتحها وخربها وقفل راجعاً إلى حاتوشاش محملاً بالغنائم والكنوز. وبذا

كانت نهاية حكم الإمبراطورية البابلية القديمة وبداية حكم الكاشيين في العراق. وقد تمكن الحثيون بعد تسنم الملك شوبيلو ليوما العرش في حوالي سنة 1375ق.م من تدمير مملكة ميتاني، فعبر هذا الملك نهر الفرات وفتح واشوكاني عاصمة الحوريين، ثم واصل زحفه جنوباً حتى وصل إلى دمشق وعقد معاهدات مع رؤوساء المقاطعات المجاورة اعترفوا بموجبها بسلطان الحثيين ومنها صعد إلى كركميش (جرابلس) فاحتلها بعد حصار قصير وعين أحد أبنائه ملكاً على كركميش وابناً آخر ملكاً على حلب.

الخابور:

أكبر روافد الفرات وهو يمتلئ بالمياه طيلة أيام السنة، ينبع من الأراضي التركية ويصب في قرية البصيرة قرب دير الزور. حافظ الخابور على اسمه في الوثائق المكتوبة منذ الألف الثالث ق.م.

دمشق:

الاسم القديم والحالي لعاصمة الجمهورية العربية السورية، ورد ذكرها لأول مرة في الوثائق المسمارية التي تعود إلى مطلع الألف الثاني ق.م. أصبحت دمشق في مطلع الألف الأول ق.م عاصمة لمملكة دمشق الآرامية ثم قضى عليها الآشوريون في القرن الثامن ق.م. وبعد الآشوريين استولى عليها الفرس، ثم غزاها الإسكندر واحتلها بعد موقعة اسوس سنة 332ق.م. ثم ضمت إلى مملكة السلوقيين، وضمها بعد ذلك بومبي إلى الإمبراطورية الرومانية عام 640ق.م.

استولى عليها العرب بقيادة أبو عبيدة بن الجراح بعد معركة اليرموك سنة 635ق.م. وكانت من أهم المدن الإسلامية إبان الحكم الأموي وعاصمة الدولة الأموية (661-750م).

تعتبر دمشق أقدم مدينة مأهولة في العالم، يحيط بها من الشمال والشرق والجنوب سهل مخصب يسقيه ماء نهري بردى والأعوج، اسمها المصري «دمسكو»، زارها إبراهيم الخليل، وقيل إنه حكم فيها.

الرافدين:

البلاد الواقعة بين دجلة والفرات (العراق حالياً مع منطقة الجزيرة في سورية الحالية).

رقيم طيني:

لوحة طينية محدبة الوجهين. شكلها مربع في الغالب ويجري نقش الإشارات الكتابية (المسمارية) عليها عندما تكون طرية، ثم يجري تجفيفها تحت الشمس أو حرقها بالنار كي تكتسب القساوة.

الساسانيون:

هم حكام الفرس أخلاف الفرثيين. استحوذوا على حكم بلاد فارس وممتلكاتها ومن ضمنها العراق وذلك على أثر انتصار أردشير بن ساسان على آخر ملوك الفرثيين سنة 224م، وقد جعل أردشير (طيسفون) «المدائن» عاصمته الشتوية. وما أن استقر الساسانيون في الحكم حتى تجدد الصراع التقليدي بين الفرس والرومان، فقد قام شابور الأول (241-272م) بهجومين على الرومان وصل في الأول إلى أنطاكية وتسلم الجزية من القواد الرومان، وفي الثانية كسب المعركة الكبرى قرب الرها (اديسا) وفتح أنطاكية وغنم غنائم كثيرة.

وفي عهد شابور الثاني (309-379م) الملقب بشابور ذي الأكتاف جرت معركة بينه وبين الإمبراطور قسطنطين قرب سنجار انتصر فيها عليه واستولى على الكثير من الحصون الرومانية والقلاع المنتشرة في الشمال. ولما تولى الإمبراطور جوليان العرش الروماني جرد حملة وتقدم بها نحو الشرق ففتح نصيبين ومدن الفرات ونزل إلى بابل وحاصر طيسفون، وكانت معركة ضارية قرب جبال حمرين انكسر فيها الرومان وقتل جوليان وتراجع جيشه نحو أنطاكية بعد تكبده خسائر فادحة في الأرواح. واستولى الساسانيون على جميع بلاد الرافدين وعلى القلاع الشمالية في أمد ونصيبين وبلاد أرمينية.

وقد جرد كسرى المعروف بأنو شروان 531-579م حملة على الرومان ففتح أنطاكية ثم حارب البيزنطيين في أرمينيا، كما تمكن الملك كسرى الثاني (590-628م) من فتح مصر والاستيلاء على بلاد آسيا الصغرى ومحاصرة القسطنطينية. إلا أن هذا النصر لم يدم طويلاً، فنزل ملك بيزنطة الجديد إلى دجلة وحاصر طيسفون وقتل فيها أنو شروان. وبموت أنو شروان تنازع أمراء الإقطاع على الحكم فيما بينهم، ما أدى بالمملكة إلى التدهور حتى جاءت الجيوش العربية الفاتحة فاستولت على العراق على أثر واقعة القادسية الشهيرة في حزيران عام 637م حيث دخل سعد بن أبي وقاص طيسفون وقضى بذلك على الحكم الساساني في العراق.

سلوقية (السورية):

هي المدينة التي أنشأها سلوقس الثاني وسميت باسمه. أنشئت على ساحل البحر المتوسط على بعد حوالي خمسة أميال من نهر العاصي لتكون ميناء لأنطاكية. نقل إليها جثمان سلوقس الأول ودفن فيها وعبد كأحد الآلهة. ثم أصبحت هذه المدينة مقبرة لخلفائه من سلالته. اتخذها الرومان قاعدة لأسطولهم.

السلوقيون:

هم الحكام الإغريقيون أخلاف الإسكندر الذين حكموا بلاد وسورية بعد موت الإسكندر، أولهم سلوقس الأول (سلوقس نيكاتور) (321-280ق.م). كان قائداً من قواد الإسكندر، بسط نفوذه حتى السند.

السوس (سوسه):

عاصمة عيلام الإيرانية القديمة. تقع بقاياهم جنوب غربي ديزفول على الضفة اليسرى لنهر الكرخة. كانت تعرف عند اليونانيين باسم «سوسه».

سين:

(بالسومري: نانا) وهو إله القمر الرافدي. كأن المركز الرئيس لعبادته في مدينة أور جنوبي الرافدين، وهو يشخص في هيئة هلال. وهذا الرمز معروف منذ عصور ما قبل التاريخ، كما يشخص فوق التيجان ذات القرون، ونواجهه في الأختام الأكادية والبابلية القديمة.

السومريون:

اسم لأقدم شعب استوطن بلاد الرافدين، واللغة السومرية ليست بالهندو أوروبية ولا بالسامية، كما أنه ليس من المعروف الزمن الذي وصل السومريون فيه إلى بلاد الرافدين. ويبدو أن أقدم الوثائق الكتابية في الرافدين مكتوبة باللغة السومرية، بحيث نستنتج أن شعباً آخر سبق السومريين إلى بلاد الرافدين. ولهذا يمكننا الحديث عن الموجة السومرية. حقق السومريون منجزات هامة، ليس فقط في مجال اكتشاف الكتابة، بل وفي مجال العمارة والفنون التشكيلية والأدب.

الشمس المجنحة:

قرص شمس مجنح أصله مصري، وينتشر استعماله في الفنون التشكيلية السورية منذ مطلع الألف الثاني ق.م. وليس من المعروف مغزاه ولو أنه يرمز إلى إله الشمس «شمش» في بعض الأحيان.

شجرة الحياة:

ويطلق عليها اسم الشجرة المقدسة أيضاً، وتعتبر من الأشكال المركزية في الفنون التشكيلية لبلدان الشرق الأدنى القديم، واستمر تأثيرها في الفن المسيحي. وبما أنها تُشخَّص مُحوَّرة في هيئة شجرة بحيث يصعب تحديد نوعها النباتي، وبوجه عام يعزى مغزاها إلى علاقاتها بعبادة الإنبات وبعبادة الملك الإله تموز.

شاوشاتار:

ملك ميتاني شهير حكم حوالي 1450ق.م وعثر في موقع نوزي على طبعة ختم باسمه.

عشتار:

اسم أكادي بديل عن اسم (إنانا) ربة الحب والحرب الرافدية، ويجري تشخيصها في الفنون في صور مختلفة، وتتميز بظهور الأسلحة على كتفيها مثل الهراوة والسيف المنحني والقوس والسهم ووجود الأسد إلى جانبها، كما ترمز إليها النجمة الثمانية التي تجسد كوكب الزهرة (فينوس).

العيلاميون:

أقوام أسسوا مستوطناتهم في أرض عيلام الإيرانية الواقعة على الحدود الشرقية من جنوبي العراق وهي المنطقة التي يسميها العرب خوزستان. وكانت حاضرتهم مدينة السوس القديمة.

الفرثيون:

هم من القوام الآرية، ظهروا في شمالي بلاد إيران في منتصف القرن الثالث ق.م. فتوغلوا جنوباً ثم غرباً.

وقد تمكن زعيمهم المدعو أرشاق عام 247ق.م من طرد السلوقيين من إيران واستقلاله في حكمها، ثم تمكن أحد ملوكهم المدعو «ميزيدات» الأول من فتح العراق سنة 141ق.م والاستيلاء على سلوقية عاصمة السلوقيين. انتقل الصراع فيما بعد إلى الفرثيين والرومان.

قطنة:

مدينة سورية قديمة كان قد اتخذها الهكسوس (1785-1580ق.م) عاصمة لهم وتعرف أطلالها اليوم باسم «المشرفية» في شمال شرقي مدينة حمص.

الكاشيون:

من الشعوب الجبلية التي انحدرت من جبال زاغروس على بلاد بابل ثم استولوا على السلطة في بابل بعد سقوط الدولة البابلية القديمة (1530-1150ق.م) وليس من المعروف تماماً أصل الكاشيين. ولم تتأكد النظريات التي كانت تقول بأصلهم الهندو أوروبي.

كركميش:

هي جرابلس الحالية مدينة في شمال سورية على الجانب الغربي لنهر الفرات. كانت أعظم مدينة من مدن الحثيين بعد عاصمتهم «حاتوشاش» (بوغاز كوي) حالياً. حيث تمكنوا من تأسيس مملكة قوية في شمال سورية مركزها في كركميش دامت حوالي قرنين ونصف القرن (1450-1200ق.م).

كركوك:

مدينة كبيرة من مدن العراق، شمال بغداد بحوالي 288كم، يقوم في القسم القديم من مدينة كركوك المسمى باسم «القلعة» فوق تل أثري ورد اسمه في الألواح المستخرجة منه «ارابخا» إحدى عواصم الحوريين.

الخط المسماري:

نسبة إلى أداة الكتابة والخط أو المسمار وطريقة ضغطه على الطين للحصول على الإشارة الكتابية. والخط المسماري هو نتاج حضاري رافدي (سومري، أكادي، بابلي، آشوري) لكن شعوب أخرى (الحوريون، الحثيون، الفرس القدماء) استخدموا الخط المسماري للتعبير عن لغاتهم. ولقد أثبت الرقم المسمارية المكتشفة في تل العمازنة بمصر أن الخط المسماري واللغة البابلية والآشورية كانتا وسيلة التفاهم الطاغية في الألف الثاني قبل الميلاد.

مردوخ:

كان مردوخ في البدء إله مدينة بابل ثم أصبح كبير آلهة الإمبراطورية البابلية مثل الإله آشور. بالقياس إلى الإمبراطورية الآشورية، ارتبط صعود مردوخ مع نمو القوة السياسية للعهد البابلي القديم، وبصفته كبير الآلهة فهو يجمع في شخصه صلاحيات الأرباب الأخرى كافة؛ بحيث لا يمكننا معرفة تخصصه بصورة معينة. ومن رموزه الرفش والأفعى التنين.

الميتانيون:

طبقة حاكمة من أصل هندو جرماني أسسوا الدولة الميتانية في سورية الشمالية وجنوبي الأناضول. ويتألف الميتانيون من الشعب الحوري، كانت عاصمة الميتانيين مدينة واشوكاني التي ما يزال موقعها مجهولاً. عرفت هذه الدولة أوسع نفوذ لها في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على يد ملكها شاوشتار ثم تحولت إلى ولاية حثية في 1370ق.م.

ماري:

موقع أثري هام اسمه الحالي (تل الحريري)، يقع على الفرات الأوسط قريباً من الحدود السورية العراقية. كانت ماري مملكة هامة منذ عهد السلالات الأولى ثم أصبحت دولة واسعة النفوذ في عهد ملكها زمريليم الذي بنى قصره الشهير في ماري. وأخيراً تهدمت ماري على يد حمورابي البابلي في حوالي 1696ق.م.

كانت ماري عاصمة دولة «عمورو» السامية وكانت مركزاً لحضارة راقية عظم شأنها في الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد.

مارتو:

هي التسمية السومرية للبادية السورية الغربية حيث مسارح العموريين البدو الرحل، وهي نفس التسمية لأحد آلهتهم.

الميديون:

جماعات من الأقوام الهندو أوروبية. كان موطنهم في القسم الشمالي الغربي من بلاد إيران الحالية. وكانت بلادهم منقسمة إلى إمارات صغيرة هاجمها الملوك الآشوريون من عهد شلمنصر الثالث حتى عهد شلمنصر الثاني، ثم ظهر أحد أمرائها الأشداء المدعو (سياكسريس) 625-593ق.م فوحد الإمارات تحت سيطرته واستولى على الأقاليم الآشورية شرقي الدجلة ثم على عاصمتها نينوى سنة 612ق.م بالتعاون مع الكلدانيين، كما أنه استولى على بلاد أرمينيا وإيران الشرقية. إلا أن انتصاراته لم تدم طويلاً؛ حيث استولى قورش الأخميني على إمبراطوريته وأصبحت ميديا جزءاً من الإمبراطورية الفارسية سنة 550ق.م.

وقورش هذا هو الذي فتح مدينة بابل سنة 539ق.م. وقضى على الدولة الكلدانية.

نبوخذ نصر:

أشهر ملوك الدولة الكلدانية، حكم بابل 43 سنة، ما بين 605 و 562ق.م. وقد خاض نبوخذ نصر معارك حاسمة حققت له إبعاد النفوذ المصري عن المناطق التي خضعت لسلطانه. ومن حملاته حملتاه على مملكة يهوذا في سنة 597ق.م ثم في سنة 586ق.م.

نينورتا:

وتعني سيد الأرض باللغة السومرية، إله حرب مثل نرجال في عالم الآلهة الرافدي ويحتمل أن مجال فعاليته الأصلي كان يكمن في إخصاب الأرض وقطعان الماشية، ومن رموزه الهراوة برأسي أسد كما هي مشخصة في أحد أميال الحدود (قودوره) الكاشية.

نوزي:

من المدن القديمة في منطقة كركوك، استولى عليها الحوريون وهم أقوام نزحوا من موطنهم الأصلي «اورارتو» (أرمينية الحالية) فأسسوا مركزاً مهماً في شمال العراق وفي منطقة البليخ والخابور في منتصف الألف الثانية ق.م. وقد اندمج هؤلاء الحوريون بالشعب الأكادي السامي وغيروا اسم البلدة فسموها «نازي». تعرف أطلال هذه المدينة باسم «ويران شهر» أو «يورغان تبة» وتقع على بعد حوالي ثمانية أميال من جنوب شرقي كركوك.

نينوى:

ثالثة عواصم المملكة الآشورية خلفت العاصمة القديمة (آشور) والعاصمة الثانية (كالح) المعروفة بنمرود الآن. تقع أطلالها على مسافة كيلومتر من الموصل على الجانب اليسر من نهر دجلة وهي تشتمل على الموضعين المعروفين بالنبي يونس وتل قوينجق والسور الذي يحيط بالمدينة، اسمها سومري الأصل. اتخذها الملك سرجون الثاني (721–705ق.م) عاصمة له تاركاً العاصمة الآشورية الثانية «كالح» ثم عاد فترك نينوى وأسس عاصمته الجديدة في خرسباد.

بلغت نينوى أوج ازدهارها في عهد الإمبراطورية الآشورية الأخيرة أي خلال حكم سنحاريب واسرحدون وآشور بانيبال، ومن أهم آثارها قصر أسرحدون الواسع في موضع النبي يونس؛ حيث جمع هذا العاهل عشرات الألوف من الألواح المكتوبة بشتى أنواع المعرفة والأدب في مكتبة خاصة. وقد عثر المنقبون البريطانيون على هذه المكتبة التي كشفت الكثير عن حضارة وادي الرافدين وتاريخه.

الهكسوس:

كلمة مصرية تعني «حاكم البلدان الأجنبية». حكم الهكسوس في مصر من السلالة 15 حتى السلالة 17 أي بين حوالي 1650 و 1450. وكانوا حكاماً أجانب. ولا يزال أصلهم موضع جدل بين العلماء. ويحتمل أن يكونوا جزءاً من الشعب الكنعاني في فلسطين وقدموا مع الحوريين أيضاً.

الفهرس

من منشورات دار علاء الدين

- الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
  .... محمد الخطيب
- الحضارة الفينيقية
  .... محمد الخطيب
- الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية
  .... محمد الخطيب
- الفكر الإغريقي
  .... محمد الخطيب
- المجتمع البدوي
  .... محمد الخطيب
- المجتمع العربي القديم
  .... محمد الخطيب
- تاريخ الحضارة العربية
  .... محمد الخطيب
- حضارة أوروبا في العصور الوسطى
  .... محمد الخطيب
- ديانة مصر الفرعونية
  .... محمد الخطيب
- أصالة المدينة كوحدة جغرافية وتخطيطية
  .... أ. د. محمد جاسم شعبان العاني
- رموز ومعجزات دراسات في طرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة
  .... أرنست دوبلهوفر
- المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية
  .... ا. س. سفينسيسكايا
- تاريخ التفكر بالإله
  .... بإشراف مارسيل روبي
- التاريخ السري
  .... بروكوبيوس
- الجنس في العالم القديم الحضارات الشرقية
  .... بول فريشاور
- فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
  .... بيتي راديس
- أسرار الآلهة والديانات
  .... د. أ. س. ميغوليفسكي
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
  .... د. خالد صناديقي
- الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل
  .... د. ماجد عبد الله الشمس
- الحضارة العاربية وأثرها في إيران واليونان
  .... د. ماجد عبد الله الشمس
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
  .... د. ماجد عبد الله الشمس
- في أصل العرب ومواطنهم
  .... د. ماجد عبد الله الشمس
- سلسلة الأساطير السورية ديانات الشرق الأوسط
  .... مجموعة من المؤلفين
- الفينيقيون والألعاب الأولمبية دور مدينة عمريت الفينيقية في نقل ممارسة المباريات الرياضية غلى اليونان
  .... د. قاسم الشواف
- أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة
  .... س. بريوشينكين
- صفحات منسية من نضال الجزيرة السورية
  .... صالح هواش المسلط

من منشورات دار علاء الدين

- المراحل التاريخية والسياسية لتطور النظام الإداري في سورية
دنحو داوود

- من أنساب العرب العارية قبائل الجبور الزبيدية القحطانية
صالح هواش المسلط

- التشريعات البابلية
عبد الحكيم الذنون

- بدايات الحضارة
عبد الحكيم الذنون

- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
عبد الحميد محمد

- أسرار بابل
ف. أ. بيلافسكي

- الحضارات القديمة ١-٢
ف. دياكوف - س. كوفاليف

- غريغوري راسبوتين حياة قديس آثم وموته
ف. ل. تيليتسين

- سلطان باشا الأطرش تاريخ وطن
فريد عبد الكريم فياض

- الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى
فضل عبد الله الجثام

- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
ك. بويكا

- اكتشاف خازاريا
ليف غوميليوف

- حكايات وأساطير من مصر القديمة
مارغريت ديفين

- نهاية راسبوتين ذكريات الأمير فيليكس يوسوبوف
فيليكس يوسوبوف

- سحر الأساطير دراسة في الأسطورة التاريخ الحياة
م. ف. البيديل

- معجم الأساطير
ماكس شابيرو، رودا هندريكس

- شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم
مجموعة من المؤلفين

- كليوباترا وعصرها
مجموعة من المؤلفين

- الديانة الزرادشتية مزديسنا
نوري إسماعيل

- الديانة الفرعونية
واليس بدج

- الأسطورة والمعنى
فراس السواح

- الإنجيل برواية القرآن
فراس السواح

- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
فراس السواح

- الرحمن والشيطان
فراس السواح

- آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ و التاريخ التوراتي
فراس السواح

- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
فراس السواح